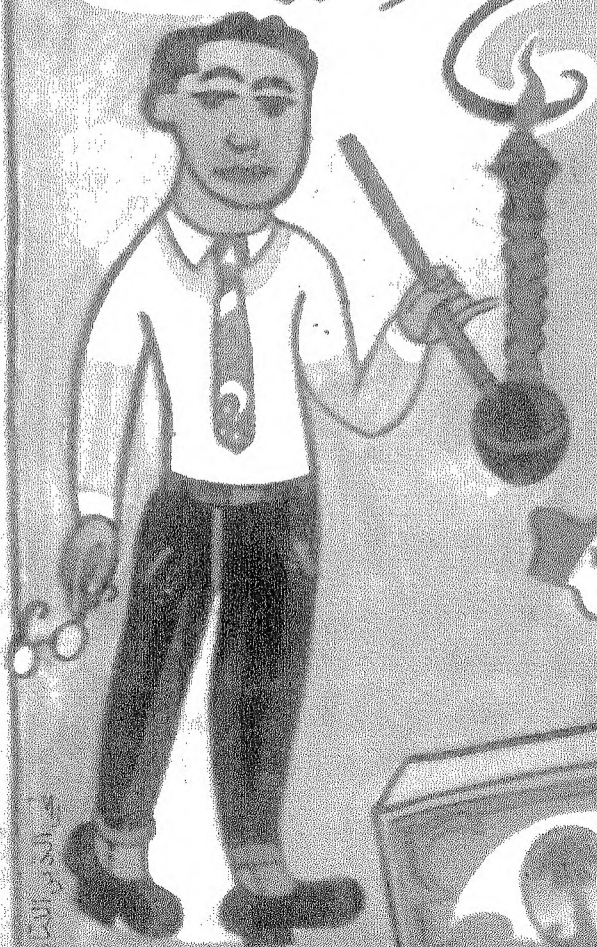


خَيْرِي شَلبي طال هيصة

روايات الهلال



جميع الحقوق محفوظة

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمية

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:

يناير ١٩٤٩



رئيس مجلس الإدارة:
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم



ثمن النسخة:

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٧٥٠٠
ليرة - الاردن ٣ دينار -
الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠
ريال - البحرين ٢ دينار -
قطر ٢٠ ريال - دبي/ أبو ظبي
٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢
ريال

العدد ٦١٩

يوليه ٢٠٠٠ • ربيع ثاني ١٤٢١ هـ

NO - 619 - JULY - 2000

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٦٠
جنيفها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او
بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية
٣٥- دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا
٥٠ دولارا - باقي دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر
مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال
عملات نقدية بالبريد

لاشتراك في الكويت : السيد عبدالعال بسيوني زغلول
الصفا ص . ب ٢١٨٧٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدیان
سليم) ت : ٣٦٢٥١٥٠ (٧ خطوط) المكنتات : ص . ب :
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١٦٥١١ - تليفونيا :
المصور - القاهرة ج . م . ع

تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

عنوان البريد الإلكتروني •

darhilal@idsc.gov.eg

صالح هيصة

بقلم

خيري شلبي



دار الهلال

الغلاف إهداء من الفنان
محيى الدين اللباد

إن الإنسانية تنظر إلى نفسها بجدية أكثر مما ينبغي وهذه الجدية هي الخطيئة الأولى التي تردى فيها العالم . فلو أن رجل الكهف تعلم كيف يضحك لتغير مجرى التاريخ . الجدية هي الملجأ الوحيد الذى يلوذ به ذوو التفكير الضحل .

«أوسكار وايلد»



ربنا خلق الدنيا هيصة ! وخلق فيها بنى آدم هيصة !، كل واحد فى هيصة ! .. يعمل هيصة ! عشان يلحق الهيصة ويا يلحق يا ميلحقش ! .. وكلهم كحيانين ! .. بس كل واحد كحيان بطريقة ! .. وأنا .. ملك الكحيانين ! .. عشان كحيان بكل الطرق .
«صالح هيصة»

حى معروف

غرزة حكيم كانت فى موقع متميز فيما عرف بيننا بمجمع الغرز فى حى معروف ، الكائن خلف شارع طلعت حرب - سليمان سابقا - مباشرة ، الشارع الرئيسى فيه ، شارع معروف ، مواز لشارع طلعت حرب من الخلف ؛ يبدأ من ميدان التحرير ، يقطع شارع الانتيكخانة المعروف حاليا بمحمود بسيونى ، حيث كانت توجد فيه مكتبة الفن كجزء من متحف الفن الحديث كنا نقضى فيها وفيه كثيرا من أوقات الأصيل من أيامنا التى لا حاكم يحكمها ، فنستمع إلى الموسيقى ونقرأ الكتب الثمينة ونشاهد اللوحات . ينتهى شارع معروف فى شارع ستة وعشرين يوليو ، متقاطعا مع شارع ثروت . آخر مبنى فيه هو دار القضاء العالى المطل على كل من شارعى ستة وعشرين يوليو وشارع رمسيس معا . بهذا المبنى المهيب تتصل عدة مبان من نفس الطراز تطل على شارع ثروت هى نادى القضاة ونقابة الصحفيين ونقابة المحامين . فى مواجهتها - على الرصيف المقابل لشارع ثروت - مبنى كنيسة القلب المقدس ويجوار مبنى مستشفى السكك الحديدية .

شارع معروف هو التقيض التام لشارع طلعت حرب ، مع أن المسافة بينهما خطوات معدودة . فمن مقهى ريش - منتدى المثقفين والوجهاء وصفوة من السواح - على ناصية ميدان طلعت حرب، إلى مجمع الغرز فى حى معروف أكثر من تخريمة لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق ؛ بعدما نشعر أننا - كأنما بسحر ساحر- قد انتقلنا إلى حياة أخرى فى مدينة أخرى لشعب آخر . الشارع يمتلئ عن آخره بنوعيات لا حصر لها من البشر والأشياء : عربات الكارو التى تجرها الحمير والخيول أو التى تدفع باليد .. فروشات الخضراوات والفاكهة والأسماك والأواني المصنوعة من البلاستيك والألونيوم بجميع أحجامها .. خردوات ..

ثلاجات للمياه الغازية .. محلات على الجانبين ، بقالة ، فول وطعمية ، كشري ، قطع غيار سيارات ، ورش دوكو ، ميكانيكية ، عجلاتية ، كهربائية ، مقاه ، وحدات متقلة من كل هذه المحلات فى قنارين يحملها باعة سريعة : ناهيك عن أركان وخجانيق لإصلاح الكوالين وأبواب السيارات وإصلاح بوابير الجاز والصمراتية المتخصصين فى رتق الأحذية التعبانة وتلميع جلودها .

كل هذه المحلات لها زبائن كثار يأتون إليها بسياراتهم وراجلين . العجيب أنهم ينجحون فى الدخول بالسيارات إلى أى بقعة مفقودة ؛ بأعصاب هادئة يركنون سياراتهم وسط عواصف من الضجيج والزعيق والتزميز الملحاح المثير للأعصاب ولابد - بفضل الأريحية العظيمة للشعب المصرى فحسب - أن يمضى كل شئ إلى غايته ؛ تمر السيارات من خروم الابر ، فلا ينكسر فانوس ولا ينعجن رفرر ولا يختل فرش ولا يصاب راجل ، ولا يتوقف الطريق إلا ليشرع فى الحركة بعد برهة تقصر أو تطول ، حيث يتطوع ناس كثار للقيام بتنظيم المرور إذا اختنقت الحركة لسبب أو لآخر ، ويتطوع آخرون لدفع السيارة إذا تعطلت ، وقد يجئ الميكانيكى لحد عندها بزعقة من أحد الناس .. ناهيك عن زبائن الخضراوات والفواكه واللحوم والأسماك والخبز ، معظمهم نساء من مستويات متعددة يحملن السلال والحقائب الخوص ، سيدات كالخواجهات أو أشد شقرة وفرنجة ، خادمت عجفاوات عبيطات مبهورات ثرثرات ، نسوان حفاة يلبسن الأسود فى أسود أتين من بقاع مجهولة ليفرشن ها هنا بأناجر الجبنة القريش والزبد والمش وأفراخ الحمام .

جميع سكان وسط المدينة يشترون كل احتياجاتهم من هذا الشارع السوق الذى لا تهمل فيه الحركة ليل نهار حتى ليشعر السائرون فى زحامه كأن الأرض هى التى تتحرك بكل هؤلاء . رغم ذلك فالشارع ممتع فى كل ساعات انهمار والليل. الحياة فيه تمضى بأرخص التكاليف فحيث يكلفك الغداء فى شارع طلعت حرب مرتب شهر كامل إن كنت موظفا غلبانا ، تستطيع فى شارع معروف أن

تملاً بطنك بقرشين اثنين وربما بقرش واحد تأتيك شريحة خبز متخمة بالفول والطعمية والسلطة ، أو هبرة من البطاطا الساخنة الشهية المشبعة ، وأن تجلس على واحدة من مقاهيه أو بوفيهاته الكثيرة فتحتسى الشاي بالحليب وتدخن الشيشة بقرشين ونصف القرش فقط، وفوق ذلك تمتع عينيك برؤية حشد هائل من النساء من مختلف الأعمار والأشكال والألوان فكأن بيوت المدينة كلها قد أطلقت حرائرها المصنونات على هذا الشارع بثياب منزلية بسيطة تكشف عن مفاتن الجسد وبالتحديد عن البقاع المراد سترها ؛ يمشين على سجيتهن بغير تحفظ أو أدنى شعور بأى مراقبة أو تطفل كأنهن يتحركن داخل منازلهن ؛ تندلق الصدور فوق أقمص المعروضات فتختلط الأثداء بفرد الحمام والأرانب المستكنة فى تحفز خبيث ، والخود بالرمان والتفاح والخوخ ؛ تتمازج الأباط البيضاء الحمراء المنتوفة الشعر بأفخاذ الضأن والعجالي المعلقة فى الخطاطيف ، ينتفض البلى والبياض والقراميط فوق جنبات السماكين للمس أيدي البلطيات البشريات .

ليل شارع معروف له سحره الخاص الفريد . يخف الزحام عقب مرور شمس الأصيل ؛ تظهر أرض الشارع الموحلة ويلاطاته المتقززة تجرى بين شقوقها مياه عطنة . الجو يفعم بزخم ثقيل أقرب إلى رائحة العرق الذى تسببت جباهه فوق أرض الشارع طول النهار . ينتعش الهواء برائحة اللحم المشوى على الفحم المشتعل ، والكبد والمخ المقلبان فى طاسات على عربات نقالى نظيفة بيضاء ملونة الزجاج والأنوار . تزعق الفواكه الفواحة كمدرجات من الزهور كمهرجان من الألوان الطبيعية . تتكاثر طرققات فتح زجاجات البيرة والاسباتس مع طرققات حيز الطاولة والماشات فوق رخامات المقاهى . صوت أم كلثوم يصدح فى مذياع متكرر فى جميع أنحاء الشارع ينداح فى كل اتجاه ليرتد سريعاً من كل اتجاه ، الحياة تبدو هاهنا سهلة رحية هنية مشبعة بالقناعة . أضواء النيون الصاخبة تقيم خيمة مبهجة من التلطمات يتمدد فيها الخيال منتشياً بمشاعر إنسانية رطبة خضراء دافئة معا ؛ سيما إذا كنت خارجاً لتوك من مجمع الغرز المخبوء فى أعماق هذا المهرجان الكبير .

سكة نافذة

لغرزة حكيم مداخل كثيرة ، يمكن الدخول إليها من شارع رمسيس . وهنا يتعين عليك أن تمر على غرزة جلال . هذا أمر محرج فى الواقع ؛ فغرزة جلال منافسة للغرزة التى نفضلها . هى عبارة عن مقهى مبنى بالخشب والبوص وسط هديم على مساحة كبيرة . البيوت من حوالىها - بامتداد شارع معروف وشارع رمسيس معا - آيلة للسقوط رسميا فى دفاتر الحكومة ؛ انتهى عمرها منذ أكثر من نصف قرن مضى ، وصدرت أوامر مشددة بإخلاء كل هذه البيوت التى لم تفقد رغم الشيخوخة جمال طرزها المعمارية البديعة حيث كل بيت يعتبر تحفة معمارية ثمينة لكنها أصبحت كعزير قوم ذل فلم يجد بين البشر الأخساء من يرحمه . السكان لم يجدوا بديلا فبقوا فى بيوتهم على مسئوليتهم وسجلت البيوت فى دفاتر الحكومة على أنها مجرد هديم يخلو من السكان وذلك على الرغم من تكرار وقوع البيوت بالفعل كل حين أمام الجميع وفوق شأغليها ؛ بل إن سكانا جددا جاءوا فاستولوا على الهديم نزعوا حديدته وخشبه ، أقاموا بها فى المساحات الفارغة عششا للسكنى ومحلات للبيع والشراء وغرز للتحشيش وورشى للدوكو والمفاتيح والسمكرة ؛ وكان رائدهم فى ذلك هو المعلم جلال صاحب أشهر غرزة فى وسط المدينة إن لم يكن فى المدينة كلها بجميع ضواحيها ؛ سيما وأن الشعب المصرى لديه ولع غريب بشخصيات الخارجين على القانون المتسلطين القساة ، ويجد الكثيرون لذة كبرى فى الانصياع لأوامره والخضوع لسيطرته ، بل ربما يزايدون على بعضهم البعض فى اكتساب وده ، ربما اتقاء لشره ، وربما للاستقواء به فى أمر من الأمور .

المعلم جلال أشهر حرامى خزن فى مصر ، خارج من مؤبد ، مستعد لفتح كرش أى ضابط شرطة يعترض طريقه أو يعاكسه فى رزقه أو حتى يناوشه ،

جميع ضباط الشرطة يخشون بأسه ويأسه . تركوه يفتح هذه الغرزة أفضل من فتح الكروش وكسر الخزائن ، غرزته جميلة فعلا ، نظيفة ، منضبطة ، تأخذ شكل المقهى بما يتوافر لها من كراسى ومناضد بمفارش ملونة مصفوفة داخل العشة الكبيرة الواسعة كملعب الكرة وخارجها . لها نضبة مبنية بالرخام والقيشاني مزودة بأفخر الأكواب والبراريد والصواني النحاسية والطاقاطيق والترجيلات - للمعسل فحسب - فضلا عن الجوزات للتحشيش الصرغ . الصبيان الذين يخدمون الزبائن على شئ من النظافة وحسن الخلق ينطون على خشونة وعجرفة وغطرسة مستمدة من شعورهم بقوة معلمهم وسطوة نفوذهم ، يرفعون سعر الحجر إلى قرش صاغ بدلا من قرش تعريفه يعنى ضعف سعره فى الغرز الأخرى ، والشاى إلى قرشين وذلك - فى زعمهم - للمحافظة على مستوى الزبائن وطرد الواغش .

استطاع المعلم جلال بكياسته وخبرة السجن المؤبد أن يجتذب نوعيات منتقاة من أنظف الزبائن وأميلهم إلى الرصانة والمظهرية ، من صحفيين وفنانين وموظفين كبار فى القطاع العام ، ومسائير التجار ، وأبناء ضباط الثورة الموسرين الذين حلوا محل أبناء الباشاوات يدفعون البقشيشات بغزارة غير مفهومة المصدر . فيحظون بخدمة تميزهم عن غيرهم ، وعلى غيرهم الانتظار حتى ينتهى الصبيان من خدمة البكوات على راحتهم ، ومن لا يعجبه فالباب - عدم المؤاخذه - يفوت الجمال . الكثيرون من الحشاشين العتاة ومن بينهم شلتنا ينفرون من غرزة جلال وإن كانوا من أصدقائه بل ويحصلون - إن حششوا عنده - على أحسن حظ من الخدمة المتميزة ولكن فى أثناء وجوده فحسب ، أما فى حصة النهار حيث يكون هو فى سابع نومة فيخضعون لمزاج العيال الصبيان ، وإنهم لن الخباء الملاعين . تنكسر عيونهم بالفلوس وحدها .

وجهة نظر شلتنا أن التحشيش فى مقهى عام ، أو ما يشبه المقهى العام ، يختصر من المزاج نصف المتعة يؤخر وصول الدماغ إلى مرحلة الأفل ، حيث الشرب بطىء جدا بحكم الزحام ، الحجارة تجئ عشرا عشرا مهما كان عدد

الشلة كبيرا ، الواحد لا ينوبه من الطرحة إلا حجر واحد ، فإلى أن تجئ العشرة التالية ويتم تغيير ماء الجوزة وطحن النار فى المصفاة تكون الأنفاس السابقة على ضآلتها قد تبخرت من الدماغ . فإذا صاح أحد فى استعجال الصبى أو فى طلب جوزة إضافية ردوا عليه فى برود بأن الصبر حلو ، وأن الله مع الصابرين ، وأن الدنيا ما طارت بعد ولن تطير ، وأن كل تأخيرة وفيها خيرة ، إلى آخر هذه الردود الجاهزة المثيرة للغضب والغضب . عمال بلطجية مسحوبون من ألسنتهم الخشنة العمياء ، ثم إن الراديو عندهم مفتوح بأعلى صوته لا سبيل لتخفيضه لأن الجميع من حقه أن يسمع ؛ فى نفس الوقت من حق الجميع أن يتكلم . وفى ظل الراديو الصادح لا كلام إلا بأعلى صوت . مثل هذا الضجيج يتكفل وحده بتطهير أعمق الأنفاس ، يصدع الدماغ مهما كانت التعميرة جيدة . ومن مصلحة المعلم جلال - بالطبع - ألا تشعر بالانسطال أبدا لكى تظل تشرب وتشرب إلى غير نهاية .

أمثالنا من الحشاشين العتاة يفضلون التحشيش فى غرزة صريحة ، ليست من المقهى فى شئ وإن كانت مثلاً تقدم شايا وقهوة ولكن كخدمة جانبية يمكن الاستغناء عنها أو تعطيلها فى أية لحظة لأى سبب . وكلما كانت الغرزة أقرب إلى الكهف أو القبو أو الجحر أو الخن لعبت بمزاج الحشاشين وأثارت خيالهم . يضاعف من متعة الحشاش أن يكون جالسا - حيثما كان - للتحشيش فحسب ، محاطا بتحفظات كثيرة مثيرة . الغرز الصريحة كالبارات لا تشغل نفسها بأى شئ آخر تتسلم الحشاش من لحظة جلوسه بأطقم من الحجارة وراء بعضها فى كثافة لا تضيق بدقة واحدة ، وفيها يتخصص العمال ؛ واحد لتنظيف الحجارة ، واحد لتعبئتها بالمعسل ، واحد لإحياء النار وطحنها فى المصافى ، واحد لتغيير ماء الجوزات ، واحد أو أكثر لخدمة الشاربين حيث يقعى أمامهم على الأرض ممسكاً الجوزة بيد ومصفاة النار بالأخرى يضغط بها على الحجارة لإحكام الأنفاس وهذا العامل هو أقل الجميع أجراً لأنه يعتمد على البقشيشات .

سرداب «على منجة»

المدخل الثانى لغرزة حكيم من جهة شارع الانتكخانة ؛ لكن المرور منه محرج هو الآخر . على ناصيته بازار المعلم «على منجة» ، هو دكان صغير جدا ، يبيع السجائر وأنواع الحلويات المغلفة والمياه الغازية ؛ مجرد مظهر فحسب ؛ أما التجارة الحقيقية لعلى منجة فإنها الحشيش والأفيون .

المعلم على منجة رجل أريب مصه الأفيون ، لوعته السجون العديدة المتوالية . تعرفه الأحياء القاهرية البعيدة نظرا لحرصه الشديد على مستوى جودة الصنف ؛ يتخصص فى حشيشة من البريمو تعرف بالبودة الزرقاء ، لا يغيرها مطلقا مما يؤكد أنه يتعامل مع مصدر واحد من أصحاب المزارع فى لبنان وذلك أمر يحرص دائما أبدا على تأكيده لدى كل فتفوته يبيعها لزبون حتى وإن كان الزبون عجولا وغير معنى بمعرفة شئ من هذا .

عيب المعلم «على منجة» أنه يمس دم المشتري بصنعة لطافة وإن كانت ملحاحة سمجة مكشوفة ، إلا أنه ناعم وسام كثعبان صحراوي ، وجهه فى لون الشبيح ؛ من فرط هزاله وهروب الدم من وجهه لا تكاد تراه . غليظ الشفتين ، متاكل الأسنان، جاف الحلق باستمرار إذ أن السيجارة «الوينجز» التخينة بدون فلتر لا تفارق شفثيه . بصره حاد ، متلصص ، فيما هو غاطس خلف البنك الزجاجى المزدان ببرطمانات الطوفى والكرملة والفوندام والنعناع واللبان والمصاصات والبمب والبالونات «النفافخ» يلمح الواحد منا وهو مار فى الطريق على الرصيف المقابل ؛ يختطفه بإشارة جادة حاسمة من ذراعه المعروقة ؛ وبابتسامة تشبه حبة الطماطم المنعصه لكنها مليئة مع ذلك بمشاعر الترحيب ومظهر الشهامة والكرم والوعود البراقة كأنه سيبشرك بخبر سعيد أو سيمنحك هدية ثمينة ، يستميلك خطاف هذه الابتسامة ينغرز فى عنقك فإن حاولت الابتعاد يوجعك فلا تتملص - من باب

الذوق على الأقل - هكذا تدلس على نفسك - لابد أن تميل نحوه لكى تسلم عليه
بصرف النظر يا أخى - كما سيقول لك لابد - عن أيها حاجة .
- « إحنا ما نعرفش بعض غير عشان المصالح ولا إيه ؟
دا احنا رجاله يا جدع ؟

ما أن يلمحك تحود عليه حتى يقب ساحبا العكاز تحت إبطه ، يمرق من فتحة
البنك إلى الثلجة الحمراء المنصوبة بجوار فاترينة السجاير خارج الدكان؛ يفتحها
متجاهلا صياحه بأنه لا لزوم للتحية ؛ يزيح قطع الثلج يجس بيده الزجاجات
يختبر برودتها لينزع أبردها ؛ فى لمح بالبصر : تك اتفضل يا بيه مطرح ما تسرى
تمرى . ويضيف دائما كتعليق على قبورك الامساك بالزجاجة .
- « بل ريقك ! الدنيا حر ! نار ! ربنا يكفيننا نار جهنم » .

أثناء شربك البطي للزجاجة الفارقة فى الصقيع ، يعبث هو بأطراف أصابعه
الطويلة خلف أذنه فإذا هى بعد برهة ممدودة إليك وعلى ظفر إبهامها لحسة أفيون
ذى رائحة نفاذة بالطزاجة المغوية الرهيبة فى أن كطزاجة الخطيئة :
- « ادينى بقك خد البوسة دى »

الشائع لدى الأفيونجية المبتدئين أن المياه الغازية تفسد مفعول الأفيونة .
والمعلم «على منجة» دائم السخرية من هذه الغشومية :
- « صل على النبى امال ! الأفيونة الأصلية مفيش حاجة تفسدها ولا حتى
الليمون ! »

أنت تطيل الوقفة مرغما لتفكر فى مخرج من هذه الورطة . ينصحك المجربون
من أمثالنا بأنك - خل بالك يعنى - كلما أطلت الوقوف ازداد تورطك ؛ لأنه فى
الحال سيعزم عليك بسيجارة محشوة:
- «دى تعميرة لسه طازجة مانزلتش السوق ! ربنا يكرمك ويكون لك نصيب
فيها ! مش بعيدة على ربنا ! »

عملا بالنصيحة تطلب منه - على مضض - ربع قرش ، أو حتى تمناية .
تعتذر عن ضالة الطلب بضيق ذات اليد حاليا ، ولابد أن تردف هذا بقولك إنك لا

تحب الاستدانة ولا تؤمن بالسلفة حتى ولو بمليم واحد . احذر أن تبدو لنا أو مترددا فى هذا القول ؛ لأنه سيلهيك بالتشجيع :

« ما يهكمش الفلوس يا أستاذ ! من امتى كانت المدعوقة الفلوس دى لها قيمة؟! احنا بنعرف بعض عشان الفلوس ؟ جرى إيه يا جدع ؟ عايز قد إيه ؟ » .
هو واثق أن حقه مضمون ؛ فأنت لابد ستشرب هذا الحشيش فى واحدة من مجمع الغرز فى حى معروف فى سرته فى رحاب ضريح الشيخ معروف نفسه .
هى كلها غرز تحت عيني المعلم « على منجة » وفى متناول يده فى أى لحظة من ليل أو نهار . ما أسهل أن يطب عليك كالقضاء المستعجل فى لحظة لا تتوقعه فيها على الإطلاق ؛ الدفع أو الفضيحة كلاهما صعب ومهين . لو أنك تعرضت للتهزئ فى الغرزة مرة واحدة - وبسبب الفلوس بوجه خاص - فلن تفلح فى استرداد كرامتك بعدها مطلقا مهما بالغت فى الانفاق عن سعة .

المشكلة أن «على منجة» يبيعك الربع قرش بأربعين قرشا فى عز الرخص ، فى حين تبيعه أم يحيى - زوجه السابقة - بخمسة وعشرين قرشا فقط ، نفس التعميرة وربما أجود منها بكثير ، إضافة إلى أن يد أم يحيى سخية جدا ، قطيعتها تملأ العين ، تشعرك بالرضا والاقتناع التام بأن هذه القطعة ربع قرش حقا وفوقه بوسة تزن عشرة حجارة بالراحة . أما هو ، فيده والعياذ بالله مسممة ، تقصول الربع قرش إلى حجم حبة الفول التعبانة ملفوفة فى ربع فرخ من الورق السوليفان ، ومبرشمة بطريقة يستحيل فتحها إلا على مهل بعد انصرافك حيث لا فائدة ترجى من اعتراض أو غضب ، لن ينوبك سوى العكنة على اللى حصل فمن الحكمة إذن أن تضع نفسك تحت طائلة المثل الدارج : «اللى وقع ينسلخ» مسلما أمرك وعوضك على الله .

وإذن ؛ فإن المرور من أمام كشك المعلم على منجة شائك وخرج وغير مستحب على الإطلاق .

عطفة أم يحيى

يوجد مدخل ثالث إلى غرزة حكيم من شارع الشيخ معروف من خلف مسجده حيث يقودك سرداب ضيق متعرج ، مزدحم بطوائف لا حصر لها من أطفال ينامون على الأرض عرايا وسط دوائر من خرائهم مغرزة بجيوش من الذباب المعتق والسحالي والخنافس والصراصير الطائرة ، نسوان بارشات على الأرض أمام طشوت الغسيل وبوابير الجاز المشتعلة تحت صفائح المياه المجلوبة من حنفية الصدقة على تخوم حى بولاق أبو العلا . عجائز يفرشن بطوى نبوت الغفير والعسلية وغزل البنات يهاجمها الذباب بكثافة . كلاب ضالة جرياء تلحق مؤخرات الأطفال والأواني فتباغتها الضربات الموجهة فتعوى قافزة من شدة الألم لتواصل صراخها الملتاع على مبعدة قريبة . رجل بعياله يتحلقون طبق الفول المدمس يتسابقون فى قضم الأرغفة مع رموس البصل الأخضر . رجل آخر يفرش الأرض الرحلة مستغرقا فى نوم كمومياء هاربة من المتحف المصرى الواقف على مبعدة خطوات قصيرة .

المرور من هذا السرداب يتطلب تدريباً وقدرة بهلوانية . إن المار منه ليسدو للرأى من بعيد كأنه يؤدى رقصة على الجليد أو فى حقل من الأشواك المسنونة . لسوق تمر فى طريقك على بيت أم يحيى . كلبها الشرس - أبوه ذئب - المربوط فى جنزير مثبت فى الباب لكى ينبه أم يحيى لقدم أى وافد غريب فتأخذ حذرهما مبكراً . هو على عكس الكلاب كلها لا يألف أحداً على الإطلاق مهما كان زبونا يتردد عليه عشرات المرات كل يوم : كلب لا يعطى للزبون ريقاً حلواً ، من شدة نذالته أنه حين يتبين أن الزبون قديم ومعروف لديه يكتفى بدفن رأسه بين كتفيه ويروح يزأر بقوة وحشية فيما يحملق فى الزبون ينظرات عدوانية مستريبة مستعدة للغدر فى لمح البصر . يظل يزأر ويزوم إلى أن يسكته صوت أم يحيى من شرفة

الطابق الثانى وهذه عبارة عن بقايا جدار خشبى بارز من بقايا مشربية هرمه متهاكة .

إذ تتعرف أم يحيى على الزيتون ، تبتسم الغمازتان فى صدغيها المدورين البارزين ، يشرق وجهها الخمرى المدور تحت عقصة المنديل أبو أوية ومن تحت خصلة شعر ناعم تتخلله شعيرات بيض تبدو جميلة فى تدويره وجهها ذى الجاذبية الشهية الكاشفة عن جمال غابر كان لاشك أسراً خلايا . باطمئنان قولاذى تشد حبلا بجوارها ، ينزاح الترياس عن مرقده ، ينفتح باب الشارع .

أنت يجب أن تدخل بظهورك تحسباً لاستئصال الكلب ، ستبقى فى مواجهتك سلماً خشبياً أنت لا شك تعرفه جيداً ، مع ذلك يشد انتباهك دائماً كائنك تراه لأول مرة ، درجاته أشبه بعلب أو صناديق خشبية ترقد فوق أطراف بعضها البعض . بسطة فالثانية فالثالثة تراك فوق سطح يطل على الخلاء من ثلاث جهات سقطت أنصاف جدرانها فوسعت المدى . على البسطة الأخيرة تكون أم يحيى فى انتظارك ، فى يدها كيسه من العبك معقودة برباط مدك فيها . عليك أن تمد يدك بالفلوس فى الحال . برؤيتها للمبلغ الممدود تعرف قدر ما تطلب ، تفتح الكيسه ، تنتقى لك طلبك ، فى لمح بالبصر تخفى الكيسه فى سرداب سحرى بين الهديم المتراكم حواليتها ؛ تبقى واقفة على رأس السلم تواصل الزئير الخشن فى كلبها حتى تطمئن إلى أنك وضعت قدمك على أرض الحارة فتغلق بابها وتنسى تماماً أنها شرفت برؤيتك .

خطوات قليلة من عندها تجد نفسك بعدها محاذياً لغرزة المعرق . إنك لتتجاوزها رغماً عنك ؛ إذ هى مجرد دكان صغير كئيب تفج منه الرطوبة والعفونة وأسراب النمل والذباب وبرك البصاق والبلغم المطرود من صدور زبائنه المقرفين شاربى الحشيش السكة يضعون على بشرة الأرض السوداء قروحا منتفخة متقيحة لا تجد من يتحمس لردمها بالتراب . عينيك تشد تلقائياً إلى غرزة حكيم المواجهة لك مباشرة ، بريحها الطيب الحميم .

إلا أن الدخول من هذه العطفة غير مستحب اللهم إلا إذا اشتريت الحشيش من أم يحيى وقفلت عائدا بضعة الأمتار التى قطعتها فى العطفة حتى بيت أم يحيى ، فإن واصلت السير فى نفس العطفة ستمر على شباب خاملين ، عاطلين ، تقرحت جفونهم من فرط السهر وشرب الحشيش الرديء ، هزلت أبدانهم داخل أسمال مرقعة لا لون لها ، لا شكل ، لا هوية . هم مع ذلك طيبون ، غلابه ، حلانجية ، الواحد منهم يعلق بك بمجرد مرورك عليه سواء نظرت إليه أو تجاهلته ، لابد أن يفرض عليك صحبته وخدماته بأى شكل بأى حيلة ، لا يقيم لاعتراضك أو تأففك أو حتى اشمئزك أى وزن ، أجارك الله من الولد سوكة مثلا ، هو ليس غرزجيا محترفا ، ولا بلطجيا متمرسا ، إنما هو - هكذا يلفت نظرك بالمفتشر - رجل محترم ، ويعجبك ، تؤسم فيك الجدعة فأحب أن يعمل معك واجبا . يقصد طبعاً أنه يريد أن يمسك لك الجوزة بنفسه إذ هو يعرف كيف يسقيك حجرين معتبرين أبرك من مائة تشربها من يد العيال الغرزجية أولاد الحرام الذين لا يخدمون بذمة ، لا نارا صاحية ، لا جوزات سالكة نظيفة كما يجب ، فوق ذلك يأخذون بقشيشا!! على ماذا يا حسرة!! إنهم لصوص باسعادة البك صدقنى ! الولد منهم يضع بوزة كله فوق الحجر؛ قبل وضع النار عليه ، حجتة أنه ينفخ الدخان المتبقى فى الجوزة ، وأنت عدم المواخذه يتهيا لك أن فى هذه النفخة فوق الحجر تسليك للحجر حقيقة الأمر - صدقنى - أن الولد الملعون - كلهم أقصد - يسرب لسانه الذى يستأهل قطعه ليلتقط التعميرة من فوق المعسل ولا من شاف ولا من درى ؛ ثم يصب النار فوق الحجر وأنت تشد أنفاسا من معسل حاف ؛ ينقطع قلبك من الشد وليس فى دماغك شئ يوحد الله ؛ يعنى أنت تشتترى التعميرة من عرق جبينك ليسرقها منك ابن القحبة هذا ويسقيك الأونطة وهكذا يرمى الآخرين بما يفعله هو، ينبهك إلى نقيصته من حيث أراد تحذيرك منها عند الآخرين .

المؤكد أنك بانتهاء العطفة عند باب غرزة حكيم لابد تفاجأ بأنك صرت مخفورا بواحد أو اثنين وربما ثلاثة يمشون بحذاءك مشية الصباح . يدخلون الغرزة معك ،

يجلسون بجوارك رافعين الكفة بشكل تكاد تضيع معه هيبتك . قد يتناحرون على تحديد من يقوم بخدمتك . فى الغالب يسفر التناحر عن عراك عنيف ، وإن كان مكتوماً بشفرة سرية مدركة لديهم ، تنتهى بعد قليل بانسحاب الأضعف ؛ فإن كانت قواهم متكافئة فإنهم سرعان ما يتفاهمون بنظرة مدرية ؛ فبدون عراك أو تناحر يتقدم أحدهم ويبقى الآخران على مقربة منك محتفظين بمسافة قصيرة ، ليس احتراماً لك بالطبع ولكن هذه المسافة على قصرها تتيح لهما فرصة الادعاء بأنهما ليسا من ضمن القعدة إذا ما هجم البوليس على الغرزة فى أية لحظة وهى هجمة متوقعة فى كل برهة . الذى تقدم ليسقيك سيكتفى بتنفيض الحجر وراعى ، أى أنه يسحب الأنفاس المتبقية فى الجوزة بعد شدك للنفس بأى عمق تشاء ؛ تلك هى بهريز الأنفاس لم يستطع صدرك احتواءها كلها حيث النار قد التهمت بالتعميرة فتوهج عطرها وطشطش زيتها . الولد نفسه - برغم نشفان صدره - لن يقدر على سحب البهريز كله إذ هو مكثف وعميق ، سيشد نفساً خاطفاً ويدخل بالباقي على رفيقيه ؛ إلا أنه من حين لآخر يدخل على رفيقيه - بعد إذن سعادتك - بحجر يسفحانه معاً لا يشاركما فيه أحد .

أنت لابد أن تضيق بصحبتهم بتطفلهم المقيت الموجه خلال خمس دقائق من جلوسهم قبالتك . حكيم صاحب الغرزة الأرقم ، ومن مكنه خلف براميل الحجارة فى ركن بعيد ؛ هو الوحيد الذى سيشعر بضجرك قبل أن يظهر عليك ، سيلوى بوزه يملطه شبرين من شدة الحنق . صبيان الغرزة - المعتمدين - سيرمقونك ويرمقونهم بنظرات غير مريحة ، يسخرون بها من شدة استغفالك واستسلامك للابتزاز بسهولة ؛ ولكن عقاباً لك على جلبك سيمكرون بك إذا طلبتهم للخدمة .

وإن ؛ فالدخل من هذه العطفة مجلبة للكدر وتعكير المزاج من كل ناحية . النصيحة أن تأخذ حشيشك من أم يحيى وتستدير مرتداً إلى شارع معروف باحثاً عن المدخل الأفضل .

الدرب المكشوف

المدخل الوحيد الآمن لغرزة حكيم فيما يبدو هو ذلك الدرب المفتوح على شارع شامبليون . مع ذلك هو الآخر ليس يخلو من بعض المقلقات . على ناصيته دكان يبيع المقشآت والفرش وأدوات التنظيف بوجه عام . صاحب الدكان لا يحلو له الجلوس إلا فى مدخل الدرب الرطب ، يدخن النارجيلة مع صاحب أو اثنين . القعدة ملفف ، يجتذب المارين للجلوس . وجوه تتجدد باستمرار فى هذه القعدة ، لناس من سكان الحى أو من زبائنه ، عيونهم فضولية بشكل مريب ، تتفحص كل داخل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كأنه خروف معروض للبيع .

بجوار هذا الدكان دكانة صغيرة كانت فى أصلها فراغا ضيقا بين ضلعين بارزين لبيتين متلاصقين ؛ استعمره رجل كان موظفا فى البلدية وأحيل على المعاش اسمه حوده المعصراوى قام بتقفيصه بمتانة وإحكام فجعل منه منفذا أنيقا لبيع السجائر والمرطبات ، فلا سكان البيت اشتكوا ولا أصحاب البيت تذمروا ، لحوده المعصراوى ابن كبير يعمل محاميا شهيرا ، كما أنه عضو باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ، وكان معدودا بين اليساريين المحترفين .

الأستاذ حلمى المعصراوى المحامى وعضو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى كان بطبعه محبا للجمهرة حبه للحوار السياسى المعتدل . شقيقه السكنية كانت فى شامبليون فى مواجهة دكانة أبيه مباشرة ؛ فاتخذ من رصيف الشارع - تنشيطا لدكانة أبيه - قعدة مسائية يؤمها أرهاط من الكائنات الليلية من صحفيين ورسامين وشعراء وسياسيين محترفين ومحامين مخضرمين وآخرين تحت التمرين وأدباء جدد وفدوا حديثا من قراهم البعيدة يتحسسون ليل القاهرة . كل أولئك وهؤلاء يتناقشون فى السياسة - الخارجية بالذات - وفى قضايا الفن والأدب ؛ يستمعون إلى قصائد الشعراء وقصص الأدباء فى شبه ندوة مفتوحة على الهواء

الطلق يباح فيها لكل من وضع ساقا على ساق أن يستفرغ كل ما قرأه من كتب لطشت دماغه ، ويقول أحكاما كبيرة بكلمات ضخمة وحماسة أشد لكنها بالمجان .

القعدة تستقطب كل يوم وجوها جديدة مطموسة الملامح مجهولة الهوية ، متنكرة في زى شعراء وقصاصين ونقاد وهواة أدب . تقول الشائعات إنهم مخبرون قد دستهم الحكومة على رواد هذه القعدة لكشف خباياهم ، وأنهم - بالمرّة - يترصدون كل داخل إلى هذا الدرب خاصة المثقفين منهم وبالأخص نوى الأسماء المعروفة وذلك لكتابة تقارير وافية عنهم .

بصرف النظر عن صحة الشائعة أو كذبها فإن الداخل إلى هذا الدرب يشعر بكثير من الحرج إذ يراه كل هذا العدد من المتكلمين المتحذلقين رغم تعاسة مظهرهم ، المتحفظين ظاهريا فيما هم يرمقون الداخل والخارج بنظرات استرابية واستعلاء سمج . إلا أن الواحد منا لم يعد يأبه بهم أو بغيرهم ؛ ذلك أن محيط المثقفين كله - فيما يشاع بقوة وثيقة - مخبرون في مخبرين متطوعين لله في الله ؛ لقد أصابهم الجو العام بمرض البحث عن أسرار وخفايا الآخرين وتسقط أخبارهم بكثير من الاهتمام والشغف ؛ ليس لكتابة تقارير فورية مطلوبة لأية جهة من الجهات المعنية ؛ بل ليدخرها المزاج المريض لوقت يترقيه كل واحد بالنسبة للآخر إذا ما نما إلى علمه - صدقا أو كذبا - أن هذا الآخر قد طعنه بتقرير أو بكلمة غير لائقة في مجلس خاص أو بزمبة في مكان العمل .. حتى لقد بات المحيط الثقافي على جميع الأصعدة ساحة نشطة من التقارير الشفوية المفرضة يتطوع بها الجميع ضد الجميع كحرب باردة يبادر فيها كل واحد بارهاب الآخر قبل أن يبادر الآخر بارهابه .

وشيئا فشيئا أصبح النهش والتشويه سلوكا عاما ؛ من ثم لم ينج من التشويه أحد على الإطلاق ؛ لم يعد في البلاد كلها شخص واحد يمكن الاتفاق على طهارته!!

وإذن ؛ فما دام الجميع مشوها في نظر الجميع حتى ولو كان طاهرا بالفعل ،
فليس لك كل واحد على راحته دون اعتبار لأى شئ ؛ يضربها صرمة ويشوف
مزاجه داخلا الدرب الذى يوصله إلى ما يشاء ؛ سيما إذا كان هذا الدرب المفتوح
على شارع شامبليون هو أسهل وأقصر المداخل إلى غرزة حكيم الحميمة الساحرة
الساهرة .

الغُرزة

الغُرزة عبارة عن بيت صعيدى مبنى بالطوب اللبن على أنقاض بيت مدينى قديم تمت إزالته منذ سنوات بعيدة منذ أن أعلنت الحكومة عن عدم مسئوليتها عن السكان ، لأن الحى كله أيل للسقوط بقرار رسمى من حكومة الثورة عقب توليها الحكم مباشرة . قاعتان متقابلتان على يمين باب الشارع ويساره؛ يفصل بينهما ممر واسع يمتد داخل البيت، حيث يظهر - فى بركة من ضوء الشمس ساقطة من ناروزة فى السقف - سلم مبنى بالطين تبدو من فتحتة - شأن بيوت الصعيد - أطراف أحمال القش والخطب مكومة بكثافة فوق السقف المصنوع من أبواب ورفارف وأسقف سيارات قديمة مطروحة كيفما اتفق على عروق من الخشب تخينة وبعض أسياخ حديدية . تحت حنية السلم زير كبير فوق حامل من الحديد أشبه بميزان القبانى؛ الأرض من تحته رطبة مشبعة برشح الماء . بجواره عدد من البلايص والباستيلات والصفائح الصدئة . أسراب من الدجاج والبط والأوز والأرانب تجرى وتقاىء وتجار فى سنفونية من الزئيط المبهج كلما أطلت زوج حكيم من القاعة الجوانية الوحيدة المعدة لنوم حكيم وعياله .

القاعتان مليستان بالطين والتبن . ثمة مصاطب مبنية بنفس الطين تحت جدران القاعتين ساير دابر . يوجد عدد من الكراسى القديمة مفعصة الأرجل رشقت أقراصها بمسامير صغيرة كالخديعة تتأمر على سراويل من يحاول الجلوس عليها من الوافدين الجدد . يوجد أيضاً بعض صناديق خشبية وجرادل مقلوية ليقعد عليها الصبيان أثناء خدمتهم للزبائن . لكل قاعة شباك مطل على الباحة المستباحة خارج الدار؛ الشباكان مغلقان كل بدرفتينه، فيما عدا شراعة صغيرة فوق كل من الشباكين أشبه بفتحة البرنج الدائرية يتدفق منهما الهواء والضوء والتراب وشجر الباعة الشضلية وغنخ النسوان السليطات فى ردع

بعضهن البعض. ومنهما أيضاً - من هاتين الشراعتين - يقذف الزبائن حشيشهم إلى الشارع إذا ما داهمتهم كبسة الشرطة الغدارة دائماً كهّم الموت .

القاعة التى على يمين الداخل هى الأكثر حميمية لدى بعض عتاة الحشاشين الذين لا يعنيه من أمر الغرزة إلا فرصة التحشيش المكثف السريع الإيقاع ؛ سياسة خطف المزاج من وراء ظهر الشرطة واتقاء شرها بالإنصراف مبكراً من مسرح الجريمة؛ تراهم يحششون بغزارة ويجدية لو بذلوا ريعها فى أعمالهم لباتوا من العباقرة . يريد الواحد منهم طرقة ثلاثين أربعين حجراً فى نصف ساعة على الأكثر فيثيرون فى الغرزة توتراً جالبا للشؤم يتدثر له الصبيان ويتبادلون بسببه الشتائم المقدعة . هذه القاعة هى مقر الحجارة ومنقذ النار ومجلس الصبيان فى حال نذرة الزبائن . فى هذه القاعة يستطيع المتعجل أن يمد يده فيسحب الحجارة التى يشاء سالكة ملائمة بالمعسل الطرى الطازج؛ لا حرج فى أن يقوم بنفسه فيطحن لنفسه قطعة نار فى المصفاة يتولى إشعالها جيداً ، لا بأس أن يواصل خدمة نفسه بنفسه إلى أن يدركه أحد الصبيان أو أحد الذين يجلسون هاهنا دائماً من أبناء الحى على فيض الكريم فى انتظار أن يعطف عليهم أحد الزبائن بحجر أو يتفضل بدعوتهم لخدمته مقابل التنفيض وراء الشارب وتوليع حجر من حين لآخر.

الباحة الخارجية أكثر سعراً من الغرزة نفسها ولا سيما فى ساعة الأصيل وفى الليل . ثمة طريق ضيق يمر أمام باب الغرزة كان فى مبدئه حارة ضيقة شأن كل حوارى حى معروف؛ لكن البيت الذى كان مواجهها للغرزة مباشرة إنهار منذ سنوات طويلة ؛بقى منه أساس الجدران فحسب وكان مبنياً بكتل من الحجارة بارتفاع حوالى مترين عن أرض الحارة ، أما الطوب والأسمنت وزلط السقف فقد تكوم كله داخل هذا الأساس الممتد على مساحة مربعة الأضلاع كل ضلع يصل طوله إلى أربعة أمتار . أقدام الناس والمياه القذرة التى تلقى على الهديم من جميع الجهات تكفلت بتحويل الهديم إلى أرض مزلطة ؛ فأصبح الطلل القديم

أشبهه أو أقرب ما يكون هذه الربوة العالية المربعة أحسن استغلال : جعل منها غرزة إضافية تنتعش في أمسيات الصيف ؛ أعطت المكان كله لمسة فنية وجوا من السحر الشعبي بزخمه الحراق المוגل في الدونية بلذة فائقة تنتشر عدواها بسرعة بقوة يعجز عن مقاومتها كل أفندى نظيف الثياب محفط .

ترتص الكراسي المصنوعة من القش فوق هذه الراية ابتداء من ظهور شفق الأصيل مصبوغا بدم حياء وجه الشمس وهي تداريه بأطراف الطرحة منسحبة في هدوء لتدخل مخدع القمر . تلك هي ذروة العصارى في مزاج القبضات من سرادة التجار والأعيان وصبيانهم ورجالهم ، يحتلون الكراسي فوق هذه الراية لتمسية العصر السريعة ينطلقون في أعقابها إلى محلاتهم ومتاجرهم ومكاتبهم وقد اندهن الهواء والقضاء والمرئيات في أنظارهم بالدوكو بألوان زاهية مبهجة ؛ لا ينقطع لهم ورود طوال الليل؛ شلة تسلم الراية لشلة، لتعود بعد أو قبل منتصف الليل لتتسلما .

أما شلتنا من الأدباء والشعراء والفنانين والرسامين والصحفيين وبعض طلبة الجامعة؛ فإنها مغرمة بالجلوس تحت شباكى الغرزة من الخارج ، يجاورنا من الجنب الأيسر زبائن غرزة المعرق؛ ومن الجنب الأيمن درب رطب ينتهى بخرابة يحتلها صاحب ورشة للديكو يتلقى اللعن وسب ديك الأم ليل نهار من الحشاشين الذين تضيع من أنوفهم نكهة الحشيش لأن رائحة الدوكو النفادة القوية تحتل أنوفهم حتى بعد انصرافهم عن المكان.

الجالسون فوق الراية - خاصة في العصارى - يبدون لنا كأنهم ممثلون على خشبة المسرح ونحن في موقف الفرجة عليهم أردنا أو لم نرد . هم كذلك يأخذون منا موقف الفاعل على خشبة المسرح الذى يشعر أن هناك من يتفرج عليه فإذا هم يبادلونا القفش والتكتيك والمشغبة الدائمة . كثيرا ما نندمج جميعاً فى حالة من المرح الصاخب ، نتبادل الردح والتلقيح حول مباريات الأملى والزمالك .

يدب الوهج فى القعدة مع دخول الأصيل ؛ يتوتر قليلا ما بين صلاة المغرب والعشاء فى جامع الشيخ معروف، يصاب بالخمود لبرهة وجيزة عقب صلاة العشاء؛ ثم يرتفع أواره مرة واحدة فى حوالى العاشرة مساء، حيث يكون الاتصال بين الراية والحارة واضحا ونشيطا ورشيدا؛ لا أحد من هنا أو هاهنا يقع فى الغلط لأن الجميع يرى الجميع، فتكثر المجاملات المبالغ فيها بين الراية والحارة؛ حجارة ممهورة من الراية بنهارها وساقىها تهدى إلى الجالسين فى الحارة تحت شباك الغرزة ؛ ومثيلاتها تصعد من الحارة إلى الراية ممهورة بتعميرات أكثر سخاء. أما فى عمق الليل، فى الجزء الأخير منه على وجه التحديد ، يصير منظر الراية حافلا بالسحر والغموض والأسرار ؛ قد لا يعرف الجالس فى الحارة أن لفيفا من أعز أصدقائنا المحبين للصمت والدورة والتميز يجلسون فى ركن بعيد فوق الراية حيث لا يظهر فى الظلام الدامس سوى أشباح الجالسين ووهج النار فى المصفاة وفوق الحجارة كنجوم تنهاوى تحد أقدامنا فلا نعثر لها مع ذلك على أثر، وسحب الدخان الكثيف تبدو فى الظلام كأن العنمة تتموج تتحرك تتخفف من بعض قتامتها لترتد فتزيدها كثافة .

المعلم

حكيم صاحب الغرزة صعيدي من ريف محافظة أسيوط لا يحب ذكر قريته في معرض الحديث إلا للضرورة القصوى إذا امتد البساط بينه وبين أشخاص يشتم بحاسته السادسة أنهم من نواحي بلدته؛ وفيما عدا ذلك فإنه يعتقد أن اسم المحافظة : أسيوط هو في نظره أغلى وأهم إذ هو الأكبر أى أنه كلقب العائلة رمز للانتماء .. يملك في بلدته قطعة أرض زراعية من طرح النهر في جزيرة أولاد الياس يمتلكها ذات يوم بعيد جدا بوضع اليد ثم تولاهم بالإصلاح والتوسيع والردم وزرعها بأشجار الرمان والبرتقال واليوسفى والجوافة والمانجو؛ وابتنى على ناصيتها - فوق شط النهر مباشرة - بيتا جميلا بالطوب الأحمر يحتوى على أربع غرف وشرفات من كل الجهات كبيوت العمد ؛ تقطنه أمه وأخان صغيران وثلاث بنات على وش زواج ؛ يخفرون الأشجار ويرعون الفجل والجرجير والطماطم . فى الصيف من كل عام يسافر حكيم إليهم ، فيمكث بينهم مدة شهر على الأكثر يبيع ما طاب من محاصيل وينشن على قطعة أرض جديدة ليتفاوض على شرائها بنفس طويل وأعصاب هادئة مستخدما فى التأثير على أصحابها سلاح المال الموجود فى جيبه على النوم واستعداده للدفع فورا؛ وذلك أمر قلما توفر لغيره من بلدياته المقيمين فى مطارحهم لا يبرحونها . إن الفلوس التى يجمعها من الغرزة طوال العام بجلباب واحد لا يغيره صيفا أو شتاء وهو مع ذلك نظيف دائما ، تتحول فى الصعيد الأسيوطى إلى قطع من الأرض والسلاح لاستكمال عناصر القوة التى ينبغى أن يكون عليها عندما يأتون الألوان ويعود الغريب إلى موطنه معززا مكرما صاحب أملاك وعزوة .

أثناء سفره يغلق الغرزة . تلوص نحن بين مختلف الغرز التى لا ننجذب إليها ولا تريحنا إن لجأنا إليها خاصة ونحن فى حال اضطراب يضاعف من شعورنا

بالعكنة . نظل طوال شهر كامل نسعى - كل من جانبيه - للكشف عن غرز كانت خافية علينا فى بولاق أبو العلا أو زينهم أو الجيارة أو حتى الجمالية والدراسة والنبوية وهى أحياء مكشوفة وخطرة. ولربما وجدنا غرزا جديدة هنا وهناك تعتبر اكتشافا بكل المقاييس لكن اجتماعنا فيها لا يتم ، ويظل الشعور بالإغتراب يرافقنا فى كل مكان نسعى إليه؛ فروج الحشاش تظل فى انخفاض يؤوب إلى انكسار فانهدار إذا هو لم يآلف المكان ويقيم فيه صداقات تحفظ له كرامته وتحمى كيانه فى هذا العالم المزاجى الغريب الذى يجمع على جوزة واحدة ونفس واحد بين الفيلسوف والدهماء ، المثقف والبلطجى ، وكيل الوزارة والفراش ، البيك وماسح الأذن .

يعود حكيم من الصعيد فنقيم ليلة كبيرة حتى شروق الشمس ، يعاوننا هو فيها بنسبة كبيرة من المعسل المجانى كمقابل لاشتراكه معنا فى الشرب والتدخين . ذلك أن البعض منا مغرم بشرب البيرة أثناء التحشيش شرط أن تكون مثجة . بمعرفة حكيم فى حلة الغسيل الملائة بقطع الثلج . يحلو لحكيم - إثباتا للقرنة - أن يمسك بالكوب الملائن تلعوه طبقة من الرغبة البيضاء كتاج من الفل ؛ ويكون قد سحب من الجوزة نفسا عميقا طويلا وكنتم دخانه فى صدره ، ليضع بوزه على حافة كوب البيرة تاركاً منخريره ينفثان سحب الدخان فيما هو يجرع منه باستمتاع ظمانٍ أبدي .

طويل القامة هو، معصوص البدن ، ناشف صلب العود ، عريض الكتفين نحيفهما؛ إلا أنهما مقوستان قليلا فى انحناءة على الصدر كأنه يحمل شيئاً ثقيلاً جدا على ظهره؛ أغلب الظن أن قروانة المونة ، أو القصعة التى اعتادا حملها فى شغل الفاعل قد تركت بصمة ثقلها على كتفيه إلى الأبد حتى أنه لا يزال يشعر بأنه يحمل القصعة ملائنة بعجينة الأسمنت المخلوط بالزلط . وجهه مدور ، ضئيل الحجم، أسمر كالرغيف السن ، بارز الخدين ، واسع الحنك ، مطبق الشفتين على بسمة عجوز معتقة ؛ الأرجح أنها تجمدت فتمددت فتورم لها خداه؛ فكأن شفتيه

محصورتان بين قوسين كبيرين . عيناه ضيقتان جداً، لكنه حديد البصر، فيهما سهر طويل قرح الجفون تنف شعر الرموش والحواجب. هما مع ذلك غويطتان لا نهاية لأعماقهما ؛ فيهما شقاوة وخبث خفيف الظل ملعن على الملاء، مع كثير من السهتنة، وثقل فى الأعصاب ، مع لعة مراوغة تظهر وتختفى ، فتشى - فى الظهور وفى الاختفاء - بأنه ماء من تحت تبن ، وأن وراءه سرراً عميقاً غامضاً، محيراً ، أنه يقتل القتل ويمشى فى جنازته ، سيما وأنه قليل الكلام لدرجة أننا لانكاد نحفظ صوته .

نحبه ، نعشق قعبدته ؛ ربما لطيبة قلبه ؛ ربما لطول صمته الذى يعطى الشعور بالإطمئنان ويلفت انتباهنا - دائماً وفجأة - إلى مخاطر الثروة فى جو كهذا لانمك فيه السيطرة على أنفسنا المبسوطة على البساط الأحمرى للعدة ؛ فإذا بنا نمسك بعد طول انقراط ولو لبرهة وجيزة ننصت خلالها إلى أنفسنا أو إلى غناء أم كلثوم الذى يتضح أنه شغال منذ فترة . على أن حكيم بميزة الصمت هذه أصبح مستودعا لأسرار الشلة وجميع الشلل كلها؛ يحدثونه فى أخص خصوصياتهم دون وجل أو تحفظ ؛ فلا يبخل عليهم بالنصح والمشورة بل والمعونة إن كان فى استطاعه. فإن وصلت المعونة حد إقراض المال فإنه لصبور فى المطالبة برد الدين صبر أيوب ؛ وقد لا يطالبك مطلقا ، لا بالتصريح ولا بالتلميح . معرفة الرجال فى نظره كنوز لا تقدر بمال ، وكلنا معرضون للزئقة والأزمات حتى الحكومة نفسها يجد عليها أوقات تشحذ فيها من الدول وتستلف بالقايض من البنك الدولى؛ تحدث فى أحسن العائلات ؛ نحن كلنا إخوة من أبناء آدم وحواء؛ والملائن يكب على الفاضى .. أهم حاجة أنك لا يجب أن تتكسف منه وتروح تحشش فى غرزة أخرى؛ هذا هو الشيء الوحيد الذى يوجعه ، أن يكون قد طردك بفلوسه بعنى موت وخراب ديار.

الشلة التى يعتبرها من أهم أصدقائه - شلتنا يعنى - لا يقل عددها عن ثين شخصا تألفت أرواحهم توحدت أمزجتهم ومشاربهم . منهم الأستاذ فى

الجامعة ، والكاتب ، والشاعر ، والرسام ، والممثل ، والصحفى ، وصاحب البازار المتخصص فى العاديات ، والملحن ، والمطرب الهاوى ، ومؤلف الأغانى ، والمخرج المسرحى ، والمدير فى شركة بيع المصنوعات المصرية ، والمحاسب فى البنك الأهلى ، والمحامى الناشئ، وكاتب النيابة ، والسكرتير بجمعية تعاونية ، وطالب الجامعة المزمع المدمن لانتخابات اتحادات الطلاب.

كلنا دخلنا غرزة حكيم أفرادا ، بعضنا طفشان من غرزة خطرة كئيبة تلقى فيها الهوان ، أو هريان من ديون غير قابلة للسداد . بعضنا الآخر مغرم بالبحث عن الأماكن العتيقة فى عوالم متداعية . بعضنا الثالث يبحث عن السعر الأرخص، عن الدورة ، عن التحشيش الثقيل ، عن غرزجى صديق ينوب عنه فى شراء الحشيش على ضمانته .. إلخ .

بفضل حكيم صرنا جماعة متحاببة متجانسة الطباع . يراك داخلا عليه وجميع صبيانه مشغولون ، حسب تقديره المبدئى لوزن شخصيتك الجديدة عليه - وهو فى العادة تقدير لا يخيب أبداً - ينتقى لك أحد الزبائن النظفاء يتوسم فيه أنه مساو لك فى الوزن والقيمة وكل منكما لم ير الآخر من قبل .. يبتسم حكيم قائلاً لك بكل سماحة وأريحية :

- «إتفضل هنا حضرتك عشان الولد يسقيكم مع بعض قوام قوام!».

تنتقل أنت من مكانك دونما حرج وهو من ورائك حاملا خشبة الحجارة الخاصة بك . يدعوكما للتعارف ؛ فيما أنه فى تسعة وتسعين فى المائة من الأحوال يعرف الآخر من قبل فإنه يبادر بتقديمه لك فى تفخيم واحترام ولطافة؛ فتسارع أنت بتقديم نفسك إلى الآخر . أهلا وسهلا ، فرصة سعيدة . وهكذا تجلس بجواره على المصطبة ، الولد الساقى ينقل الجوزة بينكما ، حجر من عندك وحجر من عند الآخر. وفيما يعود حكيم إلى مكمنه خلف نصبة الحجارة الملققة كيفما اتفق لا يكف عن متابعتكما فلا يهدأ حتى يتأكد من أن الود قد نشأ بينكما كأحسن ما يكون : الآخر يعزم عليك بحجر من عنده لتذوق تعميرته فأريك فيها مهم بالنسبة

له؛ الواقع أن رأيهُ أيضاً فى تعميرتك مهم بالنسبة لك؛ كلا كما يجب أن يطمئنهُ الآخر على أن تاجر المخدرات لم يسرقه . إن هـى إلا دقائق معدودة ، طريحة أو طريحتين من الحجارة ، بعدهما يصير لا فرق بين التعميرتين بين الشخصين كلاهما يتسابق على إمضاء الحجارة بتوقيعه كلاهما يتسرع قبل الآخر فى دفع حساب الشخصين لحكيم . علاقة جديدة تفتح رافداً جديداً على الشلة فتقوم لها بحجة تظل طازجة لوقت طويل ، وحكيم لا يبنى يحسن صورتك فى نظر الآخر ويحسن صورة الآخر فى نظرك بكل ما أوتى من لباقة وطلاقة لسان وحكمة بالغة يعطى لكل منكما فى نظر الآخر أوصافاً تكاد تكون مطابقة تماماً لأحسن ما فىك وما فى الآخر تندشهش أنت ، بل تذهل من براعته فى فهم جوهرك الأصيل واكتشافه لمزاياك التى ربما لم تكن قد انتبهت إليها فى نفسك من قبل؛ فإذا بك تصدقه فى وصفه للآخر وإذا بك تؤكد فى سلوكك المقبل على هذه المزايا التى نبه إليها فىك . من خلاله تحب الآخر ويحبك الآخر فكأننا جميعاً بالنسبة له - وهو الأصغر من بعضنا سناً - أبناءه وهو يريد بإخلاص ونية صافية أن يربينا على الغالى . كان مثلاً على العبقريّة الصعديّة البارعة فى فن تشكيل العزوة والتحضين عليها وتقوية أواصرها . إنه كصعدي مغترب فى هذه العاصمة الجبارة الكافرة برغم كثرة مآذنها لن يتأتى له الإطمئنان إلى شىء - وقد اختار هذا الطريق الشائك الخطر للحياة - إلا بتحويل زيارته إلى أصدقائه ، إلى عزوة يستمد منها روحاً معنوية وعوناً عند الأزمات.

إن جئت وحدك مرة ، أنبئك حكيم باهتمام شديد أن فلانا كان هنا وسأل عنك، كان نفسه يشوفك بفارغ الصبر . الواقع أنه طوال الجلسة - عبر لحظات مختلصة من فترات صمته الطويل - لاينى ينبئك من حين لآخر بأبناء كثيرة يفترض أنها تهكم مادمت صديقا : فلان الفلانى سيجى الليلة الساعة كذا؛ فلان يعزمك غداً حفل عيد ميلاده؛ فلان رزق بتعميرة قادمة من بيروت رأساً فى الحقيبة يماسية ويريد أن يذيقها لك قبل نفاذها ؛ قلت لفلان إنك كنت بعافية منذ

يومين ؛ فلان جاء من البلد أمس وترك لك هنا فطيرة مشلتتة لكن الصنایعية الطفساء التهموها زاعمين أنك لست محروما من مثل الأكلات الفلاحية؛ فلان واقع فى مشكلة وواجب علينا أن نساعدہ على النجاة منها ؛ فلان كلفنى اليوم بأن أبحث له عن نقاش أمين يوضب له شقته التى سيتزوج فيها العقبى لك وقد دورت على ولد أثق فيه فلم أجد وسوف ترانى الآن أوصل البحث أمامك لتكون شاهداً على أنى بحثت بذمة وإخلاص ؛ فلان - على فكرة - زعلان من فلان ولابد أن تجيء الليلة لتحضر مجلس صلح سنقيمه بينهما غصباً عنهما فعيب علينا شغل العيال؛ فلان جاءت أمه من البلد فحبست حريته؛ فلان مزاجه مش ولابد لأن مدير التشغيل فى الشركة دائم الإضطهاد له! بالمناسبة ألا تعرف شخصاً كبيراً فى هذه الشركة يضغط على مدير التشغيل كى يلايمها حبتين ؛ فلان .. فلان .. فلان .

أبدأ أبدأ لانميمة لا اغتياى لا تقطيع فروات؛ كلها أخبار حميمة تجعل للعائلة حضوراً قويا على مساحة واسعة . إن رأى منك ميلا - ولو خفيا - للخوض فى سيرة شخص لم يعجبك سلوكه لسبب من الأسباب إنبرى هو يشرح لك طبيعة الظروف التى أحاطت بذلك التصرف غير المقصود حتماً وكيف أن فلان هذا ولد يعجبك ابن ناس و.. كده (يشهر إبهامه واقفا مفرودا للدلالة على شدة استقامة الشخص وانضباطه) ؛ قلبه - يقول - مثل اللبن الحليب ، وللعلم هو يحبك ويسألنى عنك باستمرار.

صرنا شلة واحدة متحابة كعائلة واحدة . دخلنا بيوت بعضنا البعض ، زرنا بعضنا فى أماكن العمل ؛ تبادلنا الدعوات فى المناسبات والأقراح ؛ أزر بعضنا البعض فى المشاكل والأزمات ؛ تطارحنا الهدايا الثمينة ، سلفنا واستلفنا ؛ شاعت ملكية التعميرة فيما بيننا فللك واحد يشتري له وللآخرين قدر الطاقة بون انتظار لمردود حسابى؛ فليتصادف أن الجميع يشتري للجميع فى لحظة واحدة فإذا بالكمية المشتراة كبيرة وخطيرة ؛ لا بأس فمخزن حكيم السرى لا تهتدى إليه

الجن . قد يجيء أحدنا والآخر يتأهب للإنصراف ، فيتراخى لطريحة أو طرحتين من الحجارة لزوم التحية الواجبة . كل واحد منا يعيش في مشكلات الآخر كأنها مشكلاته الخاصة . روح من التأخى والتأزر والتضامن والتعاطف والتعاون جمعت بين أفراد هذه الشلة لتؤكد حقيقة أن الإنسان مجبول على حب الانتماء لجماعة ما . بات من الواضح لنا أن تدخين الحشيش لم يعد هو الهدف الذى اجتمعنا هاهنا من أجله ، بل كان مجرد مبرر جميل يضيف على الصحبة ماء الورد فيرطب عروشها ينعش أوراقها الطروية لنغم يسكنها يعمرها بالأنس الجميل .

الزعيم

كأننا كنا محتاجين إلى سبب إضافي يجمعنا ليوحد بيننا وبين غرزة حكيم !!
كأن جاذبية المكان ومعلمية حكيم وحصافته وموهبته في إقامة العزوة حوله ببراعة
قاطع طريق صعيدي ملطوثة بلطشة صوفية محتبسة تحت ركام لم يفرغ لفرزه
بعد؛ كأن مزاج الحشيش واستئناسا ببعضنا بعزوتنا الخصوصية .. كأن كل ذلك
لم يكن كافيا؛ فإذا بالغرزة - في واحدة من أهم تجلياتها - تهدى إلينا شخصية
صالح هيصة ، الذي كان جزءاً لا يتجزأ منها منذ أنشئت؛ بل هو جزء بارز من
حي معروف والأنتيكخانة وشامبليون.

له وجوده الحيوي في الغرزة . إلا أنه كان متواريا طوال الفترة التي كنا فيها
مجرد أفراد يترددون على هذه الغرزة من حين إلى حين حيث كل منا يجيء في
الوقت المتاح له دون ارتباط بمواعيد حميمة . ولاشك في أن كل فرد منا قد رآه
مرات عديدة يقدم خدمات داخل الغرزة يقوم بأعمال لا تستلفت الإنتباه . المؤكد
أنه لفت نظر كل من رآه بشكل أو بآخر . إلا أننا حينما صرنا شلة متحاببة تتواعد
لتلتقي كل ليلة، تتمازج الأمزجة تتناضح الهوايات والمهن والطباع من الجميع على
الجميع ، تتقارب وجهاً النظر ، تجيد العيون فهم بعضها البعض بمجرد
النظر .. حينما صرنا هكذا بدأ الحضور الحقيقي لصالح هيصة ؛ ليس فحسب
لأننا شغلنا به جميعاً وبات سلوتنا وموضوع حديثنا موضع تندرنا مثار حكاياتنا؛
وإنما لأنه - إلى جانب كونه كفوؤاً لذلك - فيه من كل واحد منا شيء بل أشياء ؛
ففي كثير من الأحيان يتصرف كأنه نحن جميعاً ؛ وفي أكثر الأحيان نتصرف
نحن كأننا هو . الواقع أنه - لا ندري بالضبط منذ متى - بات في حقيقة أمره هو
الجانب الأكبر لكل زبائن هذه الغرزة إذ هو قد أضفى عليها جواً من الرجولية
والبهجة ، الأنس والشقاوة والحميمة والجنون المحب . كل تصرفاته وأقواله

وأفعاله التي نضحك منها ونعتبرها ضرباً من الجنون المطلق سرعان ما نكتشف بعد برهة أننا ننتشى بها لأنها بعض مانتمنى أن نفعله أو نقوله . أيا ما كان الأمر فقد أصبحنا مولعين بترديد مآثوراته باعتبارها من درر التراث الحى، نستشهد بأقواله فى مناقشاتنا فى كل أمور الحياة بل ونأخذ منها بعض المصكوكات اللهجية لنطبقها على نظريات الفنون والأدب فنجد لها عمق بلاغة وحكمة فطرية حتى ليبول لنا أحياناً كما لو أن صالح هيصبة قد درس الفنون والأدب بل وأسهم فى حركاتها بجهد فعال سكت عنه التاريخ ضمن الكثير مما يسكت عنه!!

صالح هيصبة ذو قدرة خارقة على أن يسرب إليك هدوء أعصابه مهما كنت متوتراً قلقاً ؛ لكأنه هو نفسه مخدر قوى كالأقراص الناجعة يظهر أثرها الفورى على متعاطيها . فى مشاعره دفء وذكاء ، فى نفسه بداوة ويكارة وبراءة وطرزاجة ؛ لكأنه مولود لساعته رغم أنه عملاق فى منتصف الأربعينيات من عمره .

برونزى اللون، من أسوان؛ بذرة سوداء البشرة فى وعاء فخارى اللون أنجبت لونا فريدا لا هو بالأسود الغطيس ولا بالأبيض الفاتح لون أقرب إلى لون التين المهيطل. أما شعر رأسه فأبيض فى لون السماء يقف على قروة رأسه غير متناسق الأطوال فكأن هذا الكائن هابط لتوه من السماء وكانت حزمة من خيوط السحاب مربوطة فى رأسه لتحفظ توازنه ، إذ هو يتدلى إلى الأرض فلما شدته الجاذبية الأرضية بقوة متزايدة بتزايد اقترابه منها تقطعت الخيوط كيفما اتفق وظلت جنورها عالقة برأسه . إنما شعره جميل ، مهيب، متسق من الجبهة إلى الفودين كأنه يحلق عند أعظم الحلاقين المتخصصين فى الحلاقة لكبار النجوم ونوى المراكز الإجتماعية الرفيعة . حليق على الدوام رأساً ولحية إلا فيما ندر من الحالات حيث يبدو كأن شعر رأسه قد ساح على صدغيه مكوناً حول الوجه شبكة منسوجة من صوف غنم أبيض غير محلوج جيداً، تلف تحت الذقن المور فكأن الوجه قد أحيط ببرواز من الإريواز الخشن.

بشرة وجهه نضرة لمساء لامعة. فى عينيه كياسة وعظمة فطرية راسخة لا

يشوبها أى ظل من الإدعاء، فيهما إلى ذلك حياء شديد يكاد يختصر بصرهما الحديدي حتى لا يرى أبعد من شغله الذى بين يديه . وجهه مستطيل كقنديل ؛ ملامحه مكتنزة فى رصانة القانعين عن شبع أصيل . رقبتة طويلة مبرومة فى امتلاء ، تبرز عروقهها عند اتصالها بالصدر والكتفين كجذع شجرة باسقة بارزة الجذور . صدره عال ، عريض الكتفين ، مفتول الذراعين ، رشيق ، لو دخل فى مسابقة كمال الأجسام لتوج بطلا من أول حركة .

يرتدى سروالا قصيراً لاشك أنه استعاره من شخص قزم أو اشتراه من بائع الروباييكيا، وقميصا بياقة تشى بأن عمره لا يقل عن عشر سنوات ضاع خلالها لونه وشكله ممزق عند الكتفين لكنه اكتسب من طول عشرته لجسده من العرق والغبار والوسخ صلابة ومثانة، صار جلداً آخر فوق جلد الجسد به صار هو الجلد الأخشن والأقوى على الإحتمال. مع ذلك لا ينتابك الإحساس مطلقاً بأنه زرى المظهر ؛ بل على العكس تماماً ، ماتكاد عيناك تقع عليه حتى ينتابك شعور جارف بأنك أمام نبيل من نبلاء التاريخ جار عليه الزمن الوغد فلم يستطع النبيل من كبريائه وشموخته . بمجرد النظر إليه لن تجد فى نفسك الجرأة على إعطائه بقشيشاً أو حتى تعرض عليه ملابس جديدة ولو على سبيل الهدية من صديق لصديقه !

شغلته فى الغرزة أساسية ، محددة وما عداها فمن نوقه وحبه للخدمة فى سبيل الله . أما شغلته الأساس فإنها شاقة تحتاج إلى صبر ودأب وطول بال . مهمته هى الحجارة ؛ ينلقاها برميلاً كبيراً ملأنا لحافته بما لا يقل عن ثلاثة آلاف حجر حرقت على مدى يوم وليلتين تقريباً . عليه أن ينظفها كحنا بالسكين ويسيقها ثم يمسحها بخرقه مبلولة ثم يحشر فى كل حجر حصوة ملائمة لفتحة بالضبط ؛ ثم يبدأ المرحلة الثالثة فيملأ كل حجر بالمعسل فى حنكة إقتصادية ذات ضمير ينتفع بكل شعراية معسل لاصقة فى ورقتها . يرمص الحجارة فوق رقاع من الخشب فى كل رقعة - وكلها مستطيل - دقت عشرة مسامير بحيث يلبس كل حجر فى مسمار يضبطه فلا يهتز ولا يقع. ترتص الرقاع الخشبية بجواره فوق

بعضها كناطحة سحب على طراز رعوى لا يخلو من بدعة وطرافة. صبيان الغرزة لا يقتربون من هذه الرصة حتى يتم الانتهاء من الطريحة السابق رصها منذ يوم وليلتين كما أنه يتسلم الحجارة بالعدد ويسلمها بالعدد ليعرف كل من الطرفين - العامل وصاحب العمل - دخله من خرجه .

قدرته على الصبر والجلد تتيح له أن يرص طريحتين فى يوم بليلة ونصف ضحى: وهذا فى الغالب مايفعله دائماً بنجاح وحينئذ يحق له أن يتقاضى أجره من حكيم ثمانين قرشا بالتمام وهو مبلغ لو تعلمون عظيم . يدسه صالح هيصة فى السروال الداخلى فى دكة الأستك/ ثم يمشى فى تودة كعملاق يتبختر فى حفل زفافه حتى ليبدو كأنه يتأبط عروسا وهمية . يندس فى حارة ضيقة تبدو للغريب كأنها فتحة باب بيت . بعد بضع خطوات يصعد فوق تل من الهديم المتصلب المتكلس ، ما تلبث قامته حتى تغوص فى المنحدر لا يبقى منها إلا شعر رأسه الأبيض كما لو كان بجعة تحلق مقتربة من الأرض فتهاوت فى واد سحيق . إن هبطنا خلفه فى المنحدر - وقليلنا مانفعل - وجدناه قد انعطفت على بقايا بيت متهدم ، مجرد جدران بلا سقف منزوعة الأبواب والشبابيك لكن أرضه مع ذلك مستوية وبلاطها لايزال ملتصقا بها . يشد من عبه جريدة الجمهورية المطوية أربع طيات ، يعدلها ، يفك أوراقها ، يفرشها على الأرض، يشد قالبين من الطوب كبيرين يضمهما يضع فوقهما ما بقى من ورق الجريدة ، يتمدد على ظهره مسترخياً ، واضعا ذراعه اليمنى فوق عينيه ؛ سرعان ما يستغرق فى نوم عميق يتحول عمقه إلى مهرجان صاخب مجلجل مزلزل حيث يتصاعد من حلقه شخير كالرعد المتلاطم فى ليلة عاصفة بل كدوى القنابل . من يأتى مهرولا مفزوعا على صوت الدوى لن يجد بيتا انهار لتوه ولا جاموسة تذبح ؛ لن يجد إلا صالح راقد فى غيبوبة تامة يقذف الأصوات من أنفه من حلقه من دبره؛ يصيبهم الذهول من قدرته على النوم بهذا العمق تحت دوى هذه الانفجارات . إنما هى الرقدة لا صحو منها إلا بعد سبع ساعات كاملة . المنبه الكامن فى مخه أكثر انضباطا من ساعات الناس . فى الدقيقة الأخيرة من الساعة الأخيرة يزيح ذراعه اليمنى فاتحا

عيبه فاذا هما خالبنان ساسا من اى عداص، لكنهما أسسه بندين من ام النازل مشوحنين في فنجانين عليين بالنل . بدفع بصدرة إلى الاسام بعدد خالسا بملك زوره بكحة ناشفة تشيع إلى الهوا . بصفة مثل كسكت نهانين من سداح بيد فكل برهة ثم اصطك بالارض «سسيما .. بعد اصابع السبيته بالمسامر الحدادى الى جيب الصدر ، يسحب سبجارة هولبود ملتونه منططة، بعدلها يسونها برسقيا بين شفثيه يشعلها بعود الكبريت بشد أنفاسا سناحقة عديقه ببلعها . باسها ، السبجارة يكون دخانها قد تكفل بغسل عينيه وبفيسيمها على الأخر وضبط نظراتهما ، يحلير العقب فى اليوا . بلم ورق البريدة بضه بطويه كمنظروف صغر يدسه فى صدره . يقف ، يمد ساقه الطهيلة عابرا فتحة الشباك المطل على شارع جانبي يوصل إلى عمق شارع معروف بمجرد عبوره فتحة الشباك بحصى على الأرض يزيح قطع الحجارة عن خبينته . زجاجة بيرة فارغة ملفوفة فى كيس من أكياس الفاكهة . يذف إلى البقال الأترنجى على ناصية الشارع الجانبى يشتري منه نصف لتر من السبرتو الأحمر وزجاجة بيبسى كولا وقطعة جبن أبيض بقرشين ، وبقرشين باذنجان وطرشى ، ورغيفين ثم يعرج على المطعم فبشنرى طعمية ساخنة بقرشين ، ويعرج على عربة السمين الواقفة قرب سينما أوديون ، يعطى صاحبها شلنا كاملا ، والرغيفين ، يفتح البائع فى الرغيفين جيبن يملأهما بالكرشة والفشة والمبار وأم الشلاتيت واللسان والجوهره والأباوى . ينلقاهما صالح منكسا رأسه فى خجل لطيف وبسمة امتنان شديدة التهذيب لابتقنها هكذا إلا واحد من علية القوم المحترمين جداً .

بكل هذه المشتريات يقفل صالح هيصه عائدا إلى غرزة حكيم . ينزوى فى ركن قصى ، لا شأن لأحد به على الإطلاق لحظتذاك يخلط السبرتو بالبيبسى كولا . بفرد مأكولاته على الأرض ، يستعير كوبا من حكيم . يروح يصب فيه ليدلق فى جوفه مع الإستمرار فى الأكل . حينئذ يتحفز الجميع لمراقبته من تحت لتحت فى حذر وحيلة شديدين ممزوجين بالتوجس والبهجة معا لأن صالح هيصه هو الآن .. الآن يعمل الهيصه.

الهيسة

تقوم الهيسة بعد إذ يسرى مفعول السبرتو الأحمر المخلوط بالبيسى كولا فى عروق صالح هيسة ويصعد إلى مخه الذى لم يعد يستجيب لنداء الهيسة بسهولة . هى لحظة عابرة ، يصاب فيها صالح هيسة بالدوار المبالغ العنيف الذى لا يقوى جسده - رغم عملته - على مقاومته ؛ فيمدد ساقيه متكئاً بكوعه على أى خرق متكومة يغيب فى ملكوت الله الذى يعزله تماماً عما حوله وحينئذ لا يجرؤ أى مخلوق على اقتحامه أو الإحتكاك به لمسا أو كلاماً ؛ ذلك أنه يكون فى ذروة المشاعر العدوانية الصرفة ، يكون فى كامل استعدادة للإتيان بما لا يخطر على البال من تصرفات؛ ربما يضرب أحداً فى مقتل، بأى شئ تطاله يده، ربما هدم الغرزة على من فيها، أو أشعل فيها النار . مكن الخطر ليس الفعل الذى قد يفعله على غير توقع فحسب ؛ إنما الخطر الأكبر أن الفعل نفسه إذا حدث يكون بداية كارثة لا يمكن إيقافها بأى حال من الأحوال . ذلك أن صالح هيسة نفسه لا يعرف كيف يقفل نفسه متى أقلت منه الزمام واندفع ؛ فإذا بدأ بإشعال النار مثلاً - وبداياته دائماً حادة ومفاجئة كأنها ذروة الانفعال سابق غير مرئى - فانه سرعان ما يمسك بأى شئ يصادفه حينذاك ليلقى به فى قلب الأتون ، بشراً كان أو حيواناً أو هدوما . وإذا رفع يده ليضرب فلا مفر من أن يضرب بل إن الضرب يتحقق قبل أن يرفع يده . ضربته غشيمة ، إن لم توصل إلى القبر فعلى الأقل تترك عاهة مستديمة . وإذا انفجر فى الشتائم والسباب فإن صوته الجهورى الرنان يستلقط المارة من الشوارع البعيدة ليضيفوا إلى لذة الإستماع متعة مشاهدة هذا الفاصل من الشتائم المبتكرة الطريفة حيث تحتوى على صور سورالية تفجر فى الصدور ضحكات خالدة . مبدأ طرفتها أنها شتائم تفهم بالويم ، تتضمن ألفاظاً أجنبية من الإنجليزية والليانية والتركية والنوبية ؛

يقذفها مفخمة . صوته يضيف عليها جلالاً وجدية ومهابة . صوته يحمل بصمة العظمة ، طابعها ، فيه نبراتهما ، إيقاعات الأسياد بلهجة الأمر الباتر ؛ فيه قدرة السادة على التهكم باللهجة، ونبرات التقريع والتوبيخ والتبكيك ؛ لدرجة أنه ليس محتاجاً لكلام بمضمون إجتماعي يؤدي هذه المعاني ؛ فأيقاعاته الصوتية المرنة الشفافة تكفي للإشعار بها ؛ سيما وأنه صوت عريض جداً، مبطن بطبقات فوق طبقات من النغم السيادي الناعم والخشن على السواء ، ما عليه إلا أن يفك حبال هذا الصوت كلها دفعة واحدة فإذا الطبقات النغمية قد ساحت على بعضها حيث يختلط التلطف بالقسوة والأمر بالرجاء والتوبيخ بالاعتذار فيريك سامعيه بين تصديق الأذان وتكذيب العين حيث تؤكد الأذن أنهم يستمعون إلى واحد من علية القوم وتقنعهم العين أنهم لا يرون إلا متسولاً مصاباً بداء العظمة الكحولية «يتصادف في مثل هذه اللحظة أن ينادى على أحد أحبائه ليطلب طلباً ودياً، وهو بالتأكيد يحب أن يضع في صوته كل مشاعره الطيبة وهو ينادى على حبيبه فلان؛ لكنه حين يصيح : يا فلان ، يظن الإيقاع بعاطفة عكسية فكأنه صاح : يا حيوان،

تتواتر مثل هذه المفارقات وتترادف . ينفجر الضحك من حواليه ولكن في صوت مكتوم خشية استنثارته . كل هذا ليس يعني أنه شرير وخطر على الأمن؛ إنما هو - كما لمسنا ذلك وتأكدنا منه على الحقيقة بعد طول عشرة - حين يشرب ما يشربه ليعمل الهيصمة يكون في الواقع قد حمل على كتفيه عبئاً ثقيلاً سخيلاً رذلاً ويزداد ثقلًا واسوداداً كلما سرى لهب السبرتو الأحمر في دمه ، هذا العبء الثقيل هو خوفه المزمّن من التهزىء، الخوف أن يتناول عليه ناس حقراء لم يميزهم الله عنه بشيء سوى أنهم يلبسون فاخر الثياب وينفقون عن سعة ؛ وإذا كان هو قد نجح في إيقاف كل متناول عند حده وأجبر الجميع على احترامه فإنه يجب أن يكون حذراً من ناحيتهم وهو سكران ، فكل هذه البدل الفاخرة المحشوة بلحم بشرى تفوح منه العطور وروائح البنكنوت لاتخلو من جنب

حقيقى يدركه صالح جيدا ، وللحقيقة فقد لاحظنا أنه فى مثل هذه الانفلاتات لا يصطدم إلا بنوعيات معينة من الزبائن كانوا يثيرون فضولنا لهذا السبب - إشمعنى دول يعنى؟ - فنترصده سلوكهم بانتباه فيتضح لنا أنهم بالفعل جبنة بدرجة أو بأخرى لكن جميع درجات الجبن حتى وإن ضؤلت تثير فينا شهية التشفى بدرجة أو بأخرى كذلك . إذن فصالح هيصة يشم رائحة الجبن والخسة فى الناس مهما تخفوا فى ثياب مستوردة ومراكز مرموقة وخزائن بكنوت خلف ظهورهم:

- «إنما على مين يابك؟ لازم ولاد القصاب يعرفوا إنى صاحى لهم ! أنا ماباسكرش ! وإن سكرت لازم الكل يحترمنى! غصب عنه! تحترمنى قيراط وأنا فايق لكن وأنا سكران تحترمنى أربعة وعشرين قيراط! ناقصين قيراط لا!! إنما عدم المواخذة يعنى تستندل وتقل بأصلك حاشعوطك ! أخليك ماتتفعش فى الحياة بمليم ! وإلا عشان باشرب سبرتو يعنى؟ ماهى العملية كلها سبرتو فى سبرتو حتى الويسكى والشبنانيا! طظ فى الاسم اللى يخلينى أدفع تمن غالى قوى؟ هى صحيح مشاريب نضيفه ماقلناش حاجة لكن تبيع للناس العنطره الفارغة يدفعوا فيها دم قلبهم!».

أصابعه تسحب السجارة الثانية ثم تعدل قامتها برعشة خفيفة لتشعلها من عقب السجارة السابقة . ينبعث الدخان فى استمتاع شديد .

- «شوف يابيه ! الدنيا هيصة! فيها بنى آدم هيصة!» كل واحد فى هيصة! بيعمل الهيصة !! عشان يلحق الهيصة! ويالحق يميلحقش!.. وكلهم كحيانين! بس كل واحد كحيان بطريقته!.. وأنا .. ملك الكحيانين!.. عشان كحيان بكل الطرق!!».

بهذه الهيصة التى لا تزيد عن ساعتين يتمكن صالح هيصة من تثبيت دعائمه وفرض سطوته واحترامه . ننصرف نحن إلى بعض شأنا على وعد بالتلاقى فى السهرة حيث يكون صالح هيصة قد دخل فى مرحلة الوهج المبهج؛ لا يبقى منه

سوى الضحك المضحك ، على أعلى درجة من الصفاء والحيوية واللمعية والذكاء . كل الذين شعر بأنهم تعنطوا عليه من قبل بشكل أو بآخر ، والذين لا بدجبه أشكالهم بما فيها من قنزحة أو خلاعة أو طراوة ، والذين أسأوا إليه عن غير قصد ذات لحظة .. كل هؤلاء يجلسون الآن فوق الرابية يحششون وينصتون . تنعكس بهم الآية فيتحولوا إلى جمهور مع أن موقفهم فى العلو المتميز يعطيهم حق المسرحة على الجالسين قدام الغرزة . صالح هيصة هو وحده - بنظره الحديد - يستطيع تمييز أشباحهم فى الظلام الدامس ، يعرفهم بالأسماء وبالصفات وبالأشكال . هو صحيح - كائى سكران - يحلو له أن ينفى السكر عن نفسه حتى وهو فى عز السكر؛ إلا أنه فى هذه اللحظة فحسب يحلو له إظهار السكر ليستفيد من حقيقة أنه لاحرج ولا تثريب على السكران . مايكاد يسمع صوت أحد ممن يضعهم فى دماغه حتى يعاجله بالقفشة الحارقة المناسبة المنطبقة عليه تمام الإنطباع، ويكون هو أول الضاحكين . ضحكة مهرجان كامل من أصوات مرحلة مبهجة منطلقة ، حتى ليحار المشاهدون هل يضحكون على القفشة العبقرية أم يضحكون لاستغراقه فى الضحك بهذا العمق بهذا الصخب المريع؟!.

الشلة

بعيدا عن الهيصة فإن صالح هيصة رجل بالغ الكياسة والأدب والخل .
صديقنا قمر المحروقى يصفه بلقب الجنتلمان بكل ما يعنيه اللقب من ظلال وأبعاد .
وقمر المحروقى مغرم بانتقاء المفردات وتحديدها وأصبح ولوعا بالبحث فى توارىخ
ومعانى المفردات الدارجة منذ أن التحق بالجامعة الامريكية ، مساعدا لأحد
الباحثين العاملين فى قاموس : إنجليزى - عامية مصرية ، تعده الجامعة الأمريكية
استعدادا لإحكام السيطرة الأمريكية على مقاليد الحياة فى مصر فى الحقب
المقبلة على الأبواب .

لحظة أن وصفه قمر المحروقى بالجنتلمان كان بالفعل يستحفظها عن
جداره . ذلك أن الذين تعرضوا لسلخه مساء أمس جاؤا إلى الغرزة فى اليوم
التالى ، فإذا هو يستقبلهم ببشاشة وأدب جم ، فبطرف قميصه ينفذ التراب
عن المصطبة قبل جلوسهم ، ثم : أعمل لكم شاي ؟ مفيش حشيش معكم ؟ مش
إشكال ! معى تمنايه خذوها من عندى هدية تصطبجون بها إلى أن يصحو
بائع الحشيش . يقول هذا وكأنه بالأمس فحسب لم يمسخر هذا البك ويضحك
عليه طوب الأرض . نظرات هذا البك تقع فى عينى صالح هيصة فلا تجد
ثمة من أثر على الإطلاق لما حدث بالأمس كأن شخصا آخر غيره قد فعل ما
فعل أما صالح هذا البالغ الأدب والكمال والدفء فيستحيل أن تخرج منه
العيبة .

بهذا الرسوخ فى البراءة ، وبراءة الرسوخ والثقة يصادر صالح هيصة كل
أثر لما حدث بالأمس ، فلا يبقى فى نفوس الآخرين إلا الصفاء تجاهه . أما إن
حاول أحدهم - على سبيل المداعبة والاستثارة اللطيفة - تذكيره بلفظة نابية
جارحة رماء بها أمس ، يمتلىء فى الحال وجه صالح هيصة بالدم الفوار من

فرط الخجل والحرص والاستتكار ، بل يهز رأسه فى تأفف السادة المتحضرين ويعلن قرفه الشديد من مجرد ترديد مثل هذه الألفاظ القبيحة الجارحة للسمع . يبدو مقنعا جدا فى تأله وتقززه وهو ينكس رأسه مرددا بصوت عريض دافئ :

- «تؤتؤ تؤتؤ ! لا لا لأعيب ! مفيش داعى للألفاظ دى ! حد يقدر يقول لك كده يا بيه ؟ ودينى أقطع رقبته ! الأدب فضلوه على العلم يا بيه ! والبنى آدم مننا لسان ! لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك ! تشرب إيه حضرتك على حسابى ؟ لا والله أنا عازمك ! ما تكسفينيش بقى ؟ » .

عندئذ يتفلسف البعض منا حول الازدواجية وانفصام الشخصية وما إلى ذلك من مصطلحات أصبحت سهلة ودارجة على جميع الألسنة ..

طلعت الإمبابى ، المعيد بكلية الآداب جامعة القاهرة قسم التاريخ ، والمفتون بفرع من روافد علم النفس اسمه علم نفس الشعوب والمجتمعات ، ويقرأ لإريك فروم أكثر مما يقرأ لتوينبى مثلا ؛ يحذرننا دائما من إتهام صالح هيصة بأنه مصاب بازدواج فى الشخصية ، أو البارانويا ، لا ولا تلك الميلانخوليا .. إنما صالح هيصة فى حقيقة أمره شخصية سوية تماما ، متوافقة مع نفسها تفعل كل شئ سواء فى السكر أو فى الصحو بملء إرادتها ومطلق حريتها إذ إنها تريد أن تفعل ذلك عن وعى وإدراك ؛ أما لماذا هى تريد أن تفعل ذلك أصلا فإن لديها أسبابها المنطقية النابعة من وعيها وإدراكها . ثم يردف طلعت الإمبابى فى تقرير العليمين ببواطن الأمور إن شخصية صالح هيصة سوية أكثر منا جميعا ، بل إنها قد تتميز عنا بخلوها من العقد النفسية لأنها تفعل ما تريده بدون تردد ، لقد اختارت لنفسها أن تعيش هكذا بمحض إرادتها ، فصالح ليس مرغما على أى شئ ، ليس مضطرا ، ليس واقعا تحت ظروف قهرية قاسية ، كلا ، إنه يستطيع أن يشغل أشغالا كثيرة سيما وأنه يجيد أكثر من صناعة تنبيح له

أن يأكل الشهى ويلبس المقصب ويتزوج وينام على فراش وثير فى بيت نظيف آمن ، غير أنه - بكل بساطة - لا يريد ، ليس عن عجز طبعاً فيها أنتم ترونه كالثور ، وليس عن كسل فيها أنتم ترونه كالنحلة فى غاية النشاط والحيوية والعزم ؛ وليس عن غباء أو غشومية فيها أنتم ترونه على درجة كبيرة من الذكاء واللباقة وصفاء الذهن وسرعة البديهة وإجراء عمليات حسابية معقدة بأرقام كبيرة دون أن يستخدم ورقة وقلما أو يعد على أصابعه ؛ المسألة كلها كما ترون أنه اختار هذه الحياة على هذا النحو عن اقتناع تام ؛ أما كيف ولماذا ؟ فهذا ما يجب أن نبحث فيه .

طلعت الإمبراطورة كلاً من مضمحل ، رأيته - فيما يبدو لنا - سديد ومدرس . إنه بالفعل قارئ نهم ، لديه مكتبة متخمة مكومة فى شقة كبيرة استأجرها حديثاً فى ذلك الحى المستحدث والمسمى بمدينة المهندسين . متزوج من شابة إيطالية تدعى ماتيلدا ، مبرومة متخخة بيضاء مشربة بحمرة مخففة ، تطفح أنوثة بدائية حوشية تعلن انتماؤها الاجتماعى لفصيل من لونها فى الريف الإيطالى ؛ إلا أنها جامعية مثقفة ، ماركسية ، تحترف العمل السياسى لصالح الأممية العالمية وفى سبيله النبيل لا تجد أى غضاظة فى أن تعيش فى أى دولة تروق لها وأن تتزوج من أى رجل تقتنع بأنه يطاول أو يوائم أو يماشى طموحها .

طلعت وإن كان ماركسى الهوى فإنه لم يحترف العمل السياسى بعد وإن كان يأمل فيه بعد أن ينتهى من مشروعه العلمى بالحصول على إجازة الدكتوراه فى علم التاريخ المادى للشعوب النامية . لم يسافر إلى إيطاليا ليعود بزوج خوجاية بيضاء كما يفعل مسافرو البعثات العلمية المصرية منذ فجر التاريخ الحديث وإلى الآن ؛ إنما هو ولد ذكى جداً ، لهلوية فى كل شئ حتى فى كلامه العجوز السريع الطلقات المجنح دائماً نحو جنونيات التغيير والتجديد والحدثة وما بعد الحدثة وجماعات الهيبي والخنافس والغاضبين ، ويقرأ بشغف كبير لفيلسوف

الشباب الطالع علينا من الغرب حديثا ذلك المدعى ماركيزا صاحب كتاب «الإنسان ذو البعد الواحد» . نخلط في وحدانه المذهب تأثيرات كثيرة علقت بمذبه الذكى النجيب واستوطنت ، من الفلسفة إلى التاريخ إلى علم النفس إلى الادب بجميع أشكاله القصصية والروائية والشعرية إلى الفنون التشكيلية والسبغما والمسرح والموسيقى الكلاسيك ، له فى كل هذا آراء عميقة منظرقة وسحاولات إبداعية محبطة . لهذا ينفوق فى دراسته ويملا دماغ اساتذته فبعطونه الثقة والمودة .

لديه قدرة على الكلام بطلاقة وإنسجام فى جميع ما يسكن طرحة من موضوعات تستهونا : من الفرق بين وجودية سارتر وعيشية الير كامى وإيمانية جابرييل مارسيل ، الفرق بين بولير ورامبر ، تويسى وبيتراند راسل ، صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ، كولن ولسون وماركيوز ، لويس عوض ومحمد مندور ، محمد أنيس وعبدالرحمن الراقى ، يحيى حقى ويوسف إدريس ، عادل كامل ونجيب محفوظ ، محمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين ، مصطفى أمين ومحمد التابعى ، روز اليوسف وفاطمة رشدى ، إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعى ، جمال عبدالناصر وتيتو .. إلى الفرق بين مائش الأهل مع الترسانة ومائش الزمالك مع الإسماعيلى : وقد تؤوب التجليات المرسلة إلى مناقشة الفروق - الجوهريه هذه المرة - بين غرزة حكيم وغرزة جلال ، تعميرة أم يحيى وتعميرة على منجة .

كيف إذن تزوج طلعت الإمبابى ابن الفلاح نصف الموسر فى قرية وراق العرب ، من مثقفة إيطالية تعمل فى الحركة اليسارية الدولية وذكسب عيشها بتدريس اللغات وأدابها فى المدارس الأجنبية المتوافرة فى كل الدول ، فائنا توجهت ستجد مدرسة أو معهدا إيطاليا يطلب أساتذة ..

هكذا يتساءل السذج من أعضاء الشلة وإن كان تساولا قلما يخرج عن بحيرات العيون إلا على خجل واستحياء محجم عن الإفصاح : ما الذى يا ترى

جمع الشامى على المغربى ؟! طلعت صحيح لا يعرف حرفا واحدا من اللغة الإيطالية لكنه يجيد التحدث بالانجليزية ويتأهب للدراسة بها عما قريب فى أكسفورد أو أمريكا . وزوجه وإن كانت الإيطالية لغتها الأم فإنها تجيد الانجليزية والفرنسية والروسية قراءة وكتابة ومناظرة ، وكثيرا ما تشغل وقت فراغها - على ضالته - بالترجمة من إحدى هذه اللغات لتلك أعمالا أدبية أو ملفات صحفية أو بيانات ووثائق لجهات دبلوماسية فى دول كثيرة عاشت فيها . هذا إلى جانب كونها تتحدث بالعربية وعلى وجه التحديد العامية المصرية بلكنة جذابة ذكية ؛ فإن أعجزتها العامية المصرية عن معنى دقيق فإنها تكمل التفاهم بالإنجليزية الشائعة، يعنى ليس ثمة من مشاكل على الإطلاق بين هذين الزوجين المتحابين المتوائمين تواؤم الفل مع الياسمين .

المقربون من طلعت الإمبابى يسخرون من مثل هذه التساؤلات التى لا محل لها من الإعراب ، سخرية علنية لا بأس من أن يسمعها طلعت نفسه ويضحك منها هو الآخر فى كثير من الزهو وقليل من الحرج . من سخرياتهم أن هذه الزيجة ليست أمرا على الإطلاق بالنسبة لطموحات طلعت الإمبابى . ذلك أن طموحاته ليس يقف فى سبيلها اللهم إلا عقبة مجنونة زنت على خراب عشها . إن طموحه كاسح كالقطار المجرى لا يعترف إلا بمحطات المراكز الكبيرة ؛ وكل ذلك فى الظرف والحلوة واللطافة والنعمومة الخطرة .

عود مصرى صرف ؛ نفس قامات النقوش الفرعونية قامته بين الطول والقصر. نحيف البدن ، صلب العظام ، مدور الوجه كالطبق الذى يوضع فوقه الفئجان ؛ خمرى اللون ؛ قوى العينين لدرجة أنهما أبرز ما فى جسده كله ؛ يذكرك بالشخصيات الأسطورية من قاطعى الطريق نوى الأبدان النحيلة والإرادة الصلدة، ملامحه حادة التقاطيع وإن وشت بمرونة وطراوة حتى لتخضر بشرته أحيانا كورقة من شجرة الخروع ، تشترك مع فتحة حنكه الحادة فى الإحياء بأنه ينطوى على عزيمة وقوية وإصرار لا يلين . يمشى بتؤدة وثقة لكنه عند الخروج

من الغرزة مُسهلا يتأود كمشية ابن البلد المعجبانى أو أحد العياق المشاهير :
مرتديا البنطلون الجينز المحرق ، والبوت الكاوتشوك المستورد بنصف رقبة فى
قدميه يهدده على الأرض ، وقيص من لينو الشوريجى الشفاف سمنى اللون
مفتوح أضرار الصدر كلها تقريبا ، والبول أوفر الصوف ماركة سان مايكل بلونه
الفخارى مطوى على ذراعه تحسبا لاستبدال الجو المتقلب . يتجه نحو سيارته
القولكس واجن الخنفساء زرقاء اللون مشدودة الحيل رغم قدمها .

هو فى الواقع لم يسع للزواج من ماتيلدا ولا من غيرها بل إن الزواج لم يكن
فى خطة حياته مطلقا قبل انتهائه من مشروعه التأسيسى . إنما الفرصة جاءت
لحد عنده مقشرة جاهزة لوضع اليد . فماتيلدا كانت متزوجة من الشاب المصرى ،
عضو شلتنا أحمد عاصم ، ابن عميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة العتيدة وهو
رجل فاضل جدا ويحسب ضمن آخر الأفاضل ممن لم يلهم تخصصهم العلمى
الدقيق عن التبحر فى فقه اللغة العربية وأدائها ، لدرجة تمكنه من تحقيق بعض
كتب التراث والحصول على شهادات إضافية عليا فى دراسة اللغة العربية . ابنه
أحمد مفتون بفن السينما رغم أنه تخرج فى كلية العلوم ، لا بأس فليدرس
السينما دراسة علمية . ولكن أحمد الراغب فى السفر والإنطلاق أو ربما الانعتاق
بدا له أن معهد السينما المصرى متخلف لن يغذى طموحه بشئ يضيف إليه علما
وخبرة حيث لا أجهزة ولا معامل ولا بلاتوهات اللهم إلا بعض أدوات بدائية لا
تسمن ولا تغنى من جوع . هكذا شرح الأمر لأبيه المتعبد فى محراب العلم ، فلم
يمنع فى سفر ابنه أحمد إلى الخارج بشرط ألا يكلفه ما لا يطيق ، فطمأنه أحمد
بأنه سيلتحق بعمل ينفق منه على عيشه وتعليمه . إيطاليا كانت قبلته لأنه فى
الأصل مسحور بالسينما الإيطالية .

أحمد ولد متفتح ، مدرّج ، متودك ، أدمن انتخابات اتحاد الطلاب فى
الجامعة واحترف الفوز كل عام ؛ وله علاقات طيبة ومتينة بالجماعات اليسارية
السرية ومنها جماعات ذات اتصالات واسعة النطاق فى جميع أنحاء العالم . ما

اسهل أن يحصل خطاب برصية من رغبى محلى الى رغبى مماثل فى دولة أخرى
لبيد أكثر من مساعدة فنيح له العمل والدراسة . أنقيت فى طريقه ماتيلدا ، أو
عليها الغيت فى طريقه . يعرفنا ، خطاب ، رجب عينا الخارجية البيضاء التى تشبع
ومحو حينما يعود متابطا من نيبا إلى القاهرة كطه حسين وحسين فوزى ويحيى
مضى وصوت شاعى وعبدالله الطه وغيرهم وغيرهم . هى الأخرى وجدت فيه
التدريس السحر المحسن المعنى المصحح دا . حساسة نظرية مسنودة بأخلاق
إسلامية . تثبت قد ربي عليها منذ الصغر . عرض نسبها الزواج رغم أنها تكبره
فى العمر أربعة أعوام وربما حساسة . رافقت فى الحال ، عرفته على أهلها
المسرحين ، أمعهم . انام معها فى ستة شقق تلتها فى العاصمة الإيطالية .
سرعان ما عشت عنه . جات لتضع سيلودها فى القاهرة بين أجداده الفراعين
نما أحببت . ما كانت تسترد لناقنا الدينية بعد الولادة حتى دب الخلاف بينهما
هجرة وأسباب غير مفهومة على الإطلاق حتى بالنسبة لهما لدرجة أن كلاهما عند
حازلات الصدفاء لأذابة الخلاف لم ينطلق تقديم أسباب تبدو حقيقية ومقنعة .
كان هما يبدو خلافا عادا يقوم على أسباب جرفية حساسة يصعب الكشف
عنها أو صياغتها فى كلمات محدودة . ولهذا كان الانفصال بينهما سريعا وسلسا
نى أن وإلى حد شديد المؤينة والإيحية من الطرفين . طلعت الإمبابى صديق
أحمد عاصم منذ الطفولة جمعت بينهما الحضانات المتميزة والمدارس الإعدادية
والثانوية فالجامعة . كما أن محاسن عاصم - شقيقة أحمد - كانت زميلة لطلعت
فى نفس الكلية فى نفس القسم فى جميع الأعوام وما أطول الليالى التى قضياها
معا فى مذاكرة جادة ومثالية . كان معاصرا لنشوب الخلاف بين أحمد وماتيلدا ؛
وفى الحقيقة لقد بذل جهودا جبارة مضية حتى لا يقع الطلاق بينهما لأنها فى
نظره مكسب لصديقه على جميع المقاييس والمستويات كما أنه يستخسرهما فى أى
شخص آخر فد لا يكون لانقا بها وتقم فى حباته . ركبته الجنون حينما رأى
الطلاق نافذا ، أصابته رغبة قوية مفاجئة فى الاحتفاظ بها تحت سيطرته لبعض

الوقت لعل أحدهما - هى أو أحمد - يراجع نفسه فتعود المياه إلى مجاريها ، فنقلها إلى شقة فى نفس الحى وخصص لها خادمة تعنى بشئون طفلها أثناء وجودها فى عملها بمعهد دانتي الإيطالى على مرمى حجر من غرزة حكيم . فلما تأكد له بعد شهور طويلة أن كلا الطرفين قد استراح للانفصال ونسى الآخر تماما ، تقدم للزواج من ماتيلدا مبديا كامل استعداده وترحيبه بأن يتبنى هذا الطفل عن طيب خاطر .

قلة قليلة جدا بين أعضاء شلتنا يعرفون بعض التفاصيل لعلى أحدهم بحكم تقاربى الأشد حميمية من صديقنا قمر المحرقى لما استشعره فيه من ذائقة أدبية أكثر نضجا وعمقا واتساع أفق من ذائقة طلعت الإمبابى ذات الطابع التاريخى المغمض العينين عن الجوهر الإنسانى والفنى للعمل . كان حريا بأن يصبح أحد كبار أدباء القصة والرواية لولا انشغاله الدائم وتوزع اهتماماته بين اتجاهات كثيرة متعارضة متضاربة .

قمر المحرقى متزوج من محاسن عاصم . لديه منها طفلة جميلة اسمها نهلة . قال مفسرا علاقة صهره بطليقته الإيطالية إن الأوساط اليسارية العالمية ذات النزعة الأممية تذيب الفوارق بين الناس بجميع أنواعها الطبقيّة والعرقية والعلمية إلا فيما يتصل بالسلوك الشخصى ، الذى قد يبدو لنا أنهم يتساهلون فيه باعتبارهم شيوعيين أميل إلى الانحلال والإلحاد لكثرة المنتمين إلى الأحزاب الشيوعية من عناصر فوضوية متحللة من جميع القيود الأخلاقية والدينية . ولربما كانوا بالفعل هكذا فى بعض علاقاتهم ؛ لكنهم لا يتساهلون مطلقا فى أمور الكذب والخش والخداع وما إلى ذلك من سلوكيات دونية ممقوتة . تبعا لذلك فإن قمر المحرقى لا يستبعد أن يكون صهره أحمد قد بالغ فى تقديم نفسه لطليقته الإيطالية ، لابد أنه أوهمها أنه مثلها من أسرة غنية مرموقة وأنه يملك ويملك أى أنه لا يقل عنها يسرا - وماتيلدا - فى رأى قمر المحرقى - لم يكن لديها أى مانع على الإطلاق من السماح لزوجها الذى أحبته وأنجبت منه ولدا بأن يتمتع

بأملها كيفما شاء ودون تحفظ ؛ ولكن بشرط أن يكون هذا بمحض مزاجها على أرض من الصراحة والمكاشفة المبدئية من قبل الارتباط الرسمي ؛ يعنى أنه لو صارحها منذ البداية بحقيقة وضعه الطبقي لما كان هناك أى مشكلة سيما وأنها ليست من أنصار الملكيات الشخصية . أما أن تجئ معه من إيطاليا لتتعرف على أهله وترى بيت الزوجية المعد لها مستقبلا وترى المزارع والضياح الخاصة بأهله مثلما أرته هي أملاك أهلها ومزارع أبيها المهندس الزراعى الكبير .. ثم تفاجأ بشقة أبيه المتواضعة التى لا يملك سواها من حطام الدنيا ، وحالة أهله الشديدة التواضع لدرجة أنهم جميعا لا ينفقون فى الشهر ما تنفقه هي فى يوم ، ثم تفاجأ بأنه عاجز عن العودة إلى الدراسة عجزا ماديا ، وأنه يبحث لها ولنفسه عن عمل فى القاهرة ، فإن هذا ما لا يمكن أن تغفره ماتيلدا مطلقا كما أنها إضافة إلى ذلك ليست محتاجة إليه بأى قدر بل إنها تنفق عليه فى بيت أهله ويمقدورها تدبير عمل محترم لنفسها خلال ساعات قليلة . إنها - يقول قمر المحروقي - من ثقافة أخرى لا تطغى فيها العاطفة على العقل مثلنا ، ولا تترك حملوها على جناب الله وتجلس مستريحة تندب الحظ على التواضعة أو تشكر الله على البلهنية ، لا يا حبيبى ، باى باى ما أعطلكش . هي لن تغلب ، فهذا هو ذا عريس آخر فى انتظارها مستعد للخضوع لكامل شروطها تاركا العصمة فى يدها . طلعت - يقول قمر - أرجل من أحمد بغير شك ، كما أنه أنشط وأذكى ، أنشف ، أغنى ، على الأقل يملك أهله أطيانا بالفعل ويستطيعون مده بمئات الجنيهات تلو المئات بلا تذمر ، يخلق لنفسه أشغالا نظيفة فى المحيط اليسارى وفى سفارات الدول الشيوعية كلها ، يترجم لدار الشرق الروسية مقالات تنشرها مجلة الشرق التى يرأس تحريرها الدكتور محمد مندور فى طبعتها العربية ؛ يكتب الدراسات التاريخية لبعض الدوريات والمجلات المصرية ، والمتابعات وعروض الكتب للصحف العربية ؛ يسافر فى إعارات خاطفة لبعض جامعات ليبيا والكويت والجزائر لإلقاء المحاضرات والتدريس والمساهمة بأبحاث فى

مؤتمرات . من هنا فالأموال سائلة فى يديه باستمرار ، وقد اكتسب مظهرا وسمعة يؤهلانه للإقتراض من الموسرين دونما حرج ، وأن يشتري سيارة بالتقسيط من إحدى الصالات ، ويدبر خلو رجل لشقة واسعة فى عمارة محترمة فى حي محترم . إنه أكثر درجحة وتودكا منا جميعا ويجيد صرف النقود فيصنع بالقليل منها شيئا كبيرا ، كأن يقوم بجولة مع ماتيلدا فى شارع هدى شعراوي مرورا على المحلات المتخصصة فى المزادات ، استلقط مجموعة من قطع الأثاث الثمينة الأصلية جعلت شقته مثل شقق الوزراء والكبراء . لقد بات من الواضح أن ماتيلدا تعشق طلعت وتنطق اسمه بركة خفيفة الظل مموسقة : يا تلعت ، فنصاب نحن بنشوة مجانية .

إلا أن صديقنا الثالث - ضمن البؤرة الضيقة للشلة - مصطفى لمعى ، الفنان التشكيلي المتخرج حديثا فى كلية الفنون الجميلة قسم تصوير ، والمتزوج هو الآخر من امرأة تشيكية لا ندري كيف ولا أين ولا متى التقاها والنقته ، له رأى آخر فى مسألة طلعت الإمبابى وأحمد عاصم والثقافة الإيطالية اليسارية . نحن فى الواقع نحب أن نستمع إلى رأيه . إنه أحد أقطاب الجناح الثقافى الأدبى الفنى فى شلتنا الكبيرة المتنوعة الأشخاص والأهداف والمهن والمستويات .

مصطفى لمعى يميل إلى العزلة بشكل يقترب من أن يكون مرضا فى بعض الأحيان ، العزلة حتى عن الخمسة ستة ممن يكتبون ويقرأون ويرسمون وينشرون ؛ ليس بمعنى أن يجلس بمفرده بعيدا عنا ؛ بل بمعنى أن يكون متوحدا مع نفسه حتى وهو جالس بيننا نتبادل بوصة لجوزة واحدة من تعميرة واحدة . نادرا ما يشترك معنا فى المناقشات أو يدلى برأى فى أية قضية من قضايا الرأى العام ؛ ربما بفعل الخوف الذى أنزرع فى قلوب الكثيرين من شباب المثقفين - خاصة أبناء الفقراء الذين أتمموا دراساتهم بشق النفس - بسبب شيوع آفة التقارير وانتشار المخبرين إلى حد الاندساس بين الأب وابنه والزوج وزوجه بل

وبين الفرد ونفسه مما يترتب عليه القبض على ناس أبرياء والزج بهم فى معتقلات مجهولة الموقع .

على أن مصطفى لمعى كثيرا ما يرفع رأسه على غير انتظار وهو يزيح بيده سحب الدخان المتدفق من منخريه وحنكه فى لذة ونشوة ؛ ثم يتحفنا بتعليق عابر على ما نتحدث فيه فإذا هو قد جمع فأوفى وأوجز فأبلغ ؛ ولربما يقلب تعليقه مجرى الحديث رأسا على عقب أو يحوله إلى اتجاه آخر أكثر صوابا وفاعلية وربما خبثا ، أو يحبط الحديث كله فينهييه تماما . قال مصطفى لمعى بطريقته التى تضمن دائما باستكمال الكلمات والعبارات والمعانى ؛ دائما أبدا يكتفى بالإشارة والتلميح تاركا لذكائك مهمة التكميل أو الصياغة المناسبة لتكون على مسئوليتك أنت فى صورتها الكاملة :

– «بماذا تشغلون أنفسكم ؟ ضاعت أمخاخم ؟!»

– «بمعنى ؟!»

– «زواج .. حب .. كذب .. خيانة .. طفل .. كل هذا كلام .. يعنى ..»

– «ماذا تقصد يعنى ؟!»

– «يا غبى أنت وهو .. الشيوعية الدولية .. يعنى .. هذه التنظيمات التى .. صاحبت هذا المعتقد المسمى بالأممية .. تعيش مثلكم بالضبط .. يعنى فى أوهام .. هل تعتقدون أن العمال إذا تسلموا قيادة العالم هل يعنى .. كل هذا مضيعة للوقت وخرقشة مخ ..»

– «ما دخل هذا فيما كنا نتكلم فيه ؟!»

– «تريدون رأى بصراحة ؟»

– «من فضلك وإحسانك !»

– «بالفتش ! .. المسألة باختصار .. كوادز الأحزاب والتنظيمات السرية .. تكلف بالقيام بأنوار فى بلادنا .. خصوصا إذا كان الكادر امرأة .. الزواج هذا مجرد سبب .. ذريعة .. مبرر للإقامة فى البلد !»

يتصادف فى مثل هذه اللحظة أن يطب علينا طلعت ممسكا . بمجلد ضخـم مكتوب باللغة الإنجليزية هو على الأرجح مسرحيات شيكسبير ، والأكثر رجحانا أنه من مقتنيات زوجة ، تتدلى فى يده الأخرى ميدالية المفاتيح الفضية الحافلة بحزمة من مفاتيح غريبة مختلفة الأشكال والأحجام ؛ يشبك حلققتها فى خنصره ليمرر أصابعه فوق شاربـه التخين المتربع على حنكه فيجعل ذقنه صغيرا حادا كبروة الصابون المعطر مما يوحى بقوة العزم والحزم والإرادة . تكون المفاجأة مذهلة حين نلمح من خلفه أحمد عاصم صديقه الأول والزوج السابق لزوجه . يجلسان فى قلبنا أو فوقنا لا بأس ولا ضير حتى تتسع المساحة بانصراف بعض الزبائن . يظهر فى عين طلعت وفى قسمات وجهه الطحين المسفرت أنه قد عرف فيم كنا نتحدث لتونا ؛ فهو من الذكاء بحيث يستطيع معرفة رأيك الحقيقى فيه حتى وإن أبديت نقيضه ، كذلك هو غير معنى على الإطلاق بتصحيح أى رأى فيه حتى وإن كان رأيا جائرا ؛ فكل الناس فى نظره أحرار فى آرائهم كما أن كل الناس فى المقابل أحرار فى تصرفاتهم . وباعتباره منتما إلى الحركة الشبابية الراقضة البارزة فى العالم تعبر عن رفضها لكل ما لا تقتنع به أو بفاعليته حتى وإن كان مقدسا ، لتعيش حياتها كما يروق لها فى المكان الذى يلائمها بعيدا عن القوانين العتيقة والتقاليد البالية والأخلاقيات الجافة والأعراف السقيمة التى شكلت سجنا تاريخيا يخنق انطلاقة الإنسان ويصادر حرية المبدعين .. باعتباره ينتمى لهذه الحركة ويتعاطف مع جماعاتها المختلفة فإنه ليس فحسب يدعو إلى ما يدعوا إليه بل ويطبق على نفسه فلسفاتهم الجديدة التى يرى فيها محاولة مهمة لإنقاذ البشرية من الجمود والاضمحلال . إذن فليقل كل واحد رأيه كيفما شاء وفيمن يشاء بل على العكس فإن من لم يفعل ذلك بكل وضوح ويتحديد قاطع يكون خائنا لنفسه وللبنشـرية بشرط وحيد هو أن يقال الرأى فى المواجهة بشجاعة وموضوعية ، أما أن يقال من وراء فإن ذلك لا يعتبر رأيا بل نميمة لا تستحق الرد عليها وإن وجب احتقارها والاشمئزاز منها .

جلس أحمد عاصم بجواره كالولد الفافى ، كصبى تعلق بأخيه الكبير ليمرنه على القعدات مع الرجال . ها هو ذا يضع يديه على ركبتيه رافعا رأسه المحنق الجميل بتسريحة شعره المنضبطة الفودين ضسبطة حلاق أريب ، وأنفه الطويل المدبب ووجهه الأبيض المحمر المتناسق السمات مسمم القسمات ولكن فى رجولية واضحة ؛ سريع الابتسام سريع التكشير كأنه بهاتين السميتين وحدهما يشارك فى أى حوار دائر حوله ؛ أما الكلمات فلا يستخدمها إلا للتوضيح إذا ما التبتست فى العيون إحدى هاتين : البسمة أو التكشيرة . ها هو ذا يمسك بوصة الجوزة بأطراف أصابعه مسكة تنفى عنه شبهة الولد الفافى ؛ يشد الأنفاس العميقة شدا يضعه بين عتاة الحشاشين الأصلاء ، فيبدو بين سحب الدخان الكثيف كأحد أشقياء مدينة نابولى أو بمبوطية الموانئ البعيدة عن العمران .

علق مصطفى لمعى وهو يرمقه بنظرة مغتبطة :

– «الطلاينة حشاشين برضه يا جدع !»

علق حكيم من ركنه البعيد الصامت وهو منهمك فى علاج بعض البرطمانات ليجعلها جوزات للشرب السريع :

«إزاي يا بيه ؟ دا سعادة البيه حشاش كبير قوى ! أنا أعرفه من سنين طويلة كان بييجينى دايمًا ! وبالأمانة كان دايمًا يجيب معاه خواجهات ! مش البيه برضه مرشد سياحى ؟ ولا .. نظرتى مش فى محلها ؟»

أكمل هذه العبارة وهو يلوى رقبتة القصيرة فى اتجاهنا منتظرًا الجواب بشغف . فأطلق قمر المحروقى ضحكته التى كانت محتبسة فى قاع حلقه . وضحك طلعت الإمبابى نفس الضحكة بنفس الإيقاع لأن بينه وبين قمر وجوه شبه كثيرة جدا لدرجة أن الأمر يلتبس علينا فى كثير من الأحيان حول : أيهما مؤثر فى الآخر ؟ إلا أن التشابه يتطابق حتى فى الجسد النحيل السنار وإن كان قمر أكثر نحولا وأطول قامة بعض الشيء . كذلك ضحك مصطفى ضحكته المعهودة

حيث يعرض على نواجذه فاشخا حنكه عن أسنان كبيرة مقوسة ، فإذا كانت الضحكة قوية منفعة هز رأسه بإيقاع المندمج فى قهقهة عالية مع أنها بغير صوت .

قال طلعت الإمبابى مصححا لحكيم ؟

« لا يا حكيم وأنت الصادق ! .. دا .. مرشد سينمائى ! »

وكان صالح هيصة منغمسا تماما فى حجارته بأنهماك إلى حد الإنهاك ؛ فما أن سمع هذه العبارة الأخيرة حتى رفع رأسه عن كومة الحجارة وتطلع فى وجه أحمد عاصم بنظرات منسربة من تحت جبهته المفلطحة المدورة معا . ثم قال بصوته التخين الناعم :

« متهيألى شفت البيه وهو بيقعد الناس فى السيمة ! بالأمانة حضرتك مرشد فى سيمة روفولى ألى هنا قدام دار القضاء العالى ! أهو الواد ألى ماسك البوفيه بتاع السيمة دى صاحبى أنا ألى مربيه يعنى ! »

تدفقت الضحكات تكسرت تهشمت تصاعد غبارها سحباً تخترق سحب الدخان الأزرق تبدده تحت ثقلها . مال طلعت الإمبابى على رأس أحمد عاصم قائلا وهو يمسد شاربه بأطراف أصابعه المشبوكة فى بنصرها ميدالية المفاتيح :

« هو ده صالح هيصة مانتاش تايه عنه ! »

هز أحمد عاصم رأسه وقد أحمر وجهه واتسعت ابتسامته فيما يقول بنبرة رقيقة كلها ترحيب وأريحية :

« عارف عم صالح طبعاً ! عارفه من زمان قوى ! »

بضحكة مهذبة قال صالح هيصة :

« والنبى يا بيه أما يكون عندكم فيلم فيه شوية ضرب حلوين كده إبقى

اعزمنى عليه ! »

فى شخطة ودودة ؛ إذ هو الوحيد الذى بينه وبين صالح هيصة لمسة ودٍ خاص
تسمح له بأن يكلمه كيفما شاء ؛ قال قمر المحروقى :

- «يا بنى آدم أنت أفهم ! الأستاذ أحمد عاصم مخرج سينمائى يعنى هو اللى
بيعمل الفيلم من أساسه مش بيحدد الناس فى السينما !»
بك الدم من وجه صالح هيصة من فرط الشعور بالحرى ، تحول وجهه
البرونزى اللون إلى وجه طفل أخطأ خطأ فادحا ؛ تلعث مشيرا إلى طلعت
الإمبابى :

- «عدم المؤاخذة يا بيه أصل الأستاذ بيقول مرشد سلمائى !»
- «مرشد بالفكر يعنى ! بالفن ! فهمت والا ما فهمتش ؟»
هز صالح هيصة رأسه وقد أضاء وجهه بكثير من الإعتذار مما يعنى أنه قد
فهم بالفعل . وقال مصطفى لمعى بصوت خافت :
- «ما هى بينى وبينك ما تفرقش كثير ! اللى بيعمل الفيلم هو اللى بيحدد
الناس فى السينما مش حد تانى !»

هتف أحمد عاصم :

- «مظبوط يا درش !»

صفق طلعت الإمبابى بيديه فى مرح يمزج بين الرصانة والصبيانىة
المستساغة:

- «صلوحة ! نهارنا فل إن شاء الله ! إنت وراك إيه النهاردة ؟»
رمقه حكيم فى شئ من التوجس ، وشيع إليه صالح هيصة نظرة تقطر
بلاغة وسحر بيان ، تكاد تسخر من غباء السؤال وغفلة صاحبه ، تكاد
تقول بصريح العبارة : «ما أنت شايف اللى ورايا أهـ» . يبدو أن طلعت
استوعب مضمون النظرة فأوجعته قرصتها المؤلة ، فإذا هو يستدرك
مصححا عبارته :

- «قصدى .. بعدما تخلص شغلك يعنى ؟»

تمددت الإبتسامة الميتة على شفתי حكيم المزمومتين ، قال كمن يقرر بديهه لا
تحتاج لسؤال :

- «حيعمل هيصه طبعا !»

- «الليلة ؟»

- «هو حيخلص الليلة ؟!»

- «أمال حيخلص إمتى ؟»

- «ليه طبيب ؟! عاوزه فى حاجة يعنى ؟»

- «الحقيقة آه !» .

- «عندك شغل فى البيت مثلا ؟ مشوار ؟»

- «لا ده ولا ده ! .. أنا عاوزه ضيف !»

- «ضيف ؟! .. عندك فى البيت ؟!»

- «غريبة يا حكيم ؟!»

- «ما غريب إلا الشيطان !»

هكذا عقب قمر المحرقى فى لهجة مفعمة بالغمز الساخر الخفى . فالتفت إليه
طلعت محاولا استقطابه لمساعدته فيما يهدف إليه :

- «على فكرة يا قمر ! إنت اللى ممكن تقنعه وتقنع حكيم !»

- «بإيه يا ترى ؟!»

ووضع ساقا على ساق متراجعا بظهره إلى الحائط فاستطال جسده بشكل
لافت للنظر ! انحسرت ثنية البنطلون الأسود عن جوب أبيض من الصوف الناعم
يمتد برقبة طويلة من داخل الحذاء الأسود المتين العريض البوز على القالب
الإنجليزى ؛ انزاحت ياقة الجاكيت الكاروهات نى اللون البنى المحروق وفى كوعيه
رقتان جلديتان ؛ فبانت عظام صدره تحت الفاتلة الصوف البيج أم رقبة ،
كشرايح كنزة من خشب الأبلকাশ . مد أصابعه الطويلة السرحة إلى جيب
الجاكت الداخلى فسحب علبة سجائر معدنية تبدو كأنها من الذهب ولا غرابة أن

تكون كذلك بالنسبة لقمر ، ملحق بها قداحة داخلية سحرية غير مرئية .
إلتقط سيجارة بحركة رشيقة خاطفة ثم رشقها بين شفتيه ، ولس طرف
العلبة فارتفع غطاء كعقلة الأصبع متراجعا أمام عامود من الذهب . كل ذلك فى
الانتظار أن ينتهى طلعت من توليع الحجر لكى يرد على تساؤله . شد من
السيجارة نفسا عميقا ؛ فى حين دخل عليه الولد صابر ببوصة الجوزة
فالتقطها قمر بين السبابة والوسطى حيث توجد السيجارة . راح يسحب
الأنفاس لاويا وجهه فى اتجاه طلعت باهتمام ينم عن شغف كبير لمعرفة
الوساطة التى يريد طلعت أن يكلفه بها . لكن طلعت قال له :

- «سكت يعنى ما قتلش آه أو لا !!»

نحى قمر البوصة جانبا وأبقاها بين أصبعيه هاتقا :

- «أنا لسة عرفت إيه اللى أنت عايزه يا بنى آدم انت ١٩؟»

قال طلعت وهو يمسد شاربه بجنو شديد :

- «أنا لى مزاج أعزم صالح هيصة عندى فى البيت يومين ثلاثة أسبوع

أسبوعين زى ما يحب !» .

- «إيه المناسبة ١٩؟»

خرجت هذه العبارة من حلقه بصعوبة لأنه نطقها فيما يكتم دخان
النفس فى أنفه فيصدر أزيزا حادا كزيق باب ريفى معصلج . قال طلعت بلهجة
كأنها شخرة استنكار :

- «..... من غير مناسبة !»

إحمر وجه قمر المحروقى وبدت رأسه أشبه برأس الجزيرة ؛ ابتسم ، فتراجع
صدغاه المصفوطان الغائران فاختلفا تماما فى تجاعيد طولية تقطعها الابتسامة
بالعرض ؛ فظهر من اتساع حنكه وبروز أسنانه البيضاء المتسقة الجميلة أن فمه
أبرز معلم فى وجهه ؛ ولشدة اتساعه تضيق عيناه ، ويزداد ضيقهما عندما يتكلم ،
وتختفيان تماما إذا ابتسم فلا يبقى منهما أثر على المحجرين إلا رموش تبريش

مرسلة رخات من البرق الحاد . هكذا اتجه بهما مائلا بجذعه كله نحو صالح
هيصة مركزا فيه نظراته :

- «تروح يا صالح ؟»

قالها بحيادية شديدة . فى خجل أشد ابتسم صالح دون أن يرفع عينيه عن
تنظيف الحجارة ، قال :

- «يا أستاذ قمر أنا يزيدنى شرف بس ...»

وأكمل العبارة بنظرة نحو حكيم . صار حكيم ينظر إليه من تحت لتحت فى
تركيز وترقب وتوجس ، ثم نظر نحو قمر :

- «طب وأكل عيشه ده ؟!»

هتف طلعت الإمبابى :

- «عادي ! حاديله يوميته كإنه بيشتغل !»

قال حكيم فى حيرة :

- «كإنه مش حيشتغل ؟ والا حيشتغل ؟»

- «لا شغل إيه ؟! ده حيقعد زى الباشا ! ياكل معانا ويشرب معانا
وينام على فرش نضيف ويأخد مصروف كمان ! وحشيشه وسجايره وقزايزه
كله علينا !»

- «بس ؟!»

- «لا أزيد ولا أقل !»

- «ما هو صالح ده أمه داعيه له ! هنياله !»

- «قُر عليه بقى !»

هكذا قال مصطفى لمعى غامزا بعينه فى اتجاه صالح كأنه بهذه الغمزة يبرم
عقدا مع المشاهدين على أنه يقصد مشاكسة صالح واستنارته ضد حكيم . بالفعل
رفع صالح رأسه قائلا فى جدية :

- «على إيه يقر ؟! ده البيه حيشغلنى لحد ما أطفح الكوتة !»

بجدية مماثلة رد عليه طلعت موضحا ما عساه يكون قد وقع فيه من لبس :
- «إطلاقا يا عم صالح ! باقول لك حتبقى ضيفى ! أشغلك إزاي وأنت
ضيف؟! ده أنت حتقعد فى البيت معزز مكرم وحتلاقى اللى يخدمك
كمان !»

- «يعنى حتشغلنى إيه ! اللى حضرتك قلته ده بيقى شغل بالنسبة لى ! وشغل
فاعل كمان !!»

- «حد جاب سيرة الشغل عندى ؟!»
- «يا بيه خلى بال حضرتك معاية ! أنا دلوقت صالح هيصا الغرزجى
مش كده ؟»

- «وحتفضل زى ما أنت !»
- «ما أنا حابقى ضيف ! كل شغلتنى إنى أكل وأشرب وأحشش واسكر
وأنام وأقوم أكل وأشرب وأحشش وأعمل الهيصا بتاعتى وأنام !! فيه
أشغال شاقة أكثر من كده بزمتك ؟! ده أنا يمكن ما أفلحش فيها يوم
كامل !»

بحر من الضحك تلاطمت أمواجه بقوة . حكيم يحمق فى وجه صالح
متمتما :

- «صنف مفترى ! حتى الراحة بتسميها شغل ؟!»
أحمد عاصم هز رأسه مقررا :
- «أنا فاهم قصد عم صالح ! عاوز يقول يعنى إنه راجل واخد على
الشغل والشقا ! وبالتالى جسمه ما بيجهش على الراحة ! فيه ناس كتير
كده !»

هتف صالح هيصا ملوحا بذراعه المبروم الصدى :
- «يا بيه مش واخد بال حضرتك ! مش حضرتك مخرج سلمائى ؟ بيقى لازم
تفهمنى ! وعلى كل حال أقولها لك بالبلىدى ! معنى الكلام إنى حاروح عند البيه

فى بيته أمثل شخصية الضيف المعزز المكرم الى مالوش أى شغله غير الأكل والشرب والتحشيش والهيصه والنوم فى الفرشة النضيفة ! حلو الكلام ؟»

- «حلو !»

- «أنا بقى عشان أمثل الدور ده كويس حاتعب قوى ! نمرة واحد عشان أنا ما باعرفش أمثل ! نمرة اتتين عشان الدور نفسه عاوز تمرين والتمرين ده كان لازم يبدأ من ثلاثين أربعين سنة فاتوا !! عشان أما اتحط ف مزئق زى ده بيبان على أن أنا صحيح ضيف محترم يستحق العزومة !!»
- «يا ابن الكا .. ا .. ا .. لب ! ده أنت حدوته !»

همس بها طلعت الإمبابى فلم يسمعها سوانا ، ثم استطرد بصوت عال :
- «ومين قال انك تمثّل ؟ بالعكس إحنا عاوزينك على طبيعتك دى زى ما أنت كده ! البيت بيتك واحنا اخواتك الصغيرين ! يعنى على راحتك خالص من غير أى تكليف !»

- «يعنى أفضل صالح هيصه زى ما أنا ؟!»

- «لا تزيد ولا تنقص !»

- «يبقى إن شاء الله لا حاكون محترم ولا معزز ولا مكرم !»

- «منين جالك ؟!»

- «من عقلى ! عشان انتوا عدم المؤاخذه لابد حتعاملونى فى بيتكم على إنى صالح هيصه مش حد تانى ! صالح هيصه الفرزجى الى عمره ما كان محترم .. فى نظر الناس الى زى حالاتكم يعنى ! .. أقصد الناس المحترمين !»

- «بس أنت ف نظرنا محترم ! والدليل على كده إننا بنعزمك عشان تيجى تعيش معانا كام يوم كام شهر زى ما أنت عاوز !»
- «كلام حلو بس ال»

يقاطعه قمر المحروقى لينهى هذا الصداغ :
- «تاهت ولقيناهما يا صالح .. ما تيجى نجرب ؟ إنت يعنى حتخسر حاجة ؟»

- «هى هى ! طبعا حاخسر !»
هكذا قال صالح وهو يدارى بسمة حرج على وجهه الشفاف ثم أستدرك ضاحكا خلال تقطيع الكلام :
- «من - جهة .. حاخسر حاخسر .. طبعا .. أمال !»

إعتدل قمر المحروقى محمقا فيه وهو على ثقة من أن وراء هذه الكلمات التى قالها صالح هيصة معنى جديراً بأن يكون عميقاً ومن المهم أن نعرفه . ذلك أن قمر المحروقى يقول لنا دائما إنه يأخذ من صالح هيصة موقف التلميذ المبتدئ فى الحياة من أستاذ صاحب تجربة محشوة بالخبرات والمعانى والحكم . قال ليستفزه :

- «حتخسر إيه يا روح ماما ؟ تقدر تفهمنا ؟!»
رفع صالح ذراعه بحركة استسلام :
- «صراحة ما أقدرش يا أستاذ قمر ! إنت كلك مفهومية بس العيب فى أنا !! اللى عاوز أقوله مانش عارف أقوله مع إنه باين قدامى خالص !! حيعوز له هيصة ! وأنا دلوقت متباع لحكيم ! يعنى مش ملك نفسى عشان أقوم أعمل هيصة ! خصوصا كمان أن احنا دلوقت عاملين أحسنها هيصة ! فخلينا فى الهيصة بتاعتنا أحسن لنا كلنا من الهيصة بتاعتى !»

- «عداك العيب يا ابو الصلح !»
قالها مصطفى لمسى ونفت الدخان فى أثرها . ران على القعدة صمت عميق لبرهة وجيزة ، قطعها صالح هيصة ناظرا لطلعت الإمبابى نظرة امتنان عميق جدا ، مدعومة بابتسامة دمتة . قال بصوته الدافئ :

— «على كل حال يا طلعت بيه أنا من إيدك دى لإيدك دى ! بعدما أخلص
الطريجة اللي ف إيدى أروح معاك مطرح ما أنت عاوز ونجرب على رأى
الأستاذ قمر ! وحكيم أهو عرف من دلوقتى عشان يتصرف بدالى يوم ولا
يومين ! »

ظهر الجذل والاغتباط على وجهى طلعت وأحمد فتبادلا النظرات
المرحة مع الباقين فى زهو وشقاوة مبهجة لكنها غير مفهومة الأسباب على
الإطلاق .

المشاعر

إبراهيم القماح عضو بارز في شلتنا الموقرة، تراه جالسا بيننا فلا تستطيع تمييزنا عنه بأى حال من الأحوال رغم أنه ليس من المثقفين بل ولا يعرف القراءة أو الكتابة من الأساس، إن كان على المظهر فهو فى كثير من الأحيان أكثرنا أناقة، نوقا وثمالة ملبس، أفخم ما تعرضه فاترينات وسط المدينة من قمصان وبنطلونات وسويترات وشروى وأحذية وجوارب وصنادل وشباشب، يدخن السجائر الأجنبية ماركة روثمان الثقيلة الحامية اللاذعة، وإن كان على لهجة الكلام فإنه أكثر لباقة من كثيرين مشهود لهم بالذكاء ووفرة الإطلاع بل والعمل السياسى الجماهيرى، يتكلم بنفس مفرداتنا المبالاة للفصحى المخففة، تشيع فى كلامه نفس المصطلحات التى نستخدمها ونفس العبارات المصكوكة البليغة سواء كانت تراثية أو عصرية. يستمتع جيدا إلى الشعر فيفهمه يتذوق صوره ومعانيه كئى واحد متذوق للشعر، إيمانه للسينما العالمية يؤمله لأن ينصحك بمشاهدة جديد مهم سيخرفش مخك خرفشة لذيدة اسمه (الزيارة) وبطله أنطونى كوين وانجريد برجمان ، أو فيلم اسمه (بيكت) أو فيلم (جانتسبى العظيم) أو فيلم (رجل وإمرأة)، وإن أنت سألته عن فيلم جديد معروض فى إحدى سينمات وسط المدينة وجاوبك بمط شفتيه اشمئزأ وقرقا، أو شوح بذراعه فى استهانة، فإن هذا يكون سببا كافيا لقناعك بعدم ضرورة مشاهدة هذا الفيلم، هو إلى ذلك نواقة للجمال النسائى بشكل يعكس نوقا نيرا.. لا تستلفت نظره أية إمرأة مهما كانت زاعقة الشكل جسداً وزينة، فى حين قد يتسمر فى وقفته مذهولاً مرددا لنفسه بصوت خافت : اللهم صلى على النبى، فإذا هى إمرأة أو فتاة عادية مرت من أمامك دون أن تخطف بصرك لكنها بمقاييسه جميلة الجميلات، فإن أعدت النظر فى طيفها

المتباعد اكتشفت أن هذا الولد يتمتع فعلاً بذوق رهيف ينم عن نفس مضيئة صافية تخلو تماماً من العكار.

قبل انضمامه للشلة كان يلفت أنظارنا، ليس بنظافة مظهره، وأناقة ملبسه فحسب، إنما إلى ذلك لاناقة ألفاظه المختارة بعناية فطرية، وحسن أدبه، واقتصاده الشديد فى الكلام إلا للضرورة فإن تكلم فلا ثثرة ولا التواء ولا ادعاء ولا مبالغة فى أى شىء، حتى أيقنا أنه ابن ناس من علية القوم أكمل دراسته العليا فى لندن أو باريس، سيما وأن وجهه يقول ذلك، وجه كالفطيرة الموردة من فرط اللهب، مدور الخدين فى امتلاء، صدغاه مقوسان تتدفق فيهما صفائح الدم الرائق، يلتقيان عند ذقن لطيفة يتوسطها طابع الحسن على هيئة غمارة كسرة الطفل الوليد، تخين الرقبة ممتلىء الصدر والكتفين، جبهته عريضة على هيئة حزمة من الأهلة تتقابل وتتجاوز تحت طبقة كثيفة من الشعر الغزير الأشقر القصير تفلقه التسريحة عند تخوم الأذن اليسرى، ويبدو الشعر مع الجبهة كأنهما قبعة تظلل عينين فانتنتين واسعتين كعيون جنيات الأساطير برموش طويلة مشرعة قامته قصيرة، مبرومة، رفيعة الخصر فى نعومة وصلابة، تأخذ فى الامتلاء والإتساع كلما صعدت إلى الصدر والكتفين، حيث تظهر غابة من الشعر المتكور فى حلقات تنفذ من عراوى القميص؛ وغابة مماثلة على الرسفين والساعدين فى يده اليسرى طوق من الفضة منقوش بالحفر كالإسورة يسمى بالإنسيال؛ أما الساعة ذات الجلد السوداء فعلى خلاف الناس يلبسها فى يده اليمنى.

منضبط فى سلوكه فى إنفاقه فى شربه، عشر حجارة مكثفة ثم ينصرف ليعود بعد بضع ساعات فيخطف عشرا، وفى مدخل الأصيل عشرا؛ حتى إذا اقترب الليل من منتصفه جاء يصحبه واحد أو اثنين من معارفه ليشرّبوا عشرات لا حصر لها.

عبثا حاولنا التكهّن بنوع شغلته صنعته وظيفته مهنته قال قمر المحروقى إن شكله يصلح أن يكون مهندساً معمارياً مثلاً فأومأ مصطفى لمعى برأسه تأييداً

لهذه النظرة، وأضاف أنه يتوقع أن يكون مهندسا للديكور على وجه التحديد يعنى من المحتمل أن يكون من بين زملاء قمر المحرقى متخرجاً فى كلية الفنون التطبيقية ، أما طلعت الإمبابى فممسد شاربه بأنامله محملاً فى الولد بتركيز لبق، ثم أعلن أنه يقطع ذراعاه إن ما كان هذا الولد مصوراتياً صاحب استديو فى إحدى الحارات، الدليل على ذلك أنه يزر على إحدى عينيه إذا دقق النظر وهذه العادة من مخلفات التعامل مع آلة التصوير لوقت طويل . وقال زكى حامد، الممثل الطالع المجتهد: إن هذا الولد - ربحوا نفسكم - من طائفة الكومبارس الحاليين بمخرج يكتشفهم، ولهذا يهتم بمظهره هكذا، وقال العقلة رسام الكاريكاتير الذى بدأ ينشر رسومه فى بعض الصحف إنه متأكد أن هذا الولد ابن لواحد من طبقة النصف فى المائة الشهيرة طبقة العاطلين بالوراثة يعنى لديهم مال يكفيهم إلى ما لانهاية ويجنبهم مشقة العمل وإلا فانظروا إلى جودة التعميرة التى يشربها وكثرة شربه وفخامة لبسه ورقة كلامه واحترامه لنفسه ، لكن شاعر العامية فاروق الجمل ضحك بمرح اسكندرانى وعينين تلمع فيهما زرقة البحر برغم اسمرار بشرته، وقال: أياً ما كان الأمر فى حقيقة وظيفته فإنه ولد لطيف مؤدب جذاب.

ولما كانت عادة التفرس فى زبائن الفرزة ومحاولة استكناه حقائقهم ومعرفة أصولهم إحدى هواياتنا التى تفوقت على هواية النميعة عند غيرنا فقد اضطررنا لسؤال حكيم عن حقيقة أمر هذا الشاب النظيف، غرضنا كله التيقن من صدق فراسة كل منا وقدرته على فض مغاليق الناس من على البعد.. تردد حكيم قليلاً، وبدا انه - لأول مرة - يعانى من عجز فى المعلومات، لكنه قال:

- «الكذب خيبة! إنما أنا اعرف من صحابه إنه بيشتغل فى التجارة حالته ميسورة يعنى! بس أهم من ده وده انه ولد زيجوريا ! بيدفع الحق وفوقه بوسه ميحبش كتر الكلام ! وجدع قوى زى ما انتوا عارفين وشايفين جدعنته مع المعفن!».

وأشار بذقنه فى حركة موروبة نحو وجيه فرحان، ذلك الذى انزوى فى ركن

بعيد فى آخر الحجرة الثانية مقعيا يسند على ركبتيه كراسة ويندمج فى شرود ليكتب من حين لآخر كلمة، إنه يكتب شعرا بالعامية المصرية، وجهه مكشوف جدا، لا يشعر بالتورط ولا ينكسف من أى موقف، كثير السلف، كثير التردد على جميع الأمكنة بحثا عن أى فرصة للتكسب بشعره، بكتابة اغنية، بعض طرائف لبرنامج اذاعى، شعارات للدعايات الانتخابية، هو مع ذلك وبكل أسف - على شىء من الموهبة لكن نفسيته غير مريحة على الاطلاق، سرعان ما يصيبك بالجزع. شىء ما فى شخصيته يمنعك من ان تكون صديقه، صحيح انه قد أشيع عنه اتصاله بالخبايا والمباحث والاجهزة الرقابية، إلا ان هذه التهمة قد طالت الكثيرين بلا استثناء حتى لم نعد نصدقها إلا بدليل مادى قوى، لم يكن هذا إذن هو السبب الذى حال دون اندماج وجيه فرحان فى شلتنا رغم انه يكتب شعرا عاميا جيدا وفيه نفس ثورى غاضب ناغم ساخط، لقد حاول ان يجالنا بقدر ما يستطيع فإذا بنا نرد له مجاملته - فى الحال - الصاع صاعين ولكننا ابدا لا ندعوه للجلوس معنا فان جاء من تلقاء نفسه - وكثيرا ما يفعل - أو دخل علينا ونحن جلوس فحازانا، فإننا نهمله تماما لا ننبه على صابر بان يدخل عليه بالبوصة عملاً بالدورة فإن فعل صابر لوحده سكتنا إلى حين، فإن كان طلعت الإمبابى موجودا فى القعدة فإنه سيمسك بوصة الجوزة بيده ويسلمها لمن عليه الدور منا متخطيا وجيه عن عمد وبغلظة، ومع ذلك يصر على ان ينبهه الى ما فعل ولكن بصيغة اعتذار مسموم، لمؤاخذه يا وجيه ا، فكأنه يقول له: قوم اقعد بعيد».

وجيه ليس ينزعج حتى إذا قيلت له هذه العبارة صراحة، بل سيفشخ حنكه عن اسنانه البارزة بابتسامة محايدة قائلا:

- «وما له ! هات لى حجارة لوحدى يا صابر!».

وقد يرغب فى الكيد لنا فيبقى ملاصقا لنا بحجارتة، وقد يرغب فى التعبير عن رفضه المقابل لنا فينسحب إلى مكان بعيد.

كثيرا ما كنت اشفق عليه من جراء هذه المعاملة القاسية التي حرت أنا نفسى فى تفسير أسبابها، أحاول علاج الآثار المترتبة على مثل هذه المواقف المؤلمة، بأن أتلف فى محادثته، أحبيه أو أرد تحيته باحترام وترحيب وحماسة، أعزمه على شأى على حجر دخان على سيجارة، فلا ألبث حتى ادفع الثمن باهظا، أفاجأ ذات ليلة فى الثانية صباحا بعد منتصف الليل بصخب مدو فى البوابة العمومية للبنسيون المسمى بفندق أميريال فى شارع رمسيس حيث أسكن فى غرفة فى أحد أجنحته بالطابق الثانى.. يأتينى الصخب قادما من المنور المحاذى لسلم الخدم المجاور لشباك غرفتى، أسمع اسمى يتردد فى الصخب، أتوجس خشية ان يكون وفد من بلدتى قد أتى ليليل يطلبنى لفجئية، ثم تحدث قلقلة بوقع خطوات كثيرة تصعد السلم العمومى مصحوبة بأصوات برطمة وصيحات احتجاج وتهديد، ثم ينفتح باب الجناح الذى تقع غرفتى فى منتصفه مطلة على ممر ضيق، ثم يطرق باب غرفتى، فأنزع جسدى عن السرير وافتح الباب، لأرى الممر الضيق ملأنا بالبشر، امين فيهم فراش الجناح، والخفير الحارس، وموظف الاستعلامات ووجيه فرحان، وفتاة سنكوجة شكلها مدموغ بالتسكع والبؤس الشديدين.

- «فيه إيه يا جماعة ؟ إيه يا وجيه؟!».

يتقدم موظف الاستعلامات ملوحا بغیظ:

- «الأخ ده عامل لنا دوشه من الصبح ! عاوز يطلع لك بالبنت دى على

الأوضة ! واللى طالع عليه طب قولوله بلغوه!».

يصيح فيه وجيه فرحان بانفعال يوشك على الشروع فى الضرب:

- «احترم نفسك! قلت لك البنت دى تبقى مراتى! إنت مابتفهمش؟! أدى

قسيمة الزواج اهه يا بنى آدم عشان تصدق!».

وقلب فى ملف يتأبطه ليل نهار، حتى انتزع منه وثيقة زواج رسمية، صار

يلوح بها فى وجوهنا:

- «أهه ! أهه ! أهه ! أحطها فى عين التخين! ما بتصدقوناش ليه؟! والا يعنى عشان مظهرنا متواضع؟! ده مش ذنبنا يا استاذ! ده ذنب اللى ما يتسموش وانت عارفهم كويس! معدناش لاقيين الا.. ما تخليناش نفسر أكثر من كده!..»
شوح موظف الاستعلامات فى حركة يائسة تعنى انه قد رمى الليلة بمخلول معتوه لن تفوت ليلته على خير، وعاد فنظر لى فى ضراعة، فنظرت بدورى الى وجيه فرحان وشرر الغضب يتطاير من عينى:
- «يا بنى آدم انت مالنا احنا ومال كل اللى قلته ده ؟
ثم انت جاي لى فى الوقت ده ليه؟! أنا مالى ومالك أصلاً؟! إيه قلة الذوق دى؟!».

- «يا سيدى الفاضل حلمك شويه انا الليلة عقبال عندكم جميعا عريس لسه كاتب كتابى وجاى! مالفيتش حد يحتفل معايه بالفرح! ولقيتني فايت من هنا! تذكرت إنى لى فى هذا البنسيون اخ عزيز وزميل فى شرف الكلمة!
قلت فرصة أبلغك الخبر تفرح معايه! وبالمره نقعد معاك لحد الصبح ! ولو عاوز تنام يا سيدى نام وسبنا قاعدين مش مشكلة ! وإلا يبقى على الدنيا السلام!».

ضاق صدرى وصبرى انسحبت قائلاً:
- «اعتبر ان على الدنيا السلام خد الست بتاعتك واتكل على الله! وثانى مرة لازم تعرف ان ده ممنوع هنا!».
وأغلقت الباب وعدت إلى السرير، صرت أتلذذ بصوت الخفير وهو يجعر فيه بلهجة صعيدية: ما تفركش معاى؟

وانسحبت الخطوات الثقيلة حتى غابت. العجيب اننى فى اليوم التالى مباشرة التقيته فى الغرزة.. فرد على تحيتى بابتسامة كأن شيئاً لم يكن، يومها نبهنى حكيم إلى ان بنتا سنكوجة تنتظر «صاحبك» على كرسى فى الحارة. ثم تطور الأمر بعد ذلك الى جلوسها معه داخل الغرزة، إلى ان شعر حكيم ذات يوم

بالحرج من منظرها فدعاها للدخول الى القاعة الجوانية تجلس مع عياله ، فإذا
بهذه الدعوة تغازل نكاء ابراهيم القماح وروحه الساخرة المرحة، فإذا هو يعلق
على هذه الدعوة قائلاً بغمزة من عينه الجميلة:
- «كده تبقى ضمنت حقك!».

فنضحك ضحكة صاعقة، لاننا نعرف الطقس اليومي المعهود فبعد دقائق
معدودة سيشتعل العراك بين حكيم ووجيه فرحان بسبب الحساب كل منهما يتهم
الأخر بأنه يغالطه، وفي النهاية وبعد المناهدة ووجع القلب يتضح ان ما تبقى مع
وجيه من حطام الدنيا لا يفي بكامل الحساب.
وفي النهاية ودائماً ابدا يضع ابراهيم القماح كفه العريضة على صدره
البارز العريضة في اريحية وهو يوميء برأسه لحكيم بما يعنى أن حساب
الشاعر عنده.

كان ابراهيم القماح هو الوحيد فى شلتنا الذى لم يكن حكيم واسطة التعارف
بيننا وبينه. إنما التعرف جاء تلقائياً فذات عصرية خريفية رقيقة النسما جاء
فوجدنا مرتصين فى الحارة تحت شبك الغرزة، ولصقنا كرسى شاغر.
نظر داخل الغرزة فوجدها مزدحمة بكثير من الواغش، فألقى علينا التحية
بابتسامة دمة خجولة مشيراً بعينه إلى الكرسى الشاغر فى صيغة استفهام عن
وضعه . فأومأنا له هاتفين فى نفس واحد: تفضل.. جلس لا يفصلنا عنه سوى
سنتيمترات قليلة ، كنا قد شربنا كفايتنا وتكأنا فى الانصراف أملاً فى مجيء
الولد توحه بتعميرة جديدة قيل إن اسمها البودرة الزرقا، وماركتها: هلت
ليالى القمر، جاءت الحجارة لابراهيم فانبرى فى التقطيع ، بأظافره لا بأسنانه،
من كلكيعة كالليمونة فى كفه واضحة المرونة تكاد ترى شعيرات قلبها الاخضر
تعميرات سخية مبططة تغطى الحجر كله . جاء صابر بالجوزة ومصفاة النار،
وحين مد الوصة لابراهيم مد هو ذراعه فأزاح البوصة نحونا فيما يرمى صابر
بنظرة تأنيب كأنه يقرعه بقوله:

مش عيب؟ فإزاح صابر الصفيحة التي يقعد فوق قعرها حتى توسطنا قائلا:
إبراهيم بيه بييمسى.. شكرا يا بو خليل ألف شكر ، وشرينا بلا تردد فلما جاء
دوره ليشرب زحزح الكرسي قليلا فصار جالسا معنا، ومنذ تلك اللحظة وهو عضو
بارز في الشلة، ولولا أن العين لاتعلو على الحاجب لكان هو عميد الشلة بغير
منافس.

إلا أننا بعد ذلك اللقاء بيومين، وفيما نحن جلوس فى نفس المكان فى الحارة
تحت الشباكين نتفرج باهتمام مفعم بالغبطة على قصيدة لفاروق الجمل منشورة
فى مجلة صباح الخير على صفحتين كاملتين مع لوحة بديعة لأحد رساميها
الكبار وأوشكت بجمالها أن تصرفنا عن قراءة القصيدة، إذ طب علينا إبراهيم
القماح كاعتياد تلقائى هم بدخول الغرزة لكنه غير وجهته فى الحال واقترب منا.
سلام عليكم، أهلا يا إبراهيم صافحنا باليد واحدا واحدا ولا بد أنه استشعر
حرارتنا فى الترحيب به فسحب كرسيه وجلس معنا لاحظنا أنه أخذ للصمت وبدأ
كأنه لا يريد التطفل علينا أن يقتحم اهتمامنا بما نتفرج عليه فى اهتمام ، فما كان
من قمر المحرقى إلا أن قرب المجلة مفردة من إبراهيم مشيرا بذراعه نحو فاروق
الجمل قائلا:

– «صديقنا فاروق الجمل! ودى قصيده من تأليفه!» توهج الدم فى خدى
إبراهيم وصدغيه؛ تألق الضوء فى عينيه بنظرة تقدير واغترباط أبرقها إلى وجه
فاروق ثم هز رأسه بابتسامة فرحة:

– «أهلا يا بيه! إحنا زادنا شرف! طول عمرى باحب الشعر والشعرا مع إن
حالتهم دايمًا تصعب على! كان نفسى ومنى عيني أطلع شاعر زى أحمد رامى
اللى بيألف أغانى أم كلثوم ! قلبى مليان كلام بس المشكلة إنى ما عرشف
أوزنه!».

تبادلنا نظرة ذات معنى؛ ترجمها طلعت الإمبابى فى تعليق بصوت محايد:
– «كسبنا صلاة النبى!».

ثم تراقصت همزات الشياطين على صفحة وجهه كإعلانات النيون تضي وتتنطفئ متقلبة بين الأخضر والأحمر والأصفر والأبيض كل ذلك فى جزء من الثانية، ثم إنه سحب المجلة من يد قمر المحروقى وقدمها لإبراهيم فى احترام شديد الشيطنة؛ قائلا كأنه يخاطب أستاذه المشرف على رسالته للماجستير:

«إنفضل حضرتك اقراها عشان تقول لنا رأيك! لأن رأيك فى الحقيقة يهمنى جداً!».

إزدادت قتامة الدم فى وجه إبراهيم كأنه بسبيله إلى الإحتراق التام، تلبسه صمت طفولى غاية فى البراءة والحزن الصادق مع نفسه قال فى حسرة تمرق الأكباد:

«ياريت يابيه! أنا مع الأسف الشديد ماباعرفش أقرأ ولا اكتب! بامضى اسمى بالعافية! واعرف اكتب الأرقام بس! وممكن اجمع واطرح واضرب لكن فى النهاية دماغى هو رسمالى!!».

صرنا كعرائس الماريونيت إنفكت خيوطها الخفية فانبطت متربعة فى أماكنها مخلفة صدئ مكتوما، لاندري كم من الوقت مضى علينا ونحن هكذا؛ إنما أفقنا على مصطفى لمى - الذى كان ملاصقا له فى القعدة - يتلقى منه بوصة الجوزة ويسأله بصوت دافئ:

«إنما أنت بتشتغل إيه يا إبراهيم؟».

فانتبهنا جميعا ناظرين إليه فى رجاء وشغف فإذا هو يبتسم قائلا فى بساطة من يعتز جداً بمهنته:

«منظم قُتارين!»

«منظم إيه؟!».

هكذا تساءل فاروق الجمل، فتكفلنا جميعا بالرد عليه فى تأكيد وتفخيم:

«قُتارين!»

«يعنى إيه؟!».

ومط طلعت الإمبابى بوزه وهز كتفيه كئنه يعترف بغيبائه فضحك إبراهيم القماح ضحكة مهذبة قصيرة وقال كئنه يعتذر:

- «هى على كل حال شغلة مش معروفه لكنها موجودة من قديم الأزل! وياما فيه مهن كتيره فى الحياه محدش يسمع عنها مع إن اصحابها واخدين فيها الدكتوراه!».

شوح قمر المحروقى يذراعه الطويلة صائحا بلهجة فيها الكثير من التقرير:
- «مستغربين على إيه؟ المهنة واضحة من اسمها!».

فالتفت إليه ابراهيم القماح:

- «بس مش واضحة قوى!»

- «طب ما تتفضل توضحها لنا!»

نظر إبراهيم إلى فاروق الجمل شاكرا دعوته، ثم وجه نظراته إلينا:

- «على فكرة! تنظيم القتارين ده فن وهندسة مش فتاكة! مش أى واحد يقدر

ينظم قاترينه حتى لو كان مهندس ديكور!»

قال الممثل زكى حامد بلهجة تضرع الاستخفاف:

- «أى قتارين تقصد؟!».

قال إبراهيم:

- «عموم القتارين! قتارين المحلات! أقمشة! أحذية! خردوات! ملابس جاهزة!

أدوات كتابية أدوات صحية أى شئ يتعرض للبيع! القاترينه هى واجهة المحل!

عنوانه يعنى لازم تكون مترتبة بطريقة علمية فنية مدروسة! لازم اللى فايت على

القترينه يقف غصب عنه ويتفرج! دى أول حاجة تهمنى قبل ما تهتم صاحب المحل!

وقف الزبون خلاص؟ حيتفرج على إيه بقى؟ الأصناف اللى يبيعه المحل! الموديلات

الجديدة مثلا إزاي نعرضها بشكل يغرى الزبون ويشجعه يدخل يشتريها؟! إزاي

نخلى الموديل يلبس القميص ولا البلوفر ولا الفستان ولا البدلة وإزاي نوقفه

بزاوية معينة تبين شياكة البدلة؟! إزاي تخلى جوز الجزمه زى العروسة فى

الفترينه؟! لابد من حاجتين فى منتهى الأهمية: الجمال فى شكل العرض عشان يجذب ويريح العين! الحاجة الثانية إن الفترينة تتسع لأصناف كثيرة! وللعلم بقى! أحيانا كتير تكون البضاعة فالصو لكن الشياكة فى عرضها تخلوها تبان على أعلى مستوى!»،

وضع الاقتناع على وجوه طلعت وقمر ومصطفى وزكى وفاروق، وكان اقتناعا مصحوبا بكثير من الإعجاب والتقدير قال قمر وقد أسقط عينيه فى محجريهما: - «مش ممكن!! الدنيا فيها حاجات كتيره لسه مانعرفهاش مع إنها قدام عيننا!»

وقال مصطفى لمعى:

- «دى على فكرة علم بيدرسوه فى أوروبا فن العرض!»،

وقال طلعت الإمبابى:

- «لكن تفكر إن دى شغله مربحه يا أخ إبراهيم؟»

لوح إبراهيم برأسه ويده بما يعنى أنها تدر خيرات كثيرة، ثم أضاف:

- «كل فتارين وسط البلد أنا اللي بانظمها ويانسقها! ومتتناساش أن احنا

قليلين يعنى ما نزيدش عن خمسة ستة فى كل مدينة! وكمان مش أى صاحب محل يعرف يوضب فترينته!»،

سأل زكى حامد:

- «والفترينه تتوضب فى قد إيه وقت؟»

- «ممكن يوم! أحيانا يومين إذا كنا فى وسط السيزون وعايزين ننشط

موديلات جنب موديلات! أما تأسيس الفترينة نفسه! يعنى الافتتاح لأول مرة أو

لبداية سيزون جديد فده ممكن يا خدله عشرة اتناشر يوم!» .

صار مصطفى لمعى يرمى زكى حامد بنظرة يطل منها رمق من الخبث الطيب

ناغب، أوضحه بسؤال وجهه إلى إبراهيم القماح:

- «لكن قول لى يا أخ إبراهيم! مالكش أى علاقة بمكاتب الكومبارس؟!»

فكأنه اتهم زكى حامد بالغباء وضيق الأفق لأنه سبق أن أكد بثقة أن إبراهيم هذا ليس إلا كومبارسا ، ضحكنا بالعرض على النواجز فحسب ، وقال ابراهيم :-
« أنا جربت كل حاجة! واتمنيت أكون حاجات كتير جدا إلا شغلة السيما دى عمرى مافكرت فيها أبدا ولاخطرت على بالى! رحم الله شخصا عرف قدر نفسه! الرياضة مثلا حققت فيها بطولات على مستوى الأندية! ».

- «بطولات فى إيه مثلا؟!»

سأله طلعت باهتمام فقال:

- «الملاكمة! لعبت فى النادي الأهلى!»

- «وبطلت ليه طيب؟ مادمت حققت بطولات؟!»

أشار إبراهيم إلى أنفه ضاحكا:

- «مناخيرى اتكسرت ثلاث مرات! والفك اتعوج مرة وكانت مصيبة! وخذت لى خبطتين فى عيني كانوا حيعجزوها! اللى بيلاعبنى دائما كان بيحب يضربنى ضرب غيظ عشوائى بقصد أنه يضرنى ويس! لأنى كنت متمكن من الضرب الفنى المكار ولانم أفوز بالقاضية حتى ومناخيرى مكسورة!! وفجأة لقيتني اتمليت بالحقد من كثر الإصابات! وكل مباراة أروح لها كئى رايح اتخانق ياقاتل يا مقتول! شئ! إلهى قال لى ماتسيبك يا أبوخليل من اللعبة العنيفة البايخة دى؟ وتأكد لى إنها ضد طبيعتى! مش ماشيه معايه! ولأجل النصيب خدت لى ضربه فى معدتى نيمنتى شهرين فى الفرشة وكانت دى آخر مباراة لعبتها فى حياتى من ثلاث أربع سنين!!».

مازحه قمر المحروقى، المحب دائما لأن يكون البساط أحمديا .. إلى أقصى حدود رفع الكلفة:

- «بس أنت باين عليك عجوز قوى يا إبراهيم مع إن شكلك عيالى قوى!!».

ضحك ابراهيم بأريحيه:

- «أكبر واحد فيكم ما يزيدش عن ثمانيه وعشرين سنه مش كده؟ أنا بقى النهارده أبقي أكلت ثلاث تشهر كاملين من الثلاثة وتلاتين!».

داعبه مصطفى لمعى برقة ووداعة:

- «بس باين عليك حشاش قرارى!»

- «تعرف أنا بأجى الغرزة دى من إمتى؟ من عشرين سنه فاتوا!! كان سنى

انتاشر سنة لما بدأت أحشش فى غرزا! وأول غرزة دخلتها فى حياتى كانت غرزة

حكيم أيام ما كانت وراء الغرزة دى قرب شارع معروف! لفيت على قد ما لفيت

ورجعت لها تانى».

علق طلعت ساخرا:

- «من فات قديمه تاه!»

إعتدل قمر المحروقى يبريش باحثا عن عينيه خلف جفونه المكرمشة:

- «سك انتشار سنه وعرفت تيجى الغرزه دى لوحدها؟ الى ما بيجهاش غير

العتاولة؟! ده أنت على كده واعر من يومك!».

- «بالعكس! تعرف مين الى جابنى هنا؟ صالح هيصه! أيو الله! قابلته فى

الشارع صدقه! قال لى رايح فين يا ابراهيم؟ قلت له صراحه يا عم صالح نفسى

اشرب حجرين حشيش راح جايينى على هنا! وراح اشتري لى الحشيش بنفسه!

ومن يومها أدمنت غرزة حكيم كرامة لصالح هيصه!».

- «يعنى أنت كنت بتعرف صالح هيصه من الاول؟!»

هكذا سألته طلعت! فشوح إبراهيم بذراعه إلى الورا:

- «أعرفه من وأنا سنى خمس سنين!»

- «منين بقى؟!»

سألناه فى نفس واحد، فقال ببساطة:

- «ماهو عم صالح هيصه ده هو الى كان بيدربنى على الملاكمة من أول

الطريق!! هو الى علمهالى أصلاً!! حبينى فيها! ودربنى على أعلى مستوى!!»

- «صالح هيصه بتاعنا ده؟!»

- «أيوه صالح هيصه ده! إيه الغرابه فى كده؟!».

تجمدنا لبرهة وجيزة سرعان ما انفجرنا بعدها فى ضحك هستيرى عميق
مسح طلعت الإمبابى دموعه بمنديل حريرى يحشره فى الجيب الخلفى لبتطلونه
الچينز:

- «وايه علاقة صالح هيصه بالملاكمة ياجدعان؟!»، فى اندهاش عظيم صاح
إبراهيم القماح:

- «إيه علاقته ازاي؟! دى كانت شغلته الرسمية ف يوم من الأيام: مدرب
ملاكمة!».

- «مش ممكن! جنون! جنون! جنوون!».

هكذا ردد قمر المحروقى بعد أن خبط جبهته بكفه خبطة صكت أذاننا
واستدرك إبراهيم القماح:

- «الظاهر إنكم ماتعرفوش عم صالح كويس! طبعاً لأنكم عرفتوه من هنا
بس!».

- «طب كلمنا عنه شويه وحياة والدك!»

ترجاء طلعت الإمبابى فبلهجة تقريرية تخلو من أى محاولة للإثارة قال
إبراهيم:

- «عم صالح هيصه فى الأصل بطل ملاكمة ! واخذ بطولة مصر سنة سبعة
وأربعين! وثمانية وأربعين كان مجند وخلص التجنيد واتعين عسكري شرطة! وكان
نادى الشرطة واقف له على رجليه عشان يواصل التمرين كل يوم!! أصل ده
حدوته طويلة وأنا مش فاضى دلوقتى! يوووه!!».

وقف قمر المحروقى نصف وقفة هاتفا بإبراهيم القماح أن يحدثنا عن صالح
هيصه، أن يقول لنا كل كبيرة وصغيرة يعرفها عنه. إعتذر إبراهيم بأن الحكاية
أطول من قصة أبى زيد الهلالي سلامة وربما أهم؛ يلزمها وقت ورواق، ليس لكثرة
أحداثها فحسب وإنما لأن من يحكيها لابد أن يجد متعة ولذة فى حكيها بحيث
يستمتع إليها وهو يحكيها ليتعلم منها ما فاتته أن يتعلمه من صالح هيصه.

حلفه طلعت بتربة أبيه ، ووقع قمر فى عرضه كاد يقبل يديه؛ ونصحه مصطفى
لمعى بالآ يستندل معنا فى هذا الموضوع بالذات، ولوح له فاروق الجمل بأنه يتوقع
قصيدة ملحمية عن صالح هيصة، واكتفى الممثل زكى حامد بإيتسامة ملق – ربما
لأول مرة فى حياته – ونظرة تودد ركزها فى عينيه. إلا أن ابراهيم القماح طمأن
خواطرنا بأنه شخصيا يجد لذة كبرى فى مسك سيرة صالح هيصة؛ وأنه أكثرنا
اشتياقاً لها سيما وأنها هى التى ربطته بهذا المكان، كل ما فى الأمر أنه الآن
مربوط بمواعيد شغل لايجرؤ على فرقتها، أما إن تواجدنا فى السهرة
هاهنا فسنشاهد فيلم صالح هيصة دون رقيب سمج يقص منظرا واحداً من
شريطه .

ابن ليلة القدر

أنشط صبيان غرزة حكيم هو الولد صابر العسال: ينطبق عليه وصف الشطر الشعري الشهير؛ لولا مخاطبتى إياك لم ترن ، ولكن لأن صابر العسال قليل المخاطبة، يعرف حدوده كصبي غرزة ويلتزمها بكل صرامة فلا يتدخل فيما لا يعنيه ولا حتى فيما يعنيه إذا كان المتكلمون هم سادته المكلف هو بسقيهم. سادته هؤلاء ربما كانوا جرابيع مثله لا أصل لهم ولا فصل بل ربما كانوا من أولاد الحثة الصياح؛ إلا أنهم بمجرد أن يجلسوا ها هنا طالبين الحجارة، وبمجرد أن يقعى أمامهم على الأرض ممسكا بالجوزة ومصفاة النار؛ يصيرون فى الحال سادته فلا يحق له أن يهزر معهم أو يشرب حجر إلا بإذنهم، ذلك لأنه نشأ هكذا واكتشف بالتجربة أنه قد أراح نفسه من وجع القلب.

نحن أحيانا نكاد لا نراه مطلقا أو ربما نتساعل عنه فيما هو مقع أمامنا على الأرض يسقيننا، انه مجرد طيف، كتلة من سحب الدخان المتدفق من نافورتين فى وجهه، فمناخراه لا يكفان عن طرد الدخان الكثيف من عمق النفس الذى يشده فى التنفيض وراء الشاربين أو المراجعة للتأكد أن الحجر قد انتهى إدامه ، كثيرا ما يشد الواحد منا أعمق الأنفاس وأطولها إمعاناً فى الكيد لصابر - هكذا لله فى الله- حتى لا يجد ثمالة فى قعر الجوزة ينفضها، فإذا هو يطبق على البوصة بشفتيه المحروقتين فتومئ لنا سحب الدخان الكثيفة أن الحجر لم يكن قد نفذ وأن صابر - ربنا يعطيه الصحة - هو الذى أشعله واستلب صلب قوامه ورحيقه.

ما رأينا فى حياتنا شبحاً بهذه القوة التحشيشية المذهلة مثل ذلك الشبح المسمى بصابر العسال. كنت كثيراً ما أضطر للبس منظار القراءة المقرب المكبر لكى أتبين ملامحه وقسمات وجهه فى لحظة من اللحظات التى تخلو من الزحام، من الضحى إلى القيالة سيما وأنه مخصص لنوع معين من الزبائن، نوع الشلل

و«البرتيتات»، من مستوى خمسين حجراً فما فوقك ! فمثل هذه الشلل تحتاج ولدا فوريجياً متودكا صاحب مزاج يعرف كيف ينقل صهلاته الذاتية إلى الجوزة التي يمسك بها ومنها إلى الزبائن فتسهلُ طالبة المزيد والمزيد، ثم إن مسكة الجوزة فى حد ذاتها صنعه، بحيث يقعى الولد على مسافة تسمح للشارب أن يشد النفس براحته وهو مفروود الصدر مستقر فى قعدته لا أن تكلفه الإنحاء والعناء فى الشد، ناهيك عن التعامل مع الجوزة تسييخاً وتنظيفاً مستمرا.. تلك كلها مسائل فى أصول الصنعة يعرفها صابر جيداً ويحقق شعاره الذى يرفعه دائماً.. حجّرين أوبرك من عشرة ، بمعنى أن حجراً واحداً مخدوماً جيداً يمكن له وحده أن ينعش مزاجك يفتح شهيتك للشرب وقد يغنيك عن مائة حجر غير مخدومة.

مع ذلك فإن كنت وحدى فى الغرزة لسبب من الأسباب فإننى أفضل أن يسقىنى ولد آخر غير صابر لأن الأخير سوف يأخذنى قشقة، سيسقىنى - قدرت أو لم أقدر - خمسين ستين حجراً فى بحر نصف ساعة على الأكثر.. لا ياعم، يفتح الله؛ فليجلس بجانبى كصديق يشاركنى الشرب على مهل يتناسب مع إيقاعى المزاجى وقدرة رئتى، حينئذ يتكور صابر على نفسه فوق المصطبة؛ حتى فى عز الصيف، إذ الواضح أن طول تكوره فى البرد شتاءات عمره كلها قد عوده بل صبّه فى هذه القعدة القنفذية إذ يكاد يدفن رأسه بكتفيه النحيلين بين ركبتيه المكسورتين، يطيب لى أن أتقرس فى ملامحه، أقصد بقايا ملامحه المسووحة تماماً كالللم البرونزى الماسح الضائعة فى خدين غائرين وصدغين مصفوطين حتى ليبدو حكنه كقنطرة ممدودة على بركتين جافتين، ويبدو أنفه النحيف كجسر وهمى بين هديمين فكان وجهه خريطة صفراء تهرأت ولبت أطرافها وثنيات تطبقها ، ومع ذلك لا تزال تعتبر وثيقة تسجيلية ، الهديم الذى دب فى حى معروف منذ أواسط القرن وبأى أبنائه مفادته حتى لو جئ لهم ببلدورز الحكومة يكسحهم كل بضعة أشهر ليفاجأ بأنهم نبتت رءسهم من قلب الهديم وتناولت قاماتهم.

أحملك فى عينى صابر؛ أراهما ناعستين على الدوام وإن كانتا مفتوحتين،
يلفهما جسران متقابلان من عماس لزج؛ تجرى من تحتها عوامتان
سوداوتان فى بركتين دقيقتين من مياه زرقاء راكدة، ولكن برغم جريان هاتين
العوامتين الدقيقتين فإن العينين تبدوان ميتتين من عبء السهر الطويل المتصل
ليله بنهاره.

الولد مجرد لقب يطلق عليه فى محيط المهنة فحسب أما هو فعمره لا يقل عن
خمسین عاما بأى حال يعنى أكبر من صالح هيصة ببضع سنوات. مع ذلك
فجميع المترددين على هذه الفرزة وجميع أبناء حى معروف يخاطبون صابر
بقولهم: واد يا صابر فى حين يخاطبون صالح هيصة بقولهم: عم صالح بالتاكيد
ليس لأن هذا شعره أبيض كله والآخر شعره منحول مجرد تحت الطاقية الصوف
الكايسة على أذنيه وجبينه؛ أو لأن صالح ضخم الجثة عملاق أما صابر فسفروت
ضئيل الحجم يصعب تثمينه أو اختبار عمره على وجه التقريب؛ إنما الفیصل هو
الکیان الإنسانى نفسه؛ فصالح هيصة رغم ثيابه الرثة ومظهره الزرى تشع منه
هبة فطرية تفرض عليك احترامه فى الحال، ربما لأنه يجسد لك من أول وهلة ذلك
النموذج المعنوى الشهير بـ: عزيز قوم ذل؛ بينما صابر بطبيعته نموذج للهزأة
المهزار المدبر للمقالب الصامته الخبيثة الكاسرة لأى تعيس غبى يقع فيها؛ ثم إنه
شغوف بلقب الولد تيمنا بشريعة الله القائلة بأن كل مولود ولد، كما أن لقب الولد
يرضى ميوله الخفية نحو المعيلة المكبوتة وشقاوة اليتامى وعفرتة اللقطاء سيما وأنه
فى طفولته قد أصيب بالنكبتين معا فكانا لقيطا ویتيما معا.

نوع ما من المودة كنا نلاحظه بين صالح هيصة وصابر العسال، ربما أعمق
من المودة التى تربط بينهما معا وبين حكيم صاحب الفرزة، لامانع لديهما، صالح
وصابر، من التصريح بذلك جهراً أمام حكيم. كما أن حكيم نفسه يعرف هذا،
وحين يسأله قمر المحروقى عن السر يترك ابتسامته المحبوسة بين شذقيه تقاوم
الحبس تخطط للهرب فيفرج عنها قليلاً بالكاد حتى بوابة الشفتين المزمومتين ثم .

يقبض عليها يردها إلى الحبس هاتفا كأنه يحيى واحدا من أهم المبادئ التى تربي عليها فى الصعيد ويحترم كل من يرعاها:

- « أصلهم بلديات! ولاد حته واحدة! مولودين فى بيت واحد! كانوا بيلعبوا مع بعض وهما عيال! ».

تكون ابتسامته الشقية قد أصابها الهياج خلف زنزانة الخدين فراحت تطل من شبابيك العينين تريد أن تفصح شيئاً يفشل هو فى إخفائه، يستثار فضولنا يستطرد حكيم كأنه يكمل كلامه متجاهلا الإبتسامة التى طفشت منه وراحت تبرطع على جميع أنحاء وجهه:

-«الله أعلم كانوا بيعملوا ف بعض إيه وهما صغيرين! إن الله حلیم ستار!»،
ثم يفلح فى اصطياذ الإبتسامة واعتقالها، حينئذ تهدر الضحكة مجلجلة فى صدر صالح هيصة؛ وفى هدوء ورصانة يرنو إليه بنظرة ذات إشعاع سيادى فطرى؛ وينبرة أسيفة خلال الضحكات الهادرة الأسبانه:

-«والله ما حد عمل فى صحيح إلا انت! إنت اللى فضيت بكارتى صحيح! ضحكت علىّ واغتصببتنى خليتنى أخدمك بالمجان! أه بس لو افوق لك شويه وأحاسبك من أول وجديد! بس المشكلة يا اسيدنا إنى كل ما أجي أفوق أعمل هيصة! لكن معلش أنا وانت والزمن طويل! حابيعك الأرض اللى فى الصعيد كلها! ».

على وجه صابر تنهار القنطرة الرابطة بين بركتى الخدين الغائرين؛ تظهر الأضلاع الحديدية الصدئة على هيئة صفين من الأسنان المسودة، فنعرف تلقائيا أنه يقصد إلى الضحك إلا أن أنفاسه التى استلبها شد الأنفاس من الجوزة لا تساعده على إصدار صوت للضحك، إذ هو بالكاد يقوى على تصويت الكلام بنبرات مرتبكة متقطعة الأوصال. ها هو ذا يمد ذراعه المعروقة ملوحا بها بجوار أذنه مما ينبهنا إلى أنه يحلف بساكن السماء العلى القدير مؤكداً أن:

«حكيم ده.. عمره ما حيورد على جنة! مضانى أنا وصالح على الورقة فى غمضة عين!! خد منابى ومناب صالح بتراب الفلوس!».

«بس ما تقولش فلوس يا صابر! فلوس إيه؟ هو اللي دفعه ده فلوس برضه؟!».

هكذا هتف صالح وهو منهمك فى تعسيل الحجارة؛ ثم أضاف موضحاً بأصبعيه الكبيرين:

«كل واحد ثلاث ملاطيش عمى!».

«أنا حتى ما قبضتهمش! وكغنى بيهم أفيوز! أصله كان تاجر أفيوز بالبوستة أول ما جه من الصعيد شاد «اللبان بتاع المركب!».

وكان يهم بأن يقول شيئاً آخر لولا أن مصطفى لمعى استوقفه بإشارة من يده فى حركة مراجعة:

«لحظة واحدة! يعنى عاوز تفهمنا إن الفرزة اللي احنا قاعدين فيها دلوقت دى كانت بتاعتك أنت وصالح؟!».

قال صابر فى زهو وقد مطّ رقبتة لأعلى:

«طبعاً! إسأل أى واحد فى معروف يقول لك!»

إستدرك صالح:

«إحنا وناس تانيين معانه! بس هو اشترى نصيبى ونصيب صابر بس!

المساحة دى كلها من أول الباب لحد الهيصة اللي جوه ! كانت شقة ثلاث أوض!

صابر وارث أوضه! والويه بتاع الفجل اللي على ناصية الشارع دى كانت عاملة

لها دروه فى الصالة! إيه رأيك بقى إن الوليه دى هى اللي عرفت تنحنحه

وتأخذ حقها تالت ومملت؟! إنما أنا وصابر يا حسرة علينا سبنا له الجمل بما

حمل!!» طفشت الإبتسامة نهائياً من جميع أنحاء وجه حكيم؛ فترك هروبها

خفقانا شاحب اللون فى بشرته المدبوعة ؛ ثم شسوح بذراع هازا رأسه فى

أسف:

« تقولش خدت الملك بتاع أبوهم؟! دول كانوا حيا الله مولودين فى البيت ده!! أبو ده وأبو ده كانوا مأجرين من واحد مستأجر قديم! صاحب البيت الأصلي مات ومالوش ورثة!! البيت اتشرك والحكومة أمرت بإخلائه! إالى كان معاهما عقود إيجار قديمة خدوا بدالها فى المساكن الشعبية!! اللى مأجرين من الباطن الحكومة قالت مالكمش عندى زى البنك الدولى ما قال لعبد الناصر!! البيت كان على شقتين كبار! أربع تدوار فوق بعض ما فضلش منه غير صحابنا دول فى الشقة دى فى الدور الأرضى! عايشين متهددين كل ما تفوت عربية فى الشارع الجدران ترقص والسقف يسقف لها على وحدة ونص!! يعنى لو ماتوا تحت الردمة مالههم ديه لأن الحكومة طاردهم! جيت انا رحمتهم وبنيت بفلوسى أبقى أستحق الشكر ولا المذمة؟!»

ضحكتنا. قال طلعت الإمبابى فى سخرية واضحة:

«لا والله عداك العيب! تستحق الشكر طبعاً!» وسأل قمر المحروقى:

«لكن إيش عرفك إن صاحب البيت الأصلي مات؟ مش جايز تبص تلاقيه

طالع لك من تحت الأرض؟!».

وقعت الإبتسامة مية قبل أن يدركها حكيم فراح يفركها مع كومة المعسل فى صينية كبيرة حيث يقص أوراقه وينعمه ليتمكن صالح من رصه على الحجارة بسهولة واقتصاد:

«صاحبه مين بقى؟! أصله كان من بلدنا وكنت باجى ازوره هنا وأنا صغير!

وكنت عارف خباير البيت كله أول بأول! وجيت وأنا مالى إيدى!! ولو كان راجل بقى يطلع لى من التربه!!»

قال مصطفى لمعى:

«مايقدرش طبعاً! يخاف منك!»

وقال فاروق الجمل:

«إنما أنت كنت صغير فى يوم من الأيام يا حكيم؟ كنت طفل يعنى؟!»

علق طلعت الإمبابى:

«حكيم ده طلع شيطاني زى ما هو كده!»

ضحك ولاء الدين كاتب القصص المنتسب إلى الشلة بحضورها مشى
كقصصه الحداثية المفرغة من المشاعر؛ وأشار نحوي:

«أنا وهذا العكروت نعرف حكيم منذ عشر سنين وهو لم يتغير! فاكرك؟ كنا
بنيجي نشترى منه كل واحد بوسنة أفيون بشلن! حكيم ده هو اللي شجعنا على
الهياب الاسود ده!!»

قلت في تأفف لأدارى كذبتى المفضوحة:

«الحمد لله رينا تاب علينا منه!»

وكان قمر المحروقى مندمجا في شروء باسم وقد استقرت نظراته على صالح
هيصة، ثم جعل يردد كائه يكلم نفسه: إذن فصالح هيصة مولود في هذا البيت؟!
فمد صابر ذراعه إلى الامام موضحاً:

«في الركن اللي هناك ده! تحت بير السلم بالظبط! كان سرير أبوه محطوط
وأمه ولدته فوقه!»

ثم انتعش فجأة واعتدل في قعدته؛ دبث فيه حماسة سخنة لدرجة أننى لمحت
في عينيه - لأول مرة - علاقة بالحياة فجأة ولأول مرة وجدت في عينيه ثمة معنى.
هنا تكشفت لى حول عينيه وأنفه علامات كالبيصمات تبين كم هو عجوز.
كانت وجوهنا جميعاً قد اتجهت إليه عقب حركة اعتداله المفاجئة. راح يهز
رأسه وذراعيه فوق ركبتيه:

«طب تصدقوا كمان إن صالح هيصة ده مولود في ليلة قدر؟! أى والختمه
الشريفة صالح اللي قدامكم ده! أمه! خالتي منتهى الله يرحمها استنت ميعاد
ليلة القدر وقعدت فوق السطح تستناها! شافت النجمة أم ديك بتجرى في السما!
قال: يارب نفسى في جتة ولد يبقى ديك البرابر! يشاء السميع العليم إنها في ليلة
القدر اللي وراها تولد صالح اللي قاعد قدامكم ده! عشان تعرفوا إنه راجل
مبروك!!».

شعور بالغبطة كان مسيطرا علينا فى تلك اللحظة كأننا اكتشفنا كنزا أثريا
ثمينا.. أفقنا على ضحكات صالح هيصة المرحه الصافية المتدفقة داخل صدره
كالفيضان:

«أبويا ليلتها عمل هيصة حنقوا على كذاب لو قلت لكم إنى كنت سامعه وأنا
ملقوف فى اللغة !!

أنا كمان عملت هيصة! واء واء واء ! أبويا يقول لأمى: انبسطى يا اختى
بالود! طب كنتى اطلبى شوية فلوس نصرف منها! بيت حلو نسكنه !! سمعت أمى
بتقول له هى العادة كده تطلب قرش يدك قرش قلت اطلب الكرش يمكن يدنى
القرش بالعند فى!! أيامها كانت الدنيا هيصة والعالم كله ماسك فى خناق بعضه
والملك فؤاد بيخاير نفسه عشان يموت! ولما مات قالوا إنى نحسسته !! أبويا كان
منكاد عشان أنا جيت من هنا وأمى قالت له خد عندك: خمسة صبيان ورا بعض
ومن قبلهم ست بنات!! أبويا ساب لنا البيت وطفش على السودان اخواتى
الصبيان كانوا أندل منه! إستنوا لحد أنا ما دخلت التجنيد وجات الكوريرا
قشتهم!! طب الكوريرا بنت القحبة دى ماقشتش حكيم ليه؟! عشان هو نفسه
كوريرا أكر منها!..

عاصفة الضحك أرعشت الإبتسامة داخل شدى حكيم! فراح يفش غله فى
فرك المعسل:

«ما انت صنف نمرود! طلعت بيه خدك تعيش معاه فى بيته ماطقتش النعيم
أصل الفقر ليك دوا إنت وأمثالك ولو انى ما شفتلكش مثيل!..»

هدرت ضحكات صالح فى صدره مرحه صافية عريضة دافئة لكنها مضمخة
بنبرة لافتة شعرنا أنه يقصدها ليقول بها شيئا لا يصح أن يقال: مع ذلك فإن
الضحكات كانت من الواضح أنها، تسخر من طلعت بيه من بيته من نعيمه
المزعوم، وفوق البيعة تسخر من أفكار حكيم الهايفة وتصورات الهباء. ما أدهشنا
أن ضحكات صالح هذه قد رنت على وجه طلعت الإمبابى فكبسته فبدا منكسر

العينين يلعب بأنامله فى شاربه بتوتر واضح يمسح وجهه بكفه. خيل لى كأنه يريد أن يزِيل عن بشرته شحوب الحرج، أخيرا شوح بحركة مصحوبة بنظرة يقصد بها معنى موجها إيلينا نحن فحسب هو أنه لا داعى للمن والتشدد بالإحسان، ثم أضاف بلهجة أكدت فشله فى الهروب من لهجة المن والتفاخر مع أنه قصد العكس تماما:

«فضك من الموضوع ده يا حكيم! عم صالح كان مشرفنا! وبيتى كان سعيد بيه ولسه تحت أمره!».

إنزلت الكلمة من حنك صالح هيصة:

«تشكر يا طلعت بيه! أنا سبق وقلت لحضرتك إنى ما أنفعش أكون ضيف محترم! مش لأنى مش محترم لأ! إنما لأن الدعوة نفسها هى اللى أكدت على إنى مش محترم وجأى لى فرصة أنى أبقى محترم لمدة يومين تلاته جريت زى ما وعدتك! لقيت أن اللى مش محترم هنا مش محترم هناك يعنى الدورباطه!!».

«يعنى إيه؟!».

قالها طلعت وهو يهز رأسه ليفيق..

«فسرها زى ما تفسرها وأنا موافك على الخط!» رمقه حكيم فى اشمزاز:

«باقول لك منتاش وش نعمة!»

نفث مصطفى لمعى الدخان بصوت على إيقاع أهة قرفانة، ثم أزاح البوصة فى شئ من العصبية ! انتبه لها صابر العسال فنفض الكسل عن ظهره المقوس وهب واقفا، ربت على ظهر الولد الذى كان يسقينا:

«لماأخذه يا سوكة! أنا سبتك تسقى البهوات عشان ما تقولش أنى بانقى

الزباين اللى على كفى! بس البهوات دول عدم المأخضة محدش بيعرف يسقيهم غيرى أصلها عشرة عمر يا صاحبى وع العموم متخافش حقك فى البقشيش محفوظ برضه!».

وسحب الجوزة الكبيرة القاتلة، قام بتسييخها وغسلها وضبط إيقاع مياها
حتى تصاعد لها في آذاننا رنين موسيقى أشبه بالترتيل. طحن في المصفاة ناراً
جديدة وشد الصفيحة الخاصة به فوضعها تحت مؤخرته. لاح في الأفق أننا
سنبدأ لتونا في التحشيش الحقيقي أما تلك الطرائح السابقة فاعتبرناها تسليك
زور وتنفيض صدور.

الكرباج والقانون

فى عام ألف وتسعمائة وثلاثين - طبقا لرواية صابر العسال - كان صالح هيصة يخطو نحو السابعة من عمره تقريبا - كان أكثر أبناء حى معروف هدوءاً ووداعة وخفة ظل. فى أول شقة فى الطابق الأرضى من هذا البيت الذى هو الآن غرزة حكيم، يقيم الشاويش عبد البر صالح عسكرى الهجانة مع عياله. الشقة عبارة عن حجرتين وفسحة وعفشة مياه، وهم بالصلاة على الحبيب ثلاثة عشر فردا: ست بنات وخمسة صبيان والرجل وزوجه. قل إن الرجل غير معمول حسابه فى البيت فهو دائما أبدا خارج البلدة كلها فى مهمات يقوم بها عسكر الهجانة نوو النفس الطويل فى الغرية، قد يمكثون فى إحدى القرى شهراً كاملاً حتى يستتب الأمن فيها بعد نزاع طويل بين بعض العائلات وبعضها ترتب عليها قتل وتحريق وتخريب، وقد يأتهم الأمر بالرحيل فجأة إلى إحدى المدن لقمع مظاهرات أو تنفيذ أحكام عرفية يتطلب تنفيذها قوة جبرية غاشمة لا تعرف أباهاً، مهمة قد تمتد فى المدينة والمدن المجاورة إلى غير نهاية.

عسكرى الهجانة لا صديق له على الإطلاق سوى الجمل والكرباج السودانى الطويل المصنوع من أذيال البهائم بعد نقعها فى الزيت مدة طويلة ليكون سياطها لاهبا يشرخ الجلد البشرى مهما غطاء بملايس وحشايا. أما الجمل فإنه عهدة يتسلمها أمانة يلتزم بتسليمها فى أى لحظة. وأما الكرباج فإنه وإن كان هو الآخر عهدة إلا أنه مسموح بتركه مع الهجانة فى غير أوقات العمل الرسمية، ولا جناح عليه إن ضاع منه طالما أنه يستطيع شراء غيره لتسديد العهدة به. ومع ذلك فمعروف أن كرباج الحكومة قانونى، فمن مواصفات اللسوعة اللاهبة المؤدية إلى الفرار بون إيذاء شديد، لكن عسكرى الهجانة العقر المحترف يستهزئ بكرباج الحكومة يعتبره لعب عيال يصلح بالكاد لغازية تلسوع به ظهر حمارها أثناء

سرحانها فى القسرى، لا يصلح مطلقاً لفرض قوة الهجانة فى تنفيذ القانون على ناس من المفترض أنهم - كما أفهمتهم الحكومة - همج خارجون على القانون وبعضهم ذو نزعة إجرامية لابد من قمعها وردعها. وكان عسكر الهجانة الواحد منهم يبعث فى شراء كبرياج كرابيجى بحق وحقيق من شغل السودان ويا حبذا لو كان مصنوعاً من ذيل التمساح. بعضهم خبير فيصنعه بنفسه أو لغيره بمواصفات عالية الجودة بحيث من يطاله طرف الكبرياج من المواطنين يبقى تأثيره فى جسده مدى الحياة، وما دام لن ينساه فلن يفكر فى الشغب مرة أخرى.

لا أحد ينكر أن عسكر الهجانة كلهم طيبون إلا عند استعمالهم للكبرياج بأمر الحكومة. الدليل على ذلك عم عبدالبر صالح كما يشهد له أبناء حى معروف سواء فى شقه الراقى على تخوم شارع سليمان أو فى شقه الشعبى البلدى على تخوم ضريح الشيخ معروف على شكل بيوت عتيقة الطراز ذات شرفات وشبابيك تتدلى منها قطع الغسيل المنشور على حبال بينما هو من جواه عيش وأكواخ وتعريشات وتحويطات، سكان العماثر والعشش يعرفون أن عم عبدالبر صالح شاويش الهجانة طيب القلب رغم أنه لا يمشى إلا والكبرياج السودانى تحت إبطه. الأطفال فحسب هم الذين يخشونه من فرط التجهم الذى يجعل وجهه أشبه برغيف تلعبت عجنته قبل الدفع به إلى الفرن ليحترق وتمتلئ بشرته بالشرط الطولية فكأنه وجه قرد مكشّر عن أنيابه.

إلا أن طيبة القلب شىء وتأدية واجب الوظيفة بأمانة وزمة شىء آخر، وإذا يفرش الجوال قدام البيت فى الليل ويجواره قلة ماء وعدة شأى وجوزة أصلها كوب من الصفيح لزوم كرسى الدخان يجذب إليه رهطاً من جيرانه المقاربين له فى السن، يساهمون جميعاً فى تكاليف زردة شأى وباكو دخان معسل، ليأتنسوا بعم عبدالبر صالح بحديثه الطلى عما شافه ويشوفه فى بلاد خلق الله موقداً من الحكومة، يعرج بالحديث على الكبرياج، فيسحب من تحت فخذيه يضعه على ركبتيه

يلوح فوقه بيديه كأنه يرقيه: لابد للكرباج أن يكون قادراً على إشعال النار في الجسد فإنه سمعة الحكومة وشرفها ، وما نحن إلا عروق تجرى في دماؤها أو امر الحكومة وللعلم لو أننا طاولنا الحكومة جيداً بإخماد مظاهرة أو فض اشتباك بالقوة لقطعنا لحوم الناس ورميناها للكلاب حتى تنتهى المهمة المطلوبة بنجاح؟! إذن فمن مصلحتنا يا عسكر الهجانة أن يكون هذا الكرباج قوياً حاسماً حتى لا نضطر للقتل والسحل، ومن هنا يا إخوانى فإن لسعة الكرباج هى أنجع أنواع الردع والقمع إذ هى الضربة الوحيدة التى تؤذى الشعور أضعاف ما تؤذى الجسد؛ بها لا يجد الإنسان فى نفسه أى قدر من الإنسانية يستخدمه فى الدفاع عن نفسه أو حتى مجرد الاحتجاج اللهم إلا الصرخة والآهة ثم يجرى ملتاثاً كالدابة المذعورة تبحث عن ملاذ..

ذلك هو حديث عم عبدالبر صالح عسكرى الهجانة لا ينساه صابر العسال ولو بعد ألف عام منذ أن استمع إليه ذات ليلة بعيدة جداً من ليالى طفولته الشقية عند ما كان يطفش من الملجأ ويأتى ليعيش مع أمه الأرملة صاحبة العيا وإخوته الكثر من زوج آخر غير أبيه المرحوم.. كانت أمه تغلق الباب بونه لترغمه على العودة إلى الملجأ لأنها مش ناقصة كما أن زوجها فيه ما يكفيه؛ فلا يجد ثمة من ملاذ إلا قعدة عم عبدالبر صالح فوق الجوال فى الحارة لصق باب البيت حيث يتطوع بخدمته عن طيب خاطر يقضى له بعض المشاوير، إلا أن أوقات عم عبدالبر قليلة جداً فى الحارة، يوم أو يومين بالكثير أربعة ثم يأتيه الأمر بالتواجد بالمديرية استعداداً للرحيل إلى بلدة من البلدان، لهذا لم يكن لعم عبدالبر سريره الخاص لينام عليه فى وقت الإجازة المحدودة، فبعد ولادة ابنه صالح بحوالى سنتين بيع السرير ثم صندوق الهدوم ثم الطشت النحاس فحلة الغسيل فجميع الحلل، ذلك أن بيت عم عبدالبر صالح قد استغنى عن الطبخ والغرف منذ أن ازداد عددهم بشكل يلزمه مرتب يوازي مرتب جميع عسكر الهجانة فى البر كله ، يكفى عدة أطباق من البلاستيك فالأكل إما فول مدمس من عربة السريح وإما بطاطس مقلية فى طاسة

عتيقة تستعار من الجيران، أو طبخة عدس يوم القبض فى قدر من الفخار يوقد تحتها الكانون- ساحت أجسادهم على بعضها، أى واحد ينام فى أية رقعة تصادفة، البنات يرقدن فى صف يمتد من الحائط للحائط وأمهن تتمدد بالعرض فى فتحة باب الحجرة لتكون أول من يستيقظ إذا لا قدر الله داهم البنات مداهم بليل، أما صالح وإخوته الصبيان فليمن كل منهم فى أية بقعة فى الصالة أو فى الحارة طالما اتسعت لجسده ولو متقرصاً . حرام من الصوف طاعن فى السن مرقع بالأجولة يتغطى به البنات سترًا للورة فحسب.

أما الصبيان فقد تمرسوا بالبرد القارص فى الحارة ليل نهار فلم يعد يجد فى أبدانهم مكاناً يقرصه بعد أن نحست أبدانهم واكتست ببطانية من الوسخ والطين أكثر سمكا من بدلة فوقها بالطو ومن فوق الباطلو عباءة إذ هى جسوم لم يمر عليها الصابون فى حياتها قط أما الماء فلا يتجاوز وجوههم .

صالح هيصة، ريك والحق ، من صغره وهو حنون على أمه يزعل على شانها، يفعل كل شئ لكى يأتى لها بقرش صاغ أو نصف فرنك من حين لحين، يسرح فى سوق معروف طفلاً طيباً غلبانا، يشارك فى تحميل عربات الخضر والفاكهة أو تعتيقها، يسهر مع فكهاى سريخ يظل طول الليل ينقض الجوافة أو المشمش أو البليح بالواحدة ليرصدها فى واجهة العربة رصة فنية جذابة متينة البنيان تظل متماسكة لأيام حتى ينتهى البياع من تصريف الثمار اللوشيككة اللظ والمصورة داخل سور الرصة، يبيعه بنفس السعر المدون على ورقة مشبوكة فى الواجهة لتوهم المشتري أنه سىأخذ من المستوى المرسوم، يعود صالح لأمه فى آخر الليل بما كان البياع مستعداً لرميه فى الزبالة كثيراً ما كان يضرب إخوته ضرباً موجعاً إذا هم تناولوا على أمهم أو طالبوها بشئ لا تقدر عليه، طوال طفولته كان دائم السؤال عن موعد حلول ليلة القدر ليصعد إلى السطح فى انتظار

أن تنفتح السماء للمحظوظ، ليس لصالح آنذاك من مطالب سوى أمنية واحدة ، أن يرزق الله أمه فلو سأ كثيرة تنفقها عليهم فى ثياب جديدة وكباب وكفته وحلاوة طحينية .

الخالة منتهى - أم صالح - وجدت حالها فى انكشاف متزايد، وراتب عم عبد البر - بعد خصم مصاريفه منه فى غربته الدائمة - لا يكفى ثمن العيش الحاف، ناهيك عن الغموس وإيجار المسكن وجاز للمصباح وللواپور، والأمر لا يسلم من أسبرينة أو شربة ملح انجليزى أو بكرة خيط لترقيع الثياب أو زجاجة للمصباح وما شابه ذلك من مطالب . هذه الحوجة كوم، وسترة البنات كوم آخر، إن الخالة منتهى سمراء سمرة أسوانية معتبرة إلا أنها جميلة التقاطيع كما أن جسدها إنثى ولا أميرات النوبة القديمة حتى أنس الوجود نفسها التى كان عم عبدالبر مغرما بالحديث عنها - إنما بناتها - يا حرام - صورة طبق الأصل من عم عبدالبر، قردات بمعنى الكلمة، لم يرثن عن أمهن شيئاً سوى القليل من تقاسيم الجسد وليونته ونعومته. من الرقبة المبرومة الرفيعة إلى الثديين المشودين فى تكور شامخ، إلى الخصر النحيل إلى الكشحين الهضيمين بساقين مبرومين طويلين بصورة ملحوظة حتى ان أصفر بنت فيهن لم تكن تبلغ من عمرها تسعة أعوام وتمشى فى الحارة كالجمال يحمل هوجا، مشكلتهن فى الزواج أن شبان حى معروف يعرفونه منذ الصغر، ما من شاب إلا ويحفظ صور وجوههن بدقة لكى يتلافها عندما ينتقى لنفسه عروسا بنت ناس. أماا لغريب عن حى معروف فإنه قد يرى إحداهن من ظهرها فيصحو فى عموده الفقري شبق أهوج يجعله يتمنى أن لو كان كلبا أو حمار أو ثورا ليتمتع بشرعية أن يقفز فى الحال على من تروق له فى أى مكان فى أى لحظة عينى عينك، ولقد يبرح به الشبق العارم المفاجىء فيفكر فى استئجار شقة خاصة لهذه الأنثى الغلبانة ينفق عليها لتكون أتناه الدائمة بغير

قيود رسمية، لكنه إن أسرع الخطو - وهذا ما يحدث فى العادة - ليرى الوجه الآخر كى تكتمل نشوته يفاجأ بأنه لا يرى إلا وجه قرد أو غوريلا دونما زيادة أو نقصان، سوف يخرج عن طوره لا محالة ، قد يصرخ فرعا ، يشهق يرتبك ، يتقلص وجهه وبدنه رعبا من المفاجأة غير المتوقعة . مع ذلك هن حرائر فضليات ، سمعتهن مثل الجنيه الذهب، هناك من يدور على بعضهن طالبا الزواج على سنة الله ورسوله لكنهم جميعا من الكحيته لا يقدر الواحد منهم على تكليف غدوة واحدة والخالة منتهى تعرف أن بناتها فى مأزق خرج من ناحية الشكل لكنها على يقين من أن لجمال النفس وحسن التربية وصون العفاف من يقدره من عباد الله المسلمين وحتما سيجيء فى أوانه كل ما هناك أنها ملزمة بالتحضين عليهن وحياتهن من البهدة بتوفير الضرورى مما يحتجنه على الأقل والا سيتعرضن للهوان .

للخالة منتهى إحدى قريبات قرابة الدم متزوجة من بواب عمارة كبيرة فى حى جاردن سیتی، علاقاتها واسعة ورجاؤها مستجاب عند جميع سكان العمارة وضيوفهم ، صعب عليها حال الولى العسة، راحت تساعدنا قدر استطاعتها لكن ماذا تفيد القطرة فى الأرض الشراقى ؟ كانت قد تعرفت على محام كبير من بلدة شبين القناطر على تخوم القاهرة الشرقية، ذلك أن أحد كبار سكان عمارة جاردن سیتی قد تزوج حديثا من شقيقة هذا المحامى وهو لا يكف عن زيارتها . عرفت من شقيقته العروس أنه أعزب، فى الكذا و الستين من عمره، ماتت زوجته، تزوج كل أبنائه ورحلوا ، احتمال الوحدة اعتادها اكتشف حالاتها لكنه لم يألف شغل البيت. هو ليس محتاجا لخادمة فالثلاجة والمعلبات والمطاعم العامة تكفى لسد احتياجاته الغذائية دون مشاكل ، هو محتاج فحسب لإمرأة أمينة نظيفة قصيرة اللسان على خلق حميد، سيبعث سائقه الخصوصى بسيارته ليأخذها من عند بوابة العمارة صباح الخميس من كل أسبوع ويعيدها مساء الجمعة أو فجر السبت إن لزم الأمر تكنس الفيلا تنفض غبارها تغسل أرضها تبدل فرشها تغسل

الغسيل تطبخ له عدة اصناف تكفيه طوال الأسبوع لا تكلف خادمه سوى التسخين والغرف. فى مقابل هذه المهمة يعطيها راتبا شهريا قدره عشرة جنيهات . الخالة منتهى رقصت من شدة الفرح دعت لقريباتها بالستر وعدم الحوجة للناس. اتفقا سويا على أن يظل هذا الأمر سراً دفيناً لا يتسرب خبره إلى عم عبد البر صالح من جانبيها قرطت على العيال الكبار بأن يتجاهلوا الأمر كأن لم يكن . فى صباح الخميس من كل أسبوع ترتدى ملاءتها السوداء ومركوبها البلاستيك ، تسحب ابنها صالح متجهة الى العمارة فى جاردن سیتی فما تكاد تشرب كوب الشاي بالحليب حتى يطب سائق البك فيأخذها ومعها صالح لا يفارقها . وفى مساء الجمعة يعودان إلى الحارة فى حالة انتعاش واضحة .

تلك كانت أحلا أيام طفولة صالح هيصة وجميع إخوته ظهرت عليهم النعمة، إحلوت وجوه البنات بعد أن عرفت الصابون المعطر وأمشاط الشعر والتوكات والمناديل والفساتين الجديدة الملونة ، ناهيك عن دماء الوجبات الثلاث فى اليوم . عرفت الولية طريقها الى محلات الصينى والألوتيوم والطرح والمناديل تشتترى لبناتها اشياء يخزننها للزواج المرتقب .. لبس صالح - لأول مرة فى حياته- القميص والبنطلون بعد الجلباب الواحد الكالنج المتهرىء من جميع الجهات، عرف جسده الشيرز والبلوفر بل والبالطو المحنق مثل ولاد الناس ، بل استطاعت قدمه أخيرا أن تمتثل للحذاء بعد أن برشت وانتفخت وتشققت من طول الحفاء . ذلك أن الرجل المحامى كان يعطف عليه كابنه، يشتترى له الملابس من المحلات على مقياسه ، يعطيه مصروفا يضييعه كيفما شاء ، لا شأن لأمه به، يداعبه يحنو عليه كحفيده ، يرغم أمه على أن تعرف له - ولها - مما طبخته من طعام . لقد احبها الرجل واحترمها جدا لما تتصف به من عفة وأمانة ونظافة من جواها ومن براها ، كما أن نفسها فى الطبخ فاضح بفتح الشهية على بعد أميال طويلة . لذلك قرر الإحتفاظ بها وبات لايدقق معها فى أى شىء إلى أن أصبحت هى الكل فى الكل فى حياته المنزلية بل أصبح يناديها : ياداده ، لا يحاسبها لا يراجعها فقد أنس إليها فأعقد عليها حتى غمرها بفضله .

أحب صالح هذا الرجل إلى حد العبادة ، يقول لصابر العسال ولكل عيال الحارة إنه بدأ يقتنع أن الولادة فى ليلة القدر مهمة فعلا، يكفى أن الله قد أعطاه أبا جديدا من الباشوات الأصائل يحنو عليه بحق يذيقه نعيم الدنيا وبهجة الأبوة . كثيرا ماكانت أمه تتركه عند المحامى أسبوعا أو أسبوعين ، يقوم فيهما بالذهاب إلى مكتب المحامى لقضاء طلباته الخاصة. يرى المكتب كبيرا كالمدينة ، زبائن بالمئات يدخلون ويخرجون ويمكثون ، يلتقيهم وكيل المكتب ليتفاهم معهم فى قضاياهم ينثرونها عليه بالتفصيل الممل وهو يبحث لكل مغرر عن منفذ فى القانون يبطله . صالح يستمع بشغف لساعات طويلة يتعلم يختزن فى رأسه وعيا كثيرا مبهرا، حتى إذا عاد للحارة يتيه به على العيال . هذا المحامى هو فى الواقع اكبر وأهم رجل فى حياة صالح هيصة. معلمه الأوحد، غرس فيه وعيا ومعرفة وأخلاقا وطبائع لم يكن ليعرفها صالح هيصة حتى لو دخل الجامعة. كل الحاجات الحلوة فى نفسية صالح هيصة وسلوكه ومعتقداته زرع المحامى بذرتها فيه وألهمه أنه إنسان لا يقل عن أى مخلوق آخر استحقاقا للعزة والكرامة كما كان يقول للعيال فى الحارة على أمل أن يعلمهم هو الآخر مما تعلمه. لو قدر لصالح أن يبقى تحت كنف هذا الرجل حتى شبابه لكان زمانه الآن فى أمة كبيرة .

المحامى كان سياسيا كبيرا جدا ، عضوا مهما فى حزب الوفد، شهرته تمتد على مساحة البلاد كلها حيث له فى كل عاصمة إقليم فرع من مكتبه ، كما أنه يكتب فى الصحف باستمرار ، وعضو فى البرلمان لدورات متصلة لا تنقطع وقد رشح للوزارة أكثر من مرة . كنا آنذاك فى أوائل الأربعينات حيث الدنيا مقلوبة بالحرب العالمية الثانية ومصر ملآنة بوجع الدماغ من جراء قرار الحرب لسالح الإنجليز بينما الواجب أن نحارب ضد الإنجليز . المهم أنه جاء حين تعددت فيه الإضرابات بصورة مخيفة ، من عمال السكة الحديد إلى عمال كفر الدوار والمحلة الى جميع العمال فى جميع المصانع فى جميع البلاد، كل شىء توقف بالأربعة ، كثرت المظاهرات صارت عنيفة ، إعتصم القضاة والمحامون فى شبين القناطر أو

فى دائرتها يعنى ، خرج جميع الأهالى يهتفون بسقوط الإحتلال وأذنا به - يعنى الملك فاروق ورجاله - ووقف على القوم ليخطبوا فيهم . حاول البوليس تفريقهم باللين فلم يفلح ، تطاول عليهم بالضرب ، قاوموه بقوة وبسالة كأنه جنود الإحتلال ، إنجرت كرامة عائلات كبيرة كثيرة طعنت فى كبريائها فى هيبتها بضرب كبرائهم والتتكيل بهم فى غشومية وغباء شديدين ، فقدوا جميعاً صوابهم حتى أئختنت الشرطة بالجراح وفشلت فى رد العائلة فأبرقت فى طلب الهجانة فوراً ، مع ذلك اعتصم رجال العائلات كلهم فى ساحة القرية يطلبون حضور النائب العام ورئيس الوزراء لمعاينة ما حاق بأهل الناحية كلها من خسائر فى الأموال والأنفس نتيجة لغباء الشرطة وعنفها غير المنبرر. كان الاعتصام الصاخب تحت إشراف لفيى من أعيان الدائرة وعلى رأسهم عبد المجيد بك العريان المحامى الكبير والسياسى وصاحب القلم اللاذع الشجاع والبرلمانى فوق ذلك كانوا يتصورون - لحسن ظنهم بأنفسهم - أن الحكومة إن لم تستجب لطلباتهم - وهم دائرة بأكملها - فعلى الأقل سترسل وفداً محترماً للتفاوض فى هدوء وتحضر ، غاب عن فطنهم أن الصورة انتقلت إلى القاهرة على غير ما يتوقعون ، الصورة وصلت الى مقر الحكومة وإلى القصر الملكى وقصر الدويارة باعتبارها ثورة همجية اختارت القتال الدموى وسيلة لقلب نظام الحكم ، فجن جنون الجميع فقدوا البقية الباقية من الرشد فكروا فى إرسال كتيبة من الجيش تدك البلدة بالدبابات ، لكن طائفاً من رشد لحق بهم قبل وقوع حماقة فاكتفوا بفرقة كبيرة كثيفة من عسكر الهجانة تؤدب هؤلاء الرعاع تخزنهم فى بيوتهم ليسهل القبض على زعمائهم فى هدوء ، أما أن يتركوا هكذا منشورين فى ساحة البلدة، حتى بغير هتاف - فهذا إهدار لهيبة الملك شخصياً .

هبط فريق الهجانة على ساحة البلدة فى هجمة شرسة محمية بالعسكر السوارى من خلفها بخيول عفية . صارت الكرايبج تنهال فوق الوجوه والأقفية والمؤخرات والأفخاذ بغير تمييز بل بجنون لا سقف له . صالح حينئذ كان واقفاً

خلف الأستاذ يكاد يتعلق بقماش سترته . كان ملازما له كظله منذ قيام الأزمة ، وكان يكاد يفهم طبيعة المعركة وأسبابها وتفاصيلها ويقيم حجمها المروع. بقدر إعجابه بشخصية هذا الرجل العملاق الذى لا يهمه من الحكومة ولا من الملك بذات نفسه ولا من الإنجليز بجلالة قدرهم بل يقف فى مواجهتهم يكاد يرفع السلاح، بقدرة فرحته وانبهاره بهذه الشخصية كان خوفه عليها قد بدأ يكبر ويتجسد امامه فى صورة خطر محقق يتهدد حياته، الأب المعلم الذى كاد فى نظره أن يكون رسولا بماله من كرامات ، تمنى صالح لحظتها أن لو كان فى استطاعته اختطاف أى مسدس ليفرغ رصاصه كله فى قلب من يعاديه، او يعتدى عليه ، لكن ها هو ذا يضيع بين الأقدام فلا يستطيع تمييز أخفاف الجمال من اخفاف عسكر الهجانة . إلا أنه يتعلق بثياب الأستاذ حاول مداراته بجسده ليتلقى بدلا منه لسمع الكراييج النارية. غير أن الكراياج الكافر طوق ظهره بحزام من نار جهنم الموقدة سمع لها صوت طرقة وأزيز هو صوت لحمه يتمزق تحت الكراياج . أنة واحدة لم يقو على إكمالها وهو يحتضن أستاذه فى صدره الصغير، شعر أن الثياب تلتصق فى لحمه بالدم الغزير النازف - قرر أنه لو نجا من هذه الواقعة فسيحفظ شكل هذا الذى ضربه ليقطله فى الحال بأى سلاح بأى شكل، نعم لابد أن يقتله ، لن يشفى غليله إلا قتل هذا الوحش البهيم الذى اشعل نار الآلام كلها فى دمه. التفت بعينون مخضلة بالدمع السخين ليحفظ شكل من ضربه لكى يدبر لكيفية جذبه من قدمه حتى يبرك فوقه ويأكل زمانة رقبتة ، ماكاد وجهه يبتعد قليلا عن وجه أستاذه وتقع عينه على وجه العسكرى المتوحش حتى كان الكراياج قد طوق وجه الأستاذ وقفاه وكل جسده والأستاذ يتوجع يبكى مستعينا بالله من الشيطان الرجيم.. عندئذ صرخ صالح ، إرتمى فوقه، لا ليحميه بجسده الضئيل فحسب، بل هريا من فزع ألم به لدى رؤيته لوجه الوحش الضارب، إنه وجه أبيه عم عبد البر صالح أنت وحش جبان إلى هذا الحد أيها الأب العيره؟! أمجرد أنت من الرحمة والشفقة ، لا قلب لك ، ولا مشاعر ؟ مع ذلك كشف عن وجهه لأبيه حتى يراه ليكف عن ضربه

إلا أن الأب لم يكن هو فى تلك اللحظة ، لا يرى لا يشعر لا يسمع ، مندمج فى الضرب كمن أخذته الجلالة فى حلقة ذكر. صاح الولد بقلب مكلوم ينبه أباه لصوته، قال له بصريح العبارة: أنا صالح ياأبتى فكف عن ضربنا . عندئذ حملق فيه عم عبد البر ، بكل غلظة مد ذراعه الطويلة فسحب من الأرض وألقى به خلفه على ظهر الجمل، اندفع يستحث الجمل على الهرولة إلى الخلاء لم يسمح للجمل بالكف عن الهرولة إلا على باب الحارة حيث مد ذراعه فسحب صالح ألقى به فى الأرض على طول ذراعه ثم قفل عائدا منذرا إياه أن حسابه ليس الآن .

ذلك اليوم البعيد الغريب قسم حياة صالح هيصة نصفين وشرخ نفسيته شرخين . أصبح الشخص الذى كان قبل ذلك اليوم لا علاقة له بالشخص الذى ولد فى ذلك اليوم. بدأ الضياع يفرض نفسه عليه والفشل يلاحقه فى كل مكان يذهب إليه. بدأ الطققان فى مخه لكن الأساس المتين الذى بناه فيه المحامى هو الذى حماه من الجنون التام. أول التغيير أن صالح كره أباه كره العمى لدرجة أنه فكر جديا فى قتله . كان عم عبد البر قد رجع بعد حوالى اسبوع من الحادث ، وكان قد سأل وطقس وتحرى وربط بين النظافة التى طرأت على عياله وبين وجود ابنه فى حضن ذلك الرجل الذى عرف بعد الواقعة من يكون هو وما وضعه . جاء البيت يقيم محكمة للولية الشقيانة، هو صاحب الدعوى والقاضى والجلاد . وقف صالح متحفزا له، يخفى سكيناً فى جيبه ، صار طويلا من أيام العز وكبر عقله فصار يفهم أحسن من أبيه يعرف حاجات لا يعرفها أبوه، لا يزال صابر العسال يذكر صالحا قبل دخوله وراء أبيه بلحظات ، كانت شروخ الكبراج فوق ظهره وصدره ووجهه وفخذه قد صارت اشبه بالمطبات الصناعية جسور منفوخة بالدم الأزرق مثقوبة كالغريال ، وكان غضبانا إلى حد الجنون يقول لصابر :

– «اللى كايدنى ياد ياصابر إن الناس تنضرب بالكبراج ده ليه ؟! دول لو كانوا بهائم يصعبوا علينا ! إذا الراجل ده يبقى ابو عيال وهو ميعرفش ربنا ؟! الوحش اللى جوه ده بيخبيه ازاي ؟!

إزاي أُمى ترضى تعيش مع واحد معندوش مانع يقطع جتتها بالسكين لو
الحكومة شاورت له ؟!

اللى كايدينى أكثر يا صابر إن فيه واحد يضرب كرباجين زى اللى أنا خدتهم
ويسكت ؟! إزاي ؟! ده أنا بعد ما جريت لسعة الكرباج اصبحت الإعدام فى نظرى
اهون ، يعنى يكون ارحم وأكرم للإنسان إنك تشنقه وماتضربوش بالكرباج !! آه
يا صابر لو شفت عبد المجيد بيه وهو ينضرب بالكرباج زيه زى الخنزير ! أنا
حاسس إنى لازم آخذ بتاره !! لا يا صابر لا ماتقولش ابوك ! أنا حاشطبه من
شهادة ميلادى !!

لما دخل فى أعقاب ابيه رأى أمه المسكينة منزوية فى الركن تنتفض وإخوته
البنات يولولن فى صمت مكتوم .

رأى أباه فى وضع استعداد للضرب يصرخ فى أمه كالماتات :
- «إنطقى يا كلبه ! إيه علاقتك أنتى وابنك بذاك المحامى ؟! تشتغلى خدامة ؟
من ورايا ؟! فلما رأى طيف صالح مقبلا صاح فيه باشمئزأ :
- جيت يا محروس ؟! إنطق الكلبه دى كانت بتشتغل عند المحامى خدامه
ولا...».

شبت النار فى قلب صالح، صار ينتفض ، إزداد طوله تضاعف حجمه ،
تغيرت ملامحه إنقلب لونه إلى الأزرق ، صرخ صرخة هزهزت الشبابيك رجت
الأرض :

- «إحترم نفسك ! دى مش كلبه ! دى ست أشرف منك ومن بلدك بحالها !
ست عاوزه تبرى عيالها بالحلال ويعرق جبينها عشان الوحش اللى اتجوزها
ونكبها بالعيال دى كلها معندوش نخوة ! بيخلف ويس : فيها إيه لما تروح تشتغل
عند راجل محترم وانا معاها ؟! دى مش كلبه إنما الكلب صحيح هو اللى ينهش
لحم ناس معموش فيه أى ذنب !! » .

ثم غلبه الانفعال فراح ييكى بحرقه كأنه ييكى بآثر رجعى طفولته البائسة

وانطفاء المصباح الذي أضاء حياته برهة من الزمن اطفأه وكسره هذا الوحش
الآدمي الذي يرفض صالح الآن وبقوة ان يكون ابنا له حتى وهو من صلبه :
- «عمل لك إيه الراجل المحترم اللي عيالك بتاكل وتلبس من خيره ؟ كنت
بتضربه بقسوة وغل كده ليه ؟ بتبهذل كرامته ليه ؟ الحكومة قايله لك تطفش
الناس مش تمزع لحمهم ؟ وهى دى حكومة الواحد يطاوعها ؟ تطاوعها ليه وانت
مش لاقى اللضى ؟ إنت مش بنى آدم ! الراجل المحترم ده لو مات فى المستشفى
ولا اتشوهت خلقته واتعجز عن الشغل حتبقى أنت ضريّت حتى الحكومة!!» .

بحر الذهول تلاطمت امواجه ، سبج فيه عم عبد البر صالح حتى لم يعد قادرا
على تجميع نفسه . كان قد وقف مبهورا متجمدا يتدلى طرف الكبراج من يده فى
رخاوة ، عيناه كأسنان ممتلآن بالدم ، ملامح الغوريلا قد استرخت فى محاولة
بائسة لإخفاء التوتر تمهيدا لضربة غادرة يعاجله بها ، صار يشيل الولد ويحطه
بنظراته النارية، ثم دبت فيه صحوة فجائية قوية أحكمت قبضته على يد الكبراج
ولاح بريق الغدر فى عينيه إلا أنه لما رأى ولده متحفزا متوقعا غدره متأهبا لردعه،
وإذ رأى أمامه شخصا آخر مختلفا عن ابنه الذى يعرفه، هداه خبثه .

- خبث العبيد - إلى إطالة مدة الخداع لكى يتمكن من مفاجئته بضربة تكون
قاضية حتى ولو يموت منها لا مشكلة ، هاهو ذا يتشبث بأخر أذيال الأبوة لعلها
تؤثر فى هذا البغل الذى لم قد لاحظ نموه من قبل وحتى برهة قصيرة مضت.
تمتم فى وقفته بهدوء مستعار :

- « بتطول لسانك علىّ يا كلب ؟ بتقف قصادى ؟

طبعاً ! ما أنت ابنها اللي بتوالس معاها ! ذرية بعضها من بعض! » .

ما لم يكن يتوقعه عم عبد البر صالح أن يكون ولده اخبث منه وأوسع حيلة
وأشد مكرًا ودهاء ففى لمح البصر ودون ادنى توقع فوجيء عم عبد البر صالح أن
كرباجه لم يعد فى يده ، بل انتقل الى يد ولده صالح الذى قبض على يده بقوة
ويرم طرفه حول يده الصلبة وامسك به مسكة حريف يعرف كيف يقذف بلسان

الكرباج إلى أبعد منطقة فى الجسد يطلبها . وقف عم عبد البر مهبطاً لآحول له ولا طول ، فى حين جعل صالح يلوح بالكرباج فى وجهه بحقد عنيف :

« نفسى ومنى عينى أدليك ثلاثه اربعة سخنين من عينة اللى خدناه أنا والراجل الطيب المحترم » !! نفسى أدوقك طعم النار وهى بتاكل فى لحم البنى دم ! نفسى أخليك تحس وتشعر بالهوان اللى بيسببه كرباجك دهه للناس الطيبين اللى مالهمش ذنب فى أى حاجة ! نفسى أخليك تعرف قد إيه كرامة البنى آدم بتتهد مدى الحياة بكرباج واحد من دهه !! نفسى ومنى عينى لكن قلبى مش مطاوعنى ! مش عشان انك ابويا وانا شفقان عليك لا ! إنما عشان أنا ما أقدرش . أشوف لحم بنى آدم ولا حتى حيوان بيتمزع بكرباج ! أنا مش وحش زيك أنا من حسن الحظ مش طالع لك ! مش واخذ منك أى حاجة ! انا طالع لخالى لست المحترمة اللى صانت عيالك من الجوع والبهدة ومع كده كنت جاي تضربها بالكرباج ! الكرباج ده إنت مش حتمسكه تانى !

أبقى مرة إن ما عملت لك بيه نصيبه !! » .

دب الهياج فى عم عبد البر ، إنقض على ولده كفهد عجوز ، اطبق بيديه الطويلتين فى عنق الولد غرز أظافره فى لحمه صار يهزه بقوة يجز على أنياه :

« هى حصلت ياكلب ؟ يا ابن السايبة ! طلاق ثلاثه لاكنم نفسك ! » .

لو كان جبل المقطم يهتز من أزيز طائرة عابرة فوقه يكون صالح قد اهتز من قبضتى ابيه . كان ثابتاً فى الأرض كالطود ، لا يريد أن يمد يده على أبيه ، لكنه لما غاصت أظافر ابيه فى رقبته مد ذراعيه ودفع إياه بقليل من الرفق والتحسب وكثير من الغيظ الدفين ، فإذا بعم عبد البر قد طار فى الهواء راجعاً بظهره كريشة اكتسحتها العاصفة ، لم يوقفه سوى الحائط الذى صك ظهره بعنف فارتد منكفئاً على بوزه . إلا أن الرجل العجوز كان لا يزال قويا صلباً مرناً العود ، سرعان ما جمع نفسه واقفاً تتطاير من عينيه جمرات متقدة ، سحب المطواة ، من جيب الصديرى ،

فتحها بحركة سريعة غير مرئية جرى بها مشرعة السن قاصدا قلب ولده مباشرة . كاد يغرسها فيه فعلا لولا أن الخالة منتهى صوتت فى رعب فانتبه ابنها فى اللحظة الحرجة تقادى الضربة قافزا قفزة ألفت به خارج باب الشقة ساحبا سكينته هو الآخر إلا أن صابر طب فوق رأسه حيث كان مقعيا فى الحارة تحت شباك البيت المواجه ورأى كل مدار عبر حديد الشباك . بفدائية نجح صابر العسال فى خطف السكينة من يد صالح هاتفا به فى تحذير :

«إخزى الشيطان يا مجنون ! إخفى من هنا الساعا دى صل ع النبى يا عم عبد البر» .

انتبه صالح إلى ذراع ابيه التى اوشكت رقبته ان تكون فى متناوله فامسك ذراعى أبيه بكتا يديه ودفعه دفعة قوية هذه المرة فارتد عم عبد البر مترنحا يتساند على الهواء .

ثم خرج صالح وانطلق يجرى، وعم عبد البر يجرى وراءه ممسكا بالمطواة، والخالة منتهى من خلفهما ترقع بالصوت الحيانى، وكل بناتها من ورائهم كبط مذعور يتقاذف متصادما وقد انخرطن فى ولولة وصوات . أما الصبيان الصغار فقد واصلوا الجرى بسرعة خلف أمهم حتى غابوا جميعا فى شارع معروف وتباعدت أصواتهم كأنها غطست فى جب .

ظل صالح يجرى على مهل ليغرى اياه فيستدرج للجرى وراءه . قاد مهرجان الجرى بالمطواة وبالصوات حتى مبنى قسم شرطة قصر النيل ، فاقتحمه داخلا. الرجل الطربش أخذته جلاله الجرى وراء ولده أينما ذهب ، فاقتحم وراءه قسم الشرطة شاهرا المطواة ، فلما فوجيء بأنه فى مكتب رئيس المباحث شخصيا ، وبأنه يقدم له الكرياج ، إرتج عليه ، لم يدر ماذا يفعل ، فبقى واقفاً والمطواة فى قبضته يتلفت حواليه مندهشا من صوات زوجه الواقفة بجواره تندب وتلطم خديها . وقف رئيس المباحث ، تقدم منه بهدوء ، أخذ المطواة من يده ، وضعها بجوار الكرياج ، نقل البصر بينهما فى استنكار ، وشبح صابر العسال قد راح يطل من

خلف الساتر الخشبي المستر يريد أن يعلن وجوده ولا يعلنه فى نفس الوقت ، كان فى الواقع منحازا لصالح وأمه بعد ماسمع وشاف بعينيه نذالة الرجل ووحشيته .

فتح صالح محضرا لأبيه ، اتهمه فيه بكل ماحدث ، لم يبالغ فى أى شىء ، لم يتلجلج ؛ حرارة صوته ختمت على المحضر بخاتم التصديق لأن رئيس المباحث استمع اليه جيدا ويشغف واهتمام لدرجة أنه كان يخرس الرجل كلما قاطع ابنه، انبهر رئيس المباحث بقطانة صالح وبطريقته فى الكلام لدرجة أنه كان يعيد ترديد عبارات صالح بشيء من الدهشة فوق الإعجاب ، بل إنه أملى على البلوكامين نص عبارات صالح بالحرف، اكتب : إساءة استعمال سلاح حكومى فى تعذيب عياله وهذا هو الدليل خريطة من جصور منفوخة زرقاء على جسد صالح ، الشروع فى قتل ابنه بمطواة مع الإصرار والترصد حتى اقتحم بها قسم الشرطة ذاته، التعدى بوحشية على المحامى والسياسى الكبير عبد المجيد بك العريان الموجود بالمستشفى بين الحياة والموت متأثرا بما ناله من كراييج على الاذنين والعينين والقلب ويعتبر ابن الجانى شاهد عيان عليه . تم تحويل صالح الى الكشف الطبى ، واحتجزت النيابة عم عبد البر على ذمة التحقيق . خرج صالح من سراى النيابة إلى المستشفى الذى يرقد فيه عبدالمجيد بك العريان ليطمئن عليه . اتضح ان عبد المجيد بك كان مريضا بعدة امراض باطنة اوضحها السكر دون ان يعنى بأى تحليلات من قبل فلم تندمل جروحه ، سهر عليه فريق من الاطباء حتى انقذوه بمعجزة إلهية لكنه انهذ وانطفأ ، لم يعد محتاجا لخادمة قدر احتياجه لطائفة من الممرضات . لم يعد يتواجد فى مكتبه الا لزيارات خاطفة .

زهذ صالح فى كل شىء من شدة حزنه على الرجل ، نعم ، إنسدت نفسه . وانصدت ايضا - عن الاكل واللبس بل عن الدنيا كلها ، اطلق لحيته خاصم غيان الهجوم بل خاصم حتى الهدوم نفسها فلا يقبل ارتداها إلا إذا كانت شبهه صداة مزينة . كان يبكى كثيرا جدا كلما انفرد بنفسه ، يطيل رفع العين والكفين الى

السماء ، يمشى فى الشوارع بغير هدف الا قتل روح الحزن التى تلبسته ونكدت عليه عيشه، وكيل مكتب عبد المجيد بك عرض عليه أن يعينه ساعيا بالمكتب .

- «يعنى آجى كل يوم بمعاد وامشى بمعاد ؟»

- «طبعاً ! مش وظيفة ؟!» .

- «والبس بدلة الساعة ؟»

- «مش ضرورى بدل ! بس هدم نضيفه طبعاً ! » .

- «وتدينى أوامر انى اعمل ده وما اعملش ده ؟!» .

- «وتنفذها بالحرف!» .

- «يفتح الله» .

- «حتا خد ستة جنيه فى الشهر بحالهم !» .

- «يمين المصحف انا ما اساوى تلاته مليم !» .

- «ليه ؟ ده انت جدع تساوى كتير!» .

- «المشكلة فىّ ! معدتش اطبق حد يحكمنى! ولا لقمة العيش بذاتها ! لو أنت

قبلت تدفع لى ماهية من غير ما اشتغل أنا ما اقبلش ! موتى وسمى الى بيعيش

سفلقه !» .

- «خلاص انت حر !» .

- «أنا بس لى خدمة عند حضرتك!» .

- «قول وخلصنى!» .

- «الجلسة بتاعتى أنا وابويا قربت ! عايز واحد من الاساتيد بتوع المكتب

يحضر معايه !» .

- «إطمئن القضية كلها عندنا طبيعى !» .

الاستاذ الذى حضر الجلسة مع صالح هيصة درغمها على أبيه ، وصفه

بأشع الأوصاف ، عرى جسد صالح أمام القضاة ليريهم اثار الكراييج سندا

لتقرير الطبيب الشرعى ، اضاف فى خطبة حماسية ان هذا الوحش الآدمى هو

نفسه الذى اعتدى على عبد المجيد بك وأنه قد آن الآوان لمحو عار الانسانية باستئصال هذه الوحوش التى تستخدم لتعذيب الأبرياء .

حكمت المحكمة على عم عبد البر بست سنوات اشغالاً شاقة فى القضيتين ، وفصله من الخدمة نهائياً . جن جنون صالح ، هو فى الحق برغم حقه الدفين على أبيه - لم يكن يطلب له هذه النهاية الفاجعة . راح يجرى وينطرش ، يقع فى عرض المحامين قرفعوا له دعوى استئناف لكن الاستئناف زود مدة العقوبة عاما - سيق عم عبد البر إلى السجن - صوذر الكرياج بالفعل كما توعدده صالح ، انهذ كيان الأسرة تماما ، سرحت الولية تبيع الخضار المضروب تارة ، وتارة أخرى تشتغل دلالة ، وغسالة فى البيوت ، إلى أن تمكنت بشق النفس من ترويج اربع بنات لأربعة من فواعلية الصعيد أمثال حكيم قبل أن يستقر فى الغرزة .

كل ذلك وصالح هائم على وجهه فى شوارع معروف وغرزه يدرّب نفسه على أعظم لعبة فى نظره يجب أن يتعلمها كل شخص محترم ، تلك هى لعبة الاستغناء ، أن تدرب جسدك بالقوة الجبرية على ألا يطلب شيئاً على الإطلاق ، أن تدرب نفسك تلك التى وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها أمارة بالسوء على ألا تأمرك بأى شئ بل أنت الذى يأمرها ويقهرها على التنفيذ .

كان يقول كلاماً كهذا لصابر مما يعشش فى دماغه العفريت من كلام كثير مبهر لم يسمعه من غيره من قبل . صار صابر العسال كلما أتاها اليقين بأن صالح مجنون من غير فصال تلطشه كلمة من كلماته فتلوحه ، تدوخه أولاً باعتبارها كلمة غريبة صادمة لكن ما تلبث حتى تتشعلق بدماغه وهو يحشش تروح تقلب نفسها على وهج النار فإذا هى كلمة معقولة للغاية فيها اكمل معانى الحكمة ، لكن - هكذا يتساءل صابر - من هو الجبار الذى يستطيع تحويل هذه الكلمة الكبيرة إلى فعل . مع ذلك فإن صالح يفعل ما يقول فى مرة حضر صلاة الجمعة فى جامع الشيخ معروف ، بعد الصلاة استوقف الإمام امام المصلين قائلاً:

- «عدم المؤاخذه يامولانا لما تعمل انت الأول بالنصايح اللي وجعت بيها دماغنا ساعة ونص تبقى تيجى توعظنا ! تقدر تقول لى ايه معنى إنك النهاردة عمال تخوفنا من عذاب القبر على السارق ! وأنا بعينى دى شايفك ليلة امبارح بتاخذ بقية الجنيه من عزوز البقال من غير ما تديله الجنيه اللي أنا شايفه مطوى بين صوابك وانت عمال تقاوح فيه وتقول له إديتك الجنيه بأمانة كذا وكذا !! يا راجل فضوها سيرة بقى واتقوا الله فينا !! » .

لحظتها تسمر الجميع فى وقفتهم ذاهلين ، صم بكم عمى فهم لايطلقون ، بهت الخطيب وارتبك ولم يعرف للرد سبيلا فأنحنى يتخطى عتبة الجامع وراء حذائه اما صالح فقد اطلق هديرا من الضحك الرائق النشوان فيما هو يربت على ظهر الخطيب بيد حانية هامسا فى أذنه :

- « ولا يهكم : بس تانى مرة ماتعملهاش وخليك فاكر ان ربنا ببشوفنا بعيننا احنا يعنى لازم يحط لك واحد زى حالاتى يشوفك ومادام شافك اصول يبيلفك مع إنه واجب يمنعك ! » .

والخطيب لا يقوى على رفع وجهه إليه ، فما كاد يشتبك قدميه فى فردتى الحذاء حتى اندفع مهرولا ليختفى فى أقرب حارة .

يوم طلب صالح للتجنيد كان صابر العسال فى عداد الهاربين من الفرز الاولى . كان صابر يعرف أنه مقبول مقبول ولذلك لم يذهب . لم يتمكنوا من الامساك به لأنه يعيش بأسماء متعددة ومدونة كلها فى محاضر رسمية لمواقف كثيرة تردد بشأنها كثيرا على اقسام الشرطة . هو الآن نادم اشد الندم فلو كانت الامور قد سارت على طبيعتها لكان زمانه الآن احد عساكر البوليس . اما صالح فقد تم تجنيده ، لعدة سنوات فى سلاح الخدمات الطبية ؛ لا أحد منهما يعرف عن الآخر شيئا طوال تلك المدة ، إلا أنه كان دائما يهف على مزاج صابر وكل ابناء الحارة، يتذكرون نوادره ومأثوراته فيهتفون ضاحكين : الله يمسهك بالخير يا صالح .

المقطوش

فى ذلك اليوم ذهبى وحدى إلى الغرزة مبكرا جدا على غير العادة، حوالى الساعة الثامنة صباحا . كان حى معروف نصف هامد ؛ هناك بيوت كثيرة تكون بالكاد - فى هذه الحصة - قد غطت فى النوم بعد جهود مضنية طوال الليل فى الغرز والسوق والمقاهى وعربات الكباب والكبدة والكشرى . أما الموظفون بجميع مستوياتهم فإنهم يهرولون بعيون مطبقة ذابلة الجفون . يتسلم المقاهى عمال جدد لوردية جديدة ؛ تنتشر عربات السفلو المدمس على امتداد شارع الأنتيكخانة وشارع شامبليون وشارع معروف تملأ الجو برائحة صباحية عبقة ؛ يلعلع القرآن الكريم فى راديوهاث كثيرة بصوت الشيخ الحصرى فى المصحف المرتل ؛ القعدة الآن على مصطبة حكيم فى لحظة عبقرية كهذه يمكن أن تصنع دماغا يشفى بالعمران .

مع ذلك لم يكن هذا هو هدفى من هذه الزيارة المبكرة وبمفردى . إنما كان هدفى الحقيقى هو الاختلاء بصالح هيصة فى هذه الحصة حيث لازبائن لا ضجيج لا حكيم نفسه ، لا أحد سواه إذ هو يحب التبكير فى تخليص المقطوعية حتى يتحرر فى الليل ويجلس كزبون مثل خلق الله . لقد أصبحت أنا الآخر مضروبا بصالح هيصة ؛ أصبح اهتمامى يفوق اهتمام كل أعضاء الشلة ؛ حيث لاح لى أن كل واحد من أعضاء الشلة مربوط فى صالح هيصة بحبل ما ، من المؤكد أنه يختلف عن بقية الحبال التى تربط الآخرين به ؛ أقصد ثمة قرابة معينة من صالح هيصة ! إستشعرها كل واحد فى نفسه فبات حجم الارتباط بعمق الإحساس بهذه القرابة فى كل منهم . أما وقد أمسكت بالحبل الذى يربطنى بشخصه وهو حبل يلخصه حبل للتأمل المحض ، المتفاعل مع ما يراه ويستكشفه إذ ربما يكون فى داخل هذه الشخصية الإنسانية البدائية قيمة لعلها تستحق الاحترام والتقدير

والكشف والتطوير ، فيبقى إذن أن أمسك ببقية الحبال، أن أعرف السر الحقيقي الكامن وراء علاقة كل منهم بصالح هيصة وهي من المؤكد أنها كلها نفسية روحية إلا أنها لاشك مختلفة الأسباب ، ولابد أيضا أنها أسباب قوية أدت إلى أن يشتركوا جميعا فى هذا الولع به إلى حد الافتتان ؛ سيما وأن عددا كبيرا من أعضاء الشلة يميل كل واحد منهم إلى الاعتقاد الجازم بأن علاقته بصالح هيصة هى الأمتن والأخلص والأكثر ودا وحميمية . وهكذا وجدتني متورطا فى جميع هذه العلاقات بشكل أو بآخر بمستوى أو بآخر ؛ أصبحت جزءا من التجربة ورقيبا عليها فى نفس الوقت . وإن فإذا لم أنجح فى إدراك كنه الأطراف الأخرى المشاركة فمن المؤكد أنني على الأقل سأنجح - بواسطتهم طبعاً - فى معرفة بعض خفايا نفسى .

من حسن حظى وجدت صالح هيصة بارشا فوق الجوال فى الركن ، يرتدى فائلة بحمالات وسروالا من الدبلان شكلهما كالح لكن سواد فخذه وساقيه وذراعيه وكتفيه وصدره جعلهما يبدوان فى غاية النظافة والبياض . بجواره كوب شاي يتصاعد منه الدخان ؛ وقد شرع - بعيون مغشقة - يكحت قلب الحجارة بطرف سكينه سفرة قديمة . وكنت - مدفوعا برغبة فى مشاركة حياتية شعورية - قد أحضرت معى لفة من شرائح الخبز البلدى الطازج محشوة بالفول والطعمية والباذنجان مع قرطاس من الطرشى وشرش بصل أخضر ، عاملا حساب صالح الذى سادعوه بإصرار لنفطر معا . فلما وجدت الشاى أمامه اغتظت ، لكنى مع ذلك هتفت به فى أخوية :

- «فطرت ولا لسه يا صالح؟»

إبتسم فى دماثة :

- «أنا من غير مؤاخذة ما بافطرش!»

- «ولا تتغدى؟»

ضحكة قصيرة مقطومة :

- «ماليش أنا ف هيصة المواعيد مع الأكل !»

- «طب ما تجابر الزاد ؟ شجعنى!»

- «ما أعملش حاجة ماليش مزاج أعملها لو انطبقت السما !»

- «وحتجوع إمتى طيب؟!»

- «لولا الهيصة عمرى ما أجوع!»

- «يعنى الهيصة هى الوحيدة اللى تجوعك؟!»

- «أبدا ! باكل عشان أفرش أرض للسبرتو بس!»

- «الجوع صحة على كل حال!»

- «الجوع ستره ! والشبع فضيحة»

- «بمعنى ؟!»

- « اللى واخد ع الشبع يعمل فضايح لو الأكل أتأخر عنه طقة واحدة ! ما

بيسرقناش غير اللى سرعهم الشبع وخافين ليروح منهم !! ربنا يكفيننا ويكفيك

شر البطن ! الجدع هو اللى يعمل زى أنا ما عملت !»

- «وعملت إيه أنت ؟»

- «أدبت بطنى ! علمتها ما تطلبش أى طلب ! أنا بس اللى أديها اللى أنا

عاوزه وقت مانا عايز ! فيه فيه ما فيش ما فيش تنام وهى أقل من الجزمة

القديمة!! إنما عشان تستعمل معاه أمور الحيوانية بتاعتها وتنغزنى عشان أروح

أذل نفسى واتطافس على غيرى ملعون أبوها !»

أعترف أنني زهدت الأكل الذى أتيت به مع أنني أثناء شرائى له كنت أحاول

إيقاف سيل لعابى . الآن تهفو نفسى إلى كوب من الشاي . كان صالح قد جهز

لى طاقمين من الحجارة وضعهما على مقربة منى فى انتظار أن أوقع عليها

ببصمة الحشيش ؛ فلما رأنى لا أفعل سألنى بصوت دافىء :

- «ممعكش حشيش؟»

- «لا والله يا صالح!»

- «أروح اشترى لك !»

لاحظت أن حماستى لشراء الحشيش قد فترت هي الأخرى . دار فى ذهنى ما قاله صالح منذ هنيهة من أنه يقهر بطنه ومزاجه وجسده حتى لا يترك أية فرصة لأى شىء يستعبده أو يجرح كرامته أو يمس كبرياءه ، حتى الهيصه لا يعملها تحت قهر الإدمان بل يعملها لأنه راغب فى عملها وفى كثير من الأيام لا يرغب فى عملها فلا يعملها . داهمنى سؤال بارق حارق : إذا كان هو قد استغنى عن الطعام والسريـر فأين أنت من قوته الجبارة لتستطيع تبطيل الحشيش فحسب ؟! إلا أنه كان قد وقف بجوارى ماذا يده ؛ ولأول مرة فى حياتى أشعر بمراة الاستسلام المقيت وأنا أعطيه ثمن الحشيش .

بقيت فى الغرزة وحدى شاردا عما حولى ؛ كلمات صالح هيصه تروح وتجىء أمام ناظرى تريد أن تشد انتباهى تلفت نظرى أكثر ؛ أعطيها اهتمامى برهة وأتجاهلها برهات ، معتبرا إياها مجرد بوارق مبدئية كصوارىخ اللعب كعبم الأطفال يفرقع يزعج لكنه غير ذى خطر ؛ ولكى أتقيها وأبعدها تماما عن الشريط الحساس فى مخى حتى لا تلتصق به كما التصقت بأمخاخ أصدقائى الذين يجدون فيها نوعا من بكاره الحكمة وبداهة الدهشة الأولى ، قلت لنفسى إن معنى كلمة العقل تظهر ضرورتها فى مثل هذه الحالة على وجه التحديد حيث إنها تعنى اعتقال الإنسان لأفكاره الجامحة وضبط سلوكه على إيقاع السلوك العام بحيث يكون المرء متماهيا مع عقلية الجماعة ؛ فالعقل إذن تبنيه الجماعة ، ثم هى نفسها تصبح جلاده فتقمعه وتفرض عليه تخلفها وجمودها حتى تطق أجنابه ، ويصبح الكثيرون منا شغوفين بمن ينوب عنهم فى تـكـسير القيود بجميع أنواعها فى محاولة للإعتاق من أى تسلط . ولكن ما هذا السرحان حتى قبل أن أشرب حجرا واحدا؟! .. اقتحمنى صوت صالح هيصه يزغرد فى أذنى بكلمته الأثيرة :

- «ربنا خلق الدنيا هيصه!! وخلق فيها بنى آدم هيصه !! يعمل هيصه !! وكل واحد فى هيصه!! عشان يلحق الهيصه!! ويا يلحق يا ميلحقش!! وكلهم كحيانين !

بس كل واحد كحيان بطريقته ! وأنا ملك الكحيانين ! عشان كحيان بكل
الطرق!!»

شد انتباهي ظل ممدود على الأرض يقترب ؛ رفعت رأسي ؛ فوجئت بصديقي
الحميم قمر المحروقي واقفا أمامي يضحك ضحكة رائقة تكاد تكون صورة طبق
الأصل من ضحكة صالح هيصة المتلاحقة الأهأهات في مقاطع متتالية تنتهي
بصيحة ممطوطة مرحة نشوانة تنكئ على الحروف تبرزها تلحنها : إل .. حا ..
ا .. ق ؛ ولا أحد يدري ما المقصود بكلمة إلحق هذه ؛ لقد ابتدعها صالح هيصة
فهل يقصد بها اللحاق بالهيصة مثلا ؟ أم أنها مجرد إيقاع مستعار لكلمة : إنتبه؟
أياما كان الأمر فإن الولوج بتقليد هذه الضحكة بصيحتها تلك صرف أذهاننا عن
المعنى المقصود منها .

رفعت رأسي لأعلا محاولا الإلمام بقامة قمر الطويلة برأسه الدقيق كراس
الهدد ، وملامحه المسممة وخديه الغائرين وسمته الطيب الصبوح المبهج حين
يضحك . كان يرتدى سترة سوداء على قميص سمى اللون بياقة مفتوحة دون
رباط عنق ، وينطلون من صوف الفائلة الرمادي ، بيده ملف من ورق مقوى مطبوع
عليه اسم الجامعة الامريكية ، يحتوى على كراسة ونسخة من كتاب إنجليزي
سمعت أنه ينوى ترجمته الى العربية ، تهجيت عنوانه بصعوبة حتى لا أضطر
لسؤاله عنه ؛ إنه كتاب : (الى الجحيم بالثقافة) ؛ ولأن هذا الكتاب كان شهيرا
آنذاك فإننى استطعت قراءة اسم مؤلفه «هربرت ريد» بسهولة . مشبوك فى إحدى
صفحاته قلم رصاص هندسى من النوع الذى تضغط على رأسه فيبرز سنه الرفيع
جدا بالقدر الذى تطلبه . الواقع أن قمر المحروقي مفتون - إلى جانب افتتانه بهذه
النوعية من الكتب المتطرفة - بالأشياء الأنيقة الثمينة ؛ دائما أبدا ترى معه أفخم
أنواع الأقلام العالمية الماركات كالباركر والشيفر والتروين ، والولاعات الرونسون ،
والنظارات البيرسول ، والخواتم الفضية ذات الأحجار الكريمة ، والحقائب الجلدية
المبهرة بأحجامها المختلفة ، محفظة نقود من جلد الغزال . طول عمره هكذا جميل

يحب الجمال إلا أنه سريع التفريط فى كل هذه الأشياء والتنازل عنها للغير بكل أريحية وبساطة مهما كانت ثمينة ونادرة ؛ سرعان ما تبهجه الأشياء ؛ سرعان ما يزهدها ..

تأبط الملف مصفقا بيديه الطويلتين مرددا فى بهجة وانشراح :

- «كسبنا صلاة النبى ! نهارنا فل بإذن الله !»

ثم جلس بجوارى على المصطبة حيث تقاربت رأسه من رأسى ليقبل كل منا صدغ الآخر كأننا نشرب نخب هذا الصباح الجميل غير المتوقع . لمح طاقم الحجارة المرصوفة بالمعسل موضوعا أمامى على قعر صفيحة مقلوبة ؛ ففهم . تلقائيا أننى بعثت فى شراء حشيش ؛ فمد أصابعه الطويلة المتكسرة كأرجل الأخطبوط إلى الجيب السحرى فى أسفل بطانة السترة من الداخل ؛ سحب قطعة الحشيش المبرومة كعقلة الأصبع شكلها مبهج ومريح بلونها الزيتى الغامق . قمر ، لشدة سخائه وقفافته لا يقطع بأسنانه بل يعترض على هذه العادة القبيحة لأنها تكرف التعميرة برائحة اللعاب فتفسد نكهتها ؛ إنما هو يقطع بأظافره النظيفة دائما ؛ ولهذا فتعميراته دائما كبيرة سميكة مفردة تغطى المعسل كله ؛ قال وهو يبصم :

- «مفيش حد هنا طبعاً!»

- «مفيش غير ضالح!»

- «الوحيد اللى يقدر يصحى أم يحيى ف ساعة زى دى !»

- «والوحيد اللى كلب أم يحيى مصاحبه !»

- « لا تعرف أن صالح هيصه ده ف نظرى من المنطقة؟»

- «المنطقة ١٩»

- «منطقه جايز ما يركبش مع الناس! اللى يسمعه يفكره مجنون! لكن لو

فصصت كلامه ودخلت جواه حته حته وفهمته حتكتشف إن إحنا اللى منطقنا

أعوج ومنطقه هو مستقيم!!»

هب واقفا ؛ مضى نحو الجوزات فانتقى أحلاها ؛ أمال بوصتها على الأرض
فانسربت المياه فى خيط تخين ، صار يخطط بالماء على الأرض حروفا هجائية
بالخط التث الكبير ، تابعتها فإذا هى عبارة : يا صباح القشطة . بحركة رشيقة
ملا الكوز من الزير وعبأ الجوزة ثم شد منها أنفاسا متقطعة يتخللها نفخ للماء
الزائد حتى انضبط صوتها ؛ ركنها بحذاء المصطبة وعرج على منقد النار الذى
كان على وشك الخمود ؛ بالماشة الكبيرة سحب جمرة متقدة كالرمانة ، وضعها فى
الطاسة ، برأس الشاكوش الحديد فركها ، أفرغها فى المصفاة جعل يهزها بحرفة
حتى تخلصت من التراب وتوهجت ؛ ثم جلس ممسكا بالجوزة مائلا نحوى مقربا
طرف البوصة من فمى بابتسامة غاية فى العذوبة ودسم المشاعر الطيبة ؛
- «صباح الفل» -

بامتنان شديد أمسكت طرف البوصة وضعته فى فمى بديلا عن قيامى
لاحتضان قمر وتقبيله ؛ رحت أشرب فى انتعاش وتفاؤل . حينئذ ، وفى تلك اللحظة
فحسب ، طقت الفكرة فى رأسى صارت كأنها التعميرة تحت النار الحمصية
تطشطش تتوهج تشيع فى رأسى نكهة عبقرة وإشراقة منقشة ؛ من فرط سرورى
بها تساءلت بينى وبين نفسى : كيف لم أنتبه إليها من قبل ؟ .. ذلك أننى قد
تبينت دون بحث أو مقارنة أن صديقى الحميم جدا قمر المحروقى هذا الذى أعرفه
منذ ما يزيد على عشر سنوات معرفة عميقة كاملة هو فى الواقع نسخة نظيفة
المظهر من صالح هيصة ، النسخة التى تعلمت تعليما عاليا وعاشرت نخباً عديدة
من المثقفين بغض النظر - مؤقتا على الأقل - عما إذا كان التعليم قد طورها أم
زورها ، أصلحها أم أفسدها . فى الحال راح دماغى يركض خلف هذا الاكتشاف
بحماسة مفعمة بالحرارة ؛ لقد نفيت من حسابى كون قمر المحروقى نبهنى الى
هذا بمجرد أنه مارس الآن عمل الغرزجى بحرفة ودون أى حرج ومن هنا يجىء
وجه الشبه بينه وصالح هيصة ؛ لا ، على الإطلاق ، فأنا نفسى أقوم بهذا الفعل
لأسقى قمر فى مثل هذه اللحظات الأخوية الحميمة النادرة ؛ إنما وجدتنى أتساءل

هل كان ذلك من قبيل التأثر الى حد التماهى ؟ أم أن قمر المحروقى من نفس
قماشة صالح هيصة بالطبيعة والسليقة ؟

حجر وراء حجر من يد قمر المحروقى فى أحلا اصطباحة نلتها ؛ وقمر
المحروقى يتأرجح فى ناظرى ؛ يتفكك ويتجمع ليعود فيتفكك ليتجمع مرة أخرى ؛
يتناسخ يتعدد فى صور مختلفة الأحجام والألوان منذ أن رأيته أول مرة فى حياتى
فى حى الزمالك على مقهى البرابرة ذات صبحية مشرقة كهذه بالضبط . وسيلة
التعارف بيننا كانت هى الكتاب ؛ إذ رآنى منخرطاً فى قراءة كتاب كبير ؛ وكانت
المقهى ملائنة بالكراسى الشاغرة فى جميع الأركان والزوايا حينما دخل هو
متأبطاً ملفاً جلدياً يطل منه رأس مثث من الباعة أصفر اللون ؛ لكنه تجاوز كل
الكراسى الشاغرة وانحاز لمنصدتى كائننى كنت فى انتظاره . سلام عليكم ، عليكم
السلام ، عن إذنك ؟ تفضل . عدل الكرسي المقابل وجلس ، طلب شايا بالطيب ،
راح يتصفح مجلة صباح الخير لكن نظراته لاتنى تتابعنى بشغف ؛ فما صدق أن
التقت نظراتنا حتى عاجلنى بابتسامة كالبلسم الشافى من فرط ما فيها من ود ؛
أشار الى الكتاب المفرد أمامى :

« رواية الحرب والسلام ؟ »

أدهشنى أنه عرفها دون أن يرى غلافها :

« إيش عرفك ؟ ! »

« الطبعة دى نفسها قريتها أكثر من مرة ! بس مع الأسف أن دار الفكر ما
نشرتش غير جزئين اتنين بس ! لأن إدار الخراط ما ترجمش غيرهم ! بس أنا
سمعت أن الدكتور سامى الدروبي تعرفه ؟ كاتب سورى ! مترجمها كلها ! الى
قروها قالوا إنها أحسن من ترجمة إدار ! لأن الدروبي قدر يترجم أسلوب
تولستوى نفسه لكن إدار ترجم بأسلوبه هو يعنى أنت دلوقت بتقرا إدار حيطان
عاليه مش تولستوى !! »

عرفت أنه طالب بكلية الفنون التطبيقية ، وأنه يحاول كتابة رواية لكن محاولاته
لا تعجبه ولا ترضيه فيمزقها ويريح دماغه إلا أنه مؤخراً بدأ يكتب رواية

استوحاها من حياة المثلة نجلاء فتحي حيث قدر له أن يرى الكثير من جوانبها وأن يراها عن قرب ويكشف فيها قيما إيجابية تغرى بالكتابة ولهذا يتعشم أن تكون المحاولة جادة هذه المرة . في المقابل عرف أننى ملتحق بيلاط صاحبة الجلالة . الصحافة حديثا ؛ لم أعين بعد فى أى مكان وإنما عندى وعود مؤكدة بتحقيق هذا قريبا فى جريدة الجمهورية التى أتمررن بها ؛ وأننى مثله صاحب محاولات فى كتابة القصة القصيرة غير أننى نشرت بعضها فى الملحق الأدبى لجريدة صوت العروبة ؛ قال وما صوت العروبة هذه ؟ قلت إنها جريدة لكشنان يديرها رجل أعرفه ليملاها بالاعلانات التحريرية التى يكلفنى بصياغتها مقابل نشر قصتى بجوارها .

فى ذلك اللقاء شربنا شايًا ثانيا وثالثا ، ودخنا نصف علبة سجائر كبيرة ، وأصر هو على دفع الحساب ؛ وتواعدنا على لقاء صباح الغد مباشرة . كل منا كان يضمن للآخر نفس المفاجأة ؛ وكنت أنا البادى تكريما له على جدعته أمس :
- «أنا حاسس إنك حشاش قرارى ! وعاوز أعزمك على حجرين حشيش!»

انفجر ضاحكا ؛ قال إنه جاء اليوم خصيصا ليعزمنى نفس العزومة . قلت إذن فهيا نعزم بعضنا . بتخريمة قصيرة صرنا فى قلب حوارى بولاق أبو العلا . الحى كله عبارة عن مجمع للغرز على أشكال ومستويات ؛ من الغرزة العشة إلى الغرزة المقهى الى الغرزة البيت يعنى شقة سكنية يخدمك أصحابها على أكمل وجه ترضاه لكنها مرتفعة التكاليف إذ هى متميزة بكونها مسكنا يصعب على الشرطة اقتحامه إلا بإذن من النيابة ما أن يتم استصداره حتى يكون الخبر قد وصل إلى علم صاحب الشقة فيحتاج . تاجر الحشيش لا حصر لهم ، تلتقيهم فى كل غرزة ، ويا حبذا لو كان صاحب الغرزة هو نفسه تاجر الحشيش لأنك حينئذ ستضمن تعميرة نقية ويقف صاحبها أمام عينيك مستعدا لتحمل مسئوليتها فى أية لحظة .
يومذاك رأى كل منا الآخر رؤية دقيقة ؛ دخل كل منا فى وجدان الآخر وعقله وتفاصيل حياته . حكيت له عن أهلى فى ريف الفوادية ، وعن أبى السياسى

الشاعر المطحون بكثرة العيال والكهولة وضعف البصر . وحكى لى عن أهله فى ريف المنصورة ، عن أمه الغاضبة من أفكاره من عدم امتثاله لرغبتها فى أن يدرس الطب ، عن حالة الطبيب الشاعر الشهير . منذ ذلك اللقاء لم تنقطع لقاءاتنا يوميا على امتداد السنوات الفائتة حتى عند الزلزل من بعضنا لأى سبب كنا لابد أن نلتقى لا لشيء إلا لكى يعبر الواحد منا عن زلله من الآخر بشكل عملى أحلا ما فيه صبيانته الطريفة .

الآن فحسب أنه طول عمره غريب الأطوار ، على الأقل فى نظر من لا يعرفونه جيدا ولا يفهمونه حق الفهم . ذات يوم زار كليته أحد أهم المسؤولين عن منظمة الشباب ليجرى حوارا مع طلبة الكلية . ورغم أن قمر كان - على الورق فحسب - عضوا بهذه المنظمة شأن معظم الشباب فإنه طلب الكلمة ، أعطيت له ، فإذا هو يرتجل خطبة عصماء يهجم فيها على هذه المنظمة هجوما غاية فى الشراسة؛ أبسط ما قاله فى خطبته إن هذه المنظمة ليست فى حقيقة أمرها سوى طابور خامس مهمته الدفاع عن الثورة ضد جماهير الشعب مع أن الشعب هو الحامى الحقيقى للثورة . لم يكن هذا المسؤل - ولا أحد غيره فى الواقع - يتوقع مثل هذا الكلام المبالغت فى مثل هذه المناسبة . دُهل الرجل ، إصفر لونه ، إزرق شفته السفلى ؛ لكنه ببرود الأقوياء المدربين على توريط المتكلم فى مزيد من الغلط قال له بعد أن زام زومة نفث فيها كل ما فى صدره من وعيد وتهديد : هيه ؟ وماذا أيضا؟ تكلم ! تكلم ! قل ما هو دليلك على هذا الإتهام الخطير ؟ . ولعله كان على علم تام بأن شخصية قمر المحروقى من النوع السريع الإستجابة للإستفزاز، وأن التهديد - من أية شخصية كانت - يدمر فى قفصه الصدرى كل تحفظ وتريث ؛ إذ إنبرى قائلا بجرأة يُحسد عليها إنه هو نفسه أوضح دليل على كلامه؛ إذ إنه أحد أعضاء المنظمة وقد نفر منها وانسلخ عنها لأن قياداته فلان وفلان وفلان يكلفونه بمطابقة أرهاط من الوطنيين الشرفاء وكتابة تقارير عن أدق خصوصيات حياتهم ، ولا يكتفون بهذا بل يلوجون له - فيما يشبه التوجيه الخبيث - أن هؤلاء المطلوب

التجسس عليهم من ألد أعداء الثورة يدبرون لها المكائد !! فإذا قال إنه يعرف هؤلاء الناس معرفة جيدة بحكم الجيرة أو التلمذ عليهم إتهموه بأنه صغير السن ينقصه الوعي السياسى ؛ هم باختصار يصبغون نظرتهم للناس باللون الذى يعجبهم ؛ ولقد أوهموا الشباب بالأهمية والمشاركة فى السلطة حتى صار الواحد منهم يكتب التقارير السرية المفخخة الملفمة بالمصائب عن كل من لا يعجبهم من الناس ، فكانت الكارثة مزبوجة ؛ الذين كتبوا التقارير تحولوا إلى جواسيس محترفين نوى نفوس عدوانية مشوهة تسقط تشوهاتنا على الآخرين الأبرياء مما ساهم فى خلق توتر وروح عداوية خفية لدى الناس تجاه الثورة .. والذين تكتب عنهم التقارير تنخرب بيوتهم يُزج بهم فى السجون يطردون من مناصبهم .. الخ . يومها لم يقبضوا على قمر ؛ لكنه تعرض بعد ذلك لمتاعب مضمّنية ، تحقيقات وتهديدات بالفصل ؛ لقد تعرض للمداهمة فجرا وتفتيش مسكنه عدة مرات تم اقتياده الى الحبس فى كل مرة يمكث فيه عدة أسابيع أو شهور ثم يخرج شريدا ضائقا حتى أربكوه تماما ؛ حتى زملاؤه عزلوه ، خافوا من تطرفه ، تجنبوه ، كانوا يوصلونه الى حد الجنون لولا أنه قاوم الجنون بالسخرية والحشيش ومع ذلك أورثوه جرحا لا يندمل ، حيث ظل دائما أبدا يشعر أنه مستهدف للعزل ، فكان - فى كثير من الأحيان - يبادر بعزل نفسه حماية لكبريائه ؛ وفى بعض الأحيان تتسلط عليه الرغبة فى العزلة حتى عن أصدقائه المقربين إلا أن هذا لم يكن يحدث إلا إذا راوده الإحساس بأنه غير مفهوم ، يكفى أن يستشعر فى حديثك معه شبهة أنه غامض عليك ، أو أنك لست تفهمه جيدا ، أو لديك ذرة شك واحدة فى شىء يقوله ؛ لكن الواقع أن هذه «القمصة» لا تطول أكثر من يومين يعود بعدهما إلى مرجه وانطلاقه وترحيبه المفتوح .

حادث المنظمة أربك حياته لخبط غزله إلا أنه كان عنيدا شديد الصلابة راغبا فى التحدى ، بل كان فى التحدى تحقيق لذاته . جاء عليه وقت أصبح يستهين فيه بكل شىء ، يتساوى عنده كل شىء بكل شىء ، الموت بالحياة ، السجن بالحرية ،

الرسوب بالتقدم ، النجاح بالفشل ، كله محصل بعضه فى بلدنا ؛ أصبح قليل الثقة فى كافة المثقفين والسياسيين بجميع فصائلهم ؛ هؤلاء وأولئك ينظر إليهم بكثير من الإستعلاء والرفض المطلق لكل ما يمثلونه ويدعون إليه . أصبح عديمًا صرفًا ، اعتادت نظراته على الشرود والتوهان لدقائق طويلة يشعر مرافقه خلالها أنه تركه وسافر إلى بعيد ؛ حتى إذا ما عادت نظراته إليك لمحت فيها ظلا من الإستهانة واللامبالاة ، بات عصبيا ، سريع التوتر ، سريع الغضب ، متحفزا دائما للرد على عدوان مجهول يتوقعه فى كل لحظة فى كل مكان ؛ سيما بعد أن تخرج وحيل بينه وأى وظيفة حكومية .

اهتدى الى عمل فى مكتب هندسى للإنشاءات المعمارية ؛ يقوم بتنفيذ الخرائط والتصميمات والماكينات التى يضعها كبار المهندسين ؛ سرعان ما تلونت حياته كلها بصبغة هذا العمل ؛ صار يحمل حقيبة «هاندباغ» من الجلد الفاخر ذات جيوب متعددة يضع فيها أغراضا كثيرة ؛ إذ هو بات سواحا لا يستقر فى مسكنه طويلا ؛ وفى الحقيبة جيوب لا تفتح مطلقا إلا فى أندر اللحظات اتقاء للحرر من محتوياتها التى تتنوع من لفائف طعام سوقى إلى قمصان وجوارب وملابس داخلية ؛ أما بقية الجيوب فحافلة بأوراق الرسم والورق النشاف والشفاف والمساطر والمثلثات والأقلام بجميع أنواعها وألوانها . فإذا تكلمت معه فى شىء ، فى أى أمر من الأمور ، بادرت أصابعه الطويلة بفتح جيب فى الحقيبة واستخراج النوتة الأنيقة بورقها الفاخر، والقلم، ليرسم لك خريطة توضيحية لنقاط «القضية» وأبعادها ، لتحديد مسار المناقشة ، لموقع محل بيع شئنا ، لوجه صالح هيصة .. الخ . وإذا أراد أن يحسب حسبة نقدية رسم خريطة لحركة الفلوس واتجاهاتها . وإذا امتدحت تعميته رسم لك خريطة إنتاجها فى الحقل وقدموها من لبنان رأسا . كما أن حديثه يمتلىء بالمقاييس والخطوط ونقط الإرتكاز وتساوى الأضلاع وما إلى ذلك .

بقينا على ذلك شهوراً طويلة ؛ نقدمه لأصدقائنا الجدد باسم مهندس الإنشاءات قمر المحروقي . فإن يتصادف أن الصديق نفسه مهندس إنشاءات وتناقش مع قمر في أية تفصيلات فإنه سوف ينبهر من غزارة معلوماته واتساع معارفه ؛ وأغلب الظن أن قمر سيسرح به في موضوعات فرعية شائقة تلهيه عن متابعة النقاش الجاد لبرهة إلى أن تتكفل التعميرة بصرفه عن الموضوع نهائياً . إلى أن فوجئنا به ذات يوم وقد طرأ على مظهره تغير ملحوظ ؛ خلع السترة والقميص الأفرنجي وارتدى البنطلون الجينز الأمريكي مع فائلة من الصوف بياقة مفتوحة راقدة الطرفين على الصدر ، ومن فوقها بلوفر تخين بوبرة ، يستبدله أحياناً بجاكيت شمواه رمادي اللون . صار منظره مفرطاً في الأناقة . ثم إن الحقيقة صغرت إلى ربع حجمها وإن كانت هي نفسها ؛ فلما راجعناها كشف لنا سرها ؛ إنها بنت الحقيقة الكبيرة غير أننا لغفلت التي لا نحب أن نعترف بها لم نلاحظ أن حقيقته الكبيرة كانت أربع حقائب مختلفة الأحجام مربوطة في بعضها بكبسولات خفية تسهلاً لمستخدمها في سد جميع احتياجاته التنقلية . اللافت للنظر أكثر أن قاموسه في الحديث إتسع لمفردات جديدة سرعان ما أصبح لها السيطرة . مع ذلك لم نستنتج منها أنه ترك مكتب الإنشاءات واشتغل في شركة لاستصلاح الأراضي في مقرها المركزي في مصر الجديدة وهي شركة ألمانية تعمل بأسلوب الامتيازات . بدأت قعدتنا اليومية تستوعب مفردات سيارة دارجة كالطفلة والخصوبة والجفاف والتصحر والغمر والتبقيط ، والهندسة الوراثية ، والفواكه الملقحة بفواكه أخرى ، والصوبات . الطريف أن غرزة حكيم قد انتشرت في أركانها طواجن وأصص مليئة بالتربة المروية تبرز منها نباتات وأعواد خضراء لأنواع غريبة من الزهور والورود أتى قمر ببذرتها وتولى زراعتها والإشراف عليها كأنها عياله ؛ وامتدت شجرة لبلاب سريعة النمو طوقت حلق باب الغرزة من الداخل أسبغت على المصاطب والشبابيك أوراقاً ناعسة تشاركتنا الأنفاس وتتطفل على وجوهنا وأقفيتنا فنزحها برفق وخرج مثلما نضطر للملاطفة طفل شقي سمج

فى حضور أبيه . اللافى للنظر أن صالى هيصنة كان هو المنوط برعاية هذه النباتات فى غيبة قمر ، يسقيها بعناية وحب ويحنو عليها ، يمرر أصابعه برفق على كل عود ليختبر حالته ، يبدو عليه الحزن العميق إذا تبين أن هذا العود أو ذاك صحته «مش ولابد» ، أو أن هذا الفرع - يا حرام - لا تصل إليه المياه ؛ وذات مرة صرخ فى وجه حكيم وقذفه بحجر الجوزة لأنه كسر أصيصها ليصنع منه حصوات للحجارة مع أن الأصيص كان مشروخا ؛ وقبل أن يفتح حكيم حنكة ليحتج عاجله صالح :

- «بس يا كحيان ! فاكّر نفسك معلم صاحب شغل؟ ده أنت بوزك شبه كوكع ياد ! عمل فيك إيه الطاجن ده علشان تكسره ؟! ما احنا قدامنا ميت حجر بايظين ينفعوا خصو للحجارة ! إنما أنت أصلك ما عندكش قلب ! ما تعرفش أن الحجر هو راخر بيتآلم ؟! دا انا لما باشوف حجر أنشرخ بازعل عليه ولولا الملامة أدهنه مرهم يخفف الوجع عنه ! وما يهونش على أكسره ! لازم يتكسر لوحده عشان أرضى أعمله حصو !!»

لم يملك حكيم سوى الحملة فى بابتسامته المفتعلة وبوزه الشبيه ببيوز النسناس .

على أن الاهتمام بأمر الزرع والنبات فى الغرزة قد راح يخفت شيئا فشيئا ؛ ليحل محله اهتمام بالأوانى الفخارية !! مثل الأصص والطواجن والأبرمة والأناجر وحتى حجارة الشيشة والجوزة . بدأت قعداتنا تتلون بحديث الفخاريات والخزفيات كفن راق ، إلى السيراميك . تفرعت مناقشاتنا إلى أصل الإنسان وكيف أن أبانا آدم تم صنعه من الفخار أساسا . ومناقشاتنا دائما مفتوحة على وسعها ؛ يشارك فيها صالح هيصنة وحكيم وصابر وكل الجرايع والمقاطع الجالسين دائما فى انكسار الى بعيد كالمتهمين تحتجزهم شبكة وهمية تفصل بينهم وبيننا فى انتظار حجر يبعث به قمر إليهم موصيا إياهم بأن يترفقوا فى شربه ليكفيهم جميعا . فجأة يقول صالح إن قولة العلماء هذه الأيام بأن الإنسان أصله قرد قول صحيح

مائة فى المائة والدليل على ذلك وجه حكيم . فينظر إليه حكيم نظرة تشى بغمزة حراقة إذ يشير بيده خلف ظهره قائلا :

– «الله يرحم!!»

فتفهم أنه لابد يشير إلى وجوه إخوة صالح البنات ووجه أبيه وهى نسخ ناطقة من وجه الغوريلا . إلا أن صالح هيصة يتجاوز هذه الغمزة ضاحكا :

– «أصل الدنيا أول ما اتخلقت كانت هيصة ؟ كل المخاليق شبه بعضها !»

يكفر وجه حكيم ؛ تعروه رعشة ، يشحب وجهه :

– «فضوها سيرة بقى!»

تنزوى الشلة على نفسها ، يعلو مستوى المناقشة ؛ لكنها لا تلبث حتى تخفت ثم تضمحل بقدم وafd من الشلة على غير انتظار . فى العادة يجىء القادم ومعه موضوعه الذى نتكلم فيه فى الحال ؛ إن القادم دائما يحمل للقاعدين أخبارا تبدو طازجة . أحد القادمين ذات مرة هو الذى جاعنا بخبر كان جديدا بالنسبة لنا ، على ضوئه فهمنا سر استدراجنا فى الآونة الأخيرة إلى الحديث الدائم عن الفخاريات ؛ حيث علمنا من القادم الجديد أنه زميل لصديقنا المحروقى فى الشركة ، أى شركة ؟ شركة لوتس للأواني الخزفية لها مصنع فى الفيوم ومكتب للإدارة المركزية فى الجيزة ومعرض فى وسط المدينة يحفل بأطباق السفرة والفناجين والأكواب والفازات الثمينة . فيما تلا ذلك من أيام لاحظنا أن القريحة الابتكارية عند قمر المحروقى فى حالة ناشطة ؛ كان يجلس ساعات طويلة وهو منكب على أوراق مشبوبة فى لوح من البلاستيك يسمى «البلانشيطة» ، حيث يخطط رسوما هندسية بالقلم الرصاص ذى السن الرفيع ، يكتب تحتها وحواليها أرقاما وملاحظات بالقلم الحبر الجاف ؛ ثم ينزع الورقة ليضعها فى ملف ، ويعيد الرسم بصورة أكثر تعقيدا بما يضيفه إليه من نوائر ومثلثات ومربعات حتى يبدو الرسم كمدينة تراكت بيوتها تشابكت شوارعها تكومت فوق بعضها .

عبثا حاولنا معرفة كنه هذا الذي يرسمه قمر المحروقى بكل هذا الإنهماك
والجدية والتكتم . لكننا بدأنا نلاحظ أنه بين الحين وآخر يأتى ومعه شاب جديد
يقدمه لنا بالاسم فحسب ولكن فى نبرة من التفخيم كأنه يقدم نجما لا يحتاج إلى
تعريف . إلا أن الذين قدمهم لنا - وكانوا ثلاثة - كانوا على درجة من اليسر
والثراء واضحة فى أشكالهم وملابسهم ومستوى انفاقهم والأرقام النقدية الكبيرة
التي تجرى على ألسنتهم ببساطة . ولما كنا نحن المصريين بوجه عام فى غير
احتياج لمن يعرف بنا إذ إننا سرعان ما نتطوع بالتعريف بأنفسنا بشكل عملى
مباشر؛ لذلك ما لبثنا حتى عرفنا طبيعة هؤلاء الذين بدأ قمر يصطحبهم إلى
الغزوة واحدا بعد الآخر وأحيانا كلهم معا ..

شاب قصير القامة مدكوك الجسد، مكبظ الوجه فى شيء من الوسامة
واحمرار البشرة ، إسمه : وليد رشيد ؛ أصغر منا سنا بحوالى سبع سنوات ؛
طالب فى السنة النهائية بكلية التربية الرياضية لكنه مفتون بالغناء والتمثيل ويصر
على أن صوته - هذا الضيق الكنز - سوف يحقق له شهرة فائقة فى عالم الطرب
خلال السنوات القليلة القادمة . إنه يتيم الأب ، لكنه ورث قطعة أرض زراعية
صغيرة . إلا أن حجم نفقاته ، والسيارة الملاكى الفيات الجديدة التي يركبها ،
 والملابس الفاخرة التي يرتديها كل ذلك يؤكد أنه يعتمد على مصدر مالى لا ينفد .
ولقد سهل علينا التكهّن حينما علمنا أنه من بلدة ميت رهينة ، وأنه يملك مصنعا
لورق البردى فى نواحي الجيزة . هنا ملس طلعت الإمبابى على شاربى وقال إن
هذا الشاب طالما أنه من ميت رهينة فمن المؤكد أن دارهم مقامة فوق جبانة أثرية،
أيدناه جميعا سيما وأن قطعة الأرض الزراعية الصغيرة ومصنع البردى لا يمكن
أن يحققا كل هذه الرفاهية الزاخرة لأسرة هو مجرد فرد فيها .

أما هذا الشاب الربعة القوام القمحي البشرة ذو الطابع البلدى الصرف حتى
وإن لبس هذا الجاكيت الصوف ذى الياقة المشغول بإبرة التريكو ومن تحته اللاسة
والقميص الثقيل على بنطلون من الصوف الهيلد الإنجليزي ؛ فإن اسمه : مرسى

خلاف . فى لهجته تطجين خفيف لطيف يعطى لكلامه نبرة دافئة توحى بالثقة ؛ كريم مجامل ، حلو اللسان . قدمه لنا قمر تقديم الأعلام مكتفيا بالتنويه بأنه شقيق نُصحى خلاف الذى يدرس السينما فى ألمانيا منذ سنوات ويوشك أن يعود مخرجا كبيرا . كان من السهل معرفة أن مرسى خلاف الذى يلعب بالباشمهندس درس ميكانيكا السيارات غير أنه - حسب مستواه الواضح للعيان - لم ينل أكثر من دبلوم صنایع ؛ ومن الواضح أنه موظف بإدارة المرور فى إحدى وحدات التراخيص . هو سريع الإلتحام بالآخرين بموهبة يعجز عنها نصاب دولى كل همه وتركيزه أن يستحوذ على ثقتك فى دقائق معدودة ؛ لدرجة أنه فى أول لقاء بيننا أجرى فى القعدة عملية تنقلات تمت بسلسلة لكى يجلس بجوارى ، ليعرض على فكرة تتلخص فى أنه ينوى إصدار كتاب إرشادى عن كيفية صيانة السيارات يكون عنوانه : (كيف تصلح سيارتك بنفسك) ، يشرح فيه تكوين محرك السيارة بالتفصيل وعلاقة كل جزء فيه بالآخر ، وجميع أنواع الأعطال وكيفية التوصل إلى العطل الأساسى مباشرة ثم كيفية إصلاحه دون الرجوع إلى ورشة ؛ لهذا فهو يطلب منى خدمة أخويه : أن أصيغ له هذا الكتاب صياغة بلاغية سهلة يفهمها كل الناس ؛ إلا أنه لفرط ذكائه وطيبه روحه أدرك من أول وهلة أن مبتغاه ليس عندى فانسحب فى هدوء دونما غضاضة .

بقى هذا الشاب الزعزوع ، ذو الشعر المتهدل على جبينه فى خصلة طفولية كثيفة من الجانب الأيسر . ملامحه كلها طفولية الى حد ما ؛ يتأثق فى ملبسه عن عمد ، بالقمصان المشجرة بألوانها الزاعقة أعلى صوتا من النوق النسوانى القارح، والبنطلون الكاروهات بألوان فاقعة أيضا . اسمه : وجدى الوكيل ؛ تظنه لأول وهلة من عائلة زينب الوكيل زوجة النحاس باشا وهى عائلة كبيرة مهيبة ثرية غنية عن التعريف ؛ لكنك بعد دقائق معدودة من جلوسه معك ستنتفى انتماء لهذه العائلة ولأى عائلات على الإطلاق ؛ إنما هو محض تشابه فى الأسماء أراد هو استغلاله من جانب خفى بالإيحاء عن طريق الإفراط فى الأناقة وسبسية الشعر

للإيهام بأنه ابن ناس طيبين . هو طيب ما فى ذلك شك ، غلبان ، إنما كسَّيب ويشكل يحسد عليه كالمرزوقين المحظوظين لله فى الله دونما جهد يذكر أو مواهب استثنائية . كل مواهبه تنحصر فى أنه ببيع شاطر، متخصص فى بيع الأحذية الحريرى ، تتقاتل عليه محلات وسط المدينة ومصر الجديدة بدعوى أن فى وجهه القبول ؛ بالفعل فى وجهه فى سلوكه فى كلامه فى صوته نعومة فطرية يسرى خدرها فى النساء بمجرد النظر ، صبية كانت أو عجوزا شمطاء ؛ يستحيل على أى سيدة أن تدخل المحل وتخرج دون أن تشتترى ؛ بل إنه قد يناديبها بلطف وهى مارة من أمام القترينة ؛ إتفضللى يا هانم ؛ فحتى لو لم تكن تريد الشراء من الأساس فإنها فى تسعين فى المائة من الحالات تستجيب للدعوة فى الحال فتدلف إلى المحل تتعثر فى خجلها أو تتيه من الزهو . يتسلمها وجدى ليجرى معها - تقريبا - عملية جنسية كاملة تفتن الفتاة المراهقة وتشعل نشوة من فاتها زمن الدلع ؛ يجلسها فى حفاوة بالغة النعومة حافلة بالملامسات العفوية الساخنة، يدخل المخزن فينتقى لها الموديلات التى يدرك بموهبته بحدسه بخبرته أنها الموديلات الملائمة لها بل التى تحلم بها على وجه الدقة ؛ ثم يقعى أمامها فى رشاقة لتصير كل مفاتن القلعة الحصينة الخبيثة قيد عينيه مباشرة ؛ وإن لهما نظرات متبلة حانية تذيب صداً القلوب تثب فيها رعشة طازجة مثيرة كطراجة المغامرة ؛ ثم تأتى عملية الإمساك بالقدم اللساء الناعمة لوضعها داخل الحذاء بحنية فائقة ، يد تقبض على سمانة الساق ويد تُدخل الحذاء فى القدم، ثم تشبك لسان الأبريم ، وينتقل إلى الساق الأخرى ، ويمسح بيديه على القدمين فى لمسات يقصد بها توصيل مدى افتتانه بصاحبة هذين الساقين العظيمين وما أضيفاه على حذائه من شرف . هى فى الغالب لا تلزع الحذاء ؛ تطلب أن يلف الحذاء القديم فى ورقة الجديد ؛ لن تفاصله فى السعر مطلقا ؛ بل تعطيه فوق السعر المغالى فيه بقشيشا سخيا ، ذلك أنه وقد استلقت منها ثمنا باهظا فإنه على الأقل أعطاها حذاء متينا بمعنى الكلمة يظل محتفظا بقيمته لسنوات . لهذا فهو لا يعمل بالأجر ؛ إنما يعمل

بالعمولة المجزية ؛ فادخر رصيذا فى البنك يسمح له بافتتاح محل خاص به فى وسط المدينة لكنه لا يريد لأنه هكذا يكسب فى الواقع أضعاف أضعاف ما يكسبه صاحب المحل بعد مصاريفه الكبيرة .

كان من السهل كذلك أن نعرف ما الذى لمّ الشامى على المغربى . ذلك أن قمر المحروقى أثناء فترة انهماكه التام فى الرسوم الهندسية إياها ؛ قد توصل إلى اختراع ماكينة لتصنيع الطوب الحرارى ، تلقمها مادة الطمى أو الغرين أو الطين المخلوط بالتبن فتتولى هى تسويته فى قوالب تمر فى داخلها بمرحلة للتجفيف بعد التصنيع ثم مرحلة الحرق الكهربائى أو التحمير ، إلى أن ينزل القالب مستطيلا من الحمرة الناشفة المتجمدة كالحجر ؛ مع ملاحظة أنها تنتج ألف قالب كل ثلاث ساعات أما إذا أردنا معدلا أكبر فعلىنا أن نصنع نفس التصميم على حجم أكبر . وقد بحث قمر المحروقى عن ممول لتنفيذ تصميمه فوجده فى هؤلاء الشبان الثلاثة : وليد رشيد ، مرسى خلاف ، وجدى الوكيل . ولقد حسدنا قمر فى الواقع على عقليته العلمية النيرة وقدرته هذه على الابتكار ؛ لكننا زعلنا منه جدا ، واندھشنا من قدرته على التكتّم وفرض الحصار على مشروعه ليمضى فى سرية تامة دون أن ندري نحن شلته القديمة المخلصة ؛ وصحيح أن الشبان الثلاثة كانوا حين ينسطلون جيدا تزلّف ألسنتهم بكلمات مبهمّة عن المشروع وما ينفع المشروع وما يضره إلا أننا لم نعن بالتوقف عند هذه الكلمات ؛ ولولا أن المشروع برمته قد فشل واكتسح فى طريقه كل مدخرات الشبان الثلاثة ما قدر لنا أن نعرفه . إنما عرفنا بخبر الاختراع من شدة ما أصابهم من حزن وإحباط وما طرأ على بعض سلوكياتهم من غلظة وخشونة . كانوا مقتنعين تماما بسلامة الاختراع ؛ وقد نفذوه بكل دقة فى إحدى ورش الخراطة الكبيرة ؛ اشتروا كل ما يحتاجه من معدات، بنوا قاعدة محكمة لتثبيت الماكينة فى الأرض التى اختيرت لها بعناية فى إحدى قرى الفيوم ؛ تم تركيب الماكينة بالفعل ؛ تم توصيلها بالكهرباء ؛ لكنها لم تتحرك مطلقا . يومها أخذوا صالح هيصة ليناولهم بعض الأشياء يعاونهم ببعض

الخدمات؛ فلما رأهم جميعا يقفون حائرين غير قادرين على فك شفرة التشغيل -
بمن فيهم المخترع نفسه - تقدم من الماكينة راح يتفحصها يتذكر وحداتها قبل
تركيبها ؛ وأخيرا سلم أمره لله ونطق :
- «المكنة دى ناقصة يا أستاذ قمر!»

تبادلوا نظرة سخرية تنضح بالمرارة والحرص تكاد تنطق بعبارة : «ما بقاش الا
أنت كمان يا هيصة عشان تقول رأيك فى تصميم هندسى!». ليس مهما أن تلفت
هذه النظرة نظر صالح هيصة فإنه يدركها بالغريزة ويتوقعها بادى ذى بدء كما
وأنة اعتاد ألا يهتم برأى الناس فيه سواء بالسلب أو بالإيجاب إذ هو لا يتعامل إلا
مع القلوب فحسب وإنه لخبير بها لا يخطئ تقديرها أبدا . لهذا تجاهل النظرة
الساخرة فى عيون قمر وشركائه ؛ إفتقر ثغره عن الإبتسامة الدمثة الخجولة :

- «عدم المؤاخذه يا قمر بيه ! معلش يا جماعة خونى على قد عقلى ! المكنة
دى حسب مفهوميتى ناقصها حاجة صغيرة ما تسواش مليم بس مهمة لدرجة أن
الإختراع من غيرها ما يبقاش اختراع ! قمر بيه وهو بيبخترع المكنة دى !معلش
القلم بيغلط برضه ! نسى يعمل حاجة تربط التروس ببعضها عشان كل ترس
يشغل التانى !»

- «ترس إيه يا راجل يا مخروق ؟! هى دى مكنة فيها تروس ؟!»

- «يمكن فاكرها مكنة طحين!!»

هكذا قال مرسى خلاف وعلق وجدى الوكيل ووليد رشيد . أما قمر المحروقى
فقد غطست عيناه فى المحجرين ! الغائرين ووقف صامتا مذهولا . ضحك صالح
هيصة :

- «ما هو ..! دلوقتى ! .. الكهرباء وصلت والمكنة دارت أربعة وعشرين قيراط!
.. لكن تلقمها المونة ماتسحبهاش تفضل تطرطش علينا لحد ما تخلص ! يعنى فيه
حاجة جوه المكنة الكهربا مش واصله لها ! يعنى يبقى الماتور بس هو اللى بيشغل
والمكنة لا ! إيه السر بقى ؟ ده اللى أنا ما أعرفش أقوله !!!»

أخيرا دبت الحياة فى جسد قمر المتخشب؛ راح يلوح بالسبابة وقد شحب وجهه فيما يردد بصوت خافت من ريق ناشف:

- «فعلاً! مطلوب! صالح هيصة كلامه صح! براقو عليك يا هيصة! أنا عرفت النقص اللى فى المكتة!»

فتح الحقيبة؛ سحب الخرائط، تفرص منكبا عليها يتفحصها - أخيرا هب واقفا فى صيحة انتصار عارمة:

- «العيب فى التصنيع مش فى التصميم! كل حاجة عندى هنا معمول حسابها من طقطق لسلامو عليكم! أتحدى! وأدى حركة التشغيل أهه مرسومة على الورق خطوة خطوة!»

وضع مرسى خلاف يديه فى خاصرتيه سائلا فى برود شديد:

- «والحل؟!»

«لا بد من فكها ومراجعتها حته حته!»

أنفقوا شهراً طويلاً فى فك وتركيب وإعادة فك وتركيب؛ وفى النهاية كوموها فى حوش دار وليد رشيد فى ميت رهينه فى انتظار بيعها لتاجر الخردة؛ وقد تحمل وليد أكبر عبء من الخسارة لأنه كان أكثرهم حماسة لتنفيذ المشروع من ناحية وأكثرهم يسرا من ناحية أخرى. العجيب أنهم لم يفقدوا حبهم لقمر بل إنهم وقعوا أسرى فى هوى شخصيته التى لامست فى كل منهم جانب الولد المغامر.

قبيل ذلك الحادث كان قمر المحروقى قد لبى دعوة صديقه - وصديقنا - طلعت الإمبابى، لحضور بعض الأنشطة الثقافية التى يقيمها المركز الثقافى السوفييتى من ندوات وعروض أفلام روسية وحفلات موسيقية؛ فإذا هو يكتشف فى هذه الأنشطة فرصة للتعبير عن نفسه بحرية وقول ما لا يستطيع قوله فى مكان آخر، فواظب على الحضور بانتظام لفترة كانت كافية لأن يتعرف فيها على محاسن

عاصم شقيقة صديقنا أحمد عاصم التى كانت موظفة فى هذا المركز . فمحاسن عاصم كانت طالبة فى كلية الآداب قسم تاريخ ، إلا أنها ولوعة باللغة الفرنسية وكل ما هو فرنسى ، فانتسبت إلى بعض المعاهد لدراسة اللغة الفرنسية فتألفت فى ذلك وقتا وجهدا وما لأوأصابها فوق ذلك تشتت ذهنى حاد . مكثت فى السنة النهائية بقسم التاريخ عدة سنوات؛ فلما بنست من النجاح أهملت الدراسة مؤقتا والتحقت بهذا المركز بمرتب مقنع.

محاسن عاصم بنت طيبة جدا كما يؤكد المقربون منها من أصدقائنا؛ طيبة إلى حد أنها تترك انطبعا بالعبط فى نفوس المتعاملين معها . كل عيبها أنها تفكر ببطء شديد مع أنها سريعة الفهم؛ تتكلم بصوت بطيء خافت ، لسانها يتعثّر فى نطق الحروف الأجنبية منذ الصغر مما يجعلها تبدو كخوجاية متمصرة ، وفضلا عن ذلك فإنها ليست جميلة كأخيها أحمد؛ وجهها ساذج يفتقر إلى التناسق مع شدة بياضه واحمرار خديه ؛ أما جسدها فقريب من جسد الصبيان لا يثير بل لا يلفت النظر أصلا حتى بالنسبة لعشاق الطابع الغلامى فى الأنثى ، ربما لهذا السبب لم يكن لها أى علاقات مع أى من الشبان باستثناء العلاقات العملية وهى فى هذه الحدود طيبة ومريحة إلى أقصى حد . ما أن التقاها قمر المحروقى حتى أسلس لها قياده وأسلس له قيادها بشكل تلقائى ، إن هى إلا عدة مقابلات فى أماكن شبه رومانسية حتى اكتشف كل منهما نفسه فى الآخر بشكل واضح سريع حاسم ؛ أنس كل منهما للآخر واستراح ؛ تلاقت وجهات نظرهما فى الحياة فى الفن فى الناس.

أخيرا تنفس الأستاذ مصطفى عاصم الصعداء ؛ ها هى ذى ابنته محاسن - بعد طول يأس - تقاتحه فى أمر عريس ينوى التقدم لها . سأل ابنته سؤالا واحدا : هل تحبينه وتقتعين بشخصيته؟ . قالت بحماسة حاسمة : طبعاً طبعاً!.

قال : على بركة الله فليتفضل . ولكن من باب الإطمئنان سلط ابنه أحمد ليجمع بعض التحريات عن قمر المحروقى ، فتم تدبير هذه التحريات فى قعدة من

قعداتنا فى الحارة أمام الراية وسط ضحكات تقطر مرحا وصفاء ، ووصلت إلى الاستاذ مصطفى تؤكد أن «الولد» لابس به من حيث الرجولة من حيث القدرة على الكسب من حيث تحمل المسئولية - إتصل قمر بخاله الطبيب الصبغى المخضرم - الذى كان لاسمه أكبر رنين فى عائلة الأستاذ عاصم جعلتها أكثر مرونة - وطلب منه الفصل بينه وبين أمه فيما يختص بحقه فى الميراث . وحلاً للإشكال اشترى خاله نصيبه فى قطعة الأرض الزراعية، أعطاه بضعة آلاف تعد على أصابع اليدين؛ تمكن من تدبير شقة محترمة فى تخوم شارع أحمد عرابى بحى المهندسين . تكفل الأستاذ مصطفى عاصم بمعاونة ابنته على تجهيز عفش للشقة على نحو مشرف . بين يوم وليلة أصبح قمر المحروقى زوجا مطيعا سلساً لمحاسن عاصم - بين يوم وليلة أخرى أصبح أباً لبنت أسماها داليا - إلا أن حماء لم يعجبه تنقله المستمر من عمل إلى آخر ؛ توسط له لدى بعض تلاميذه الأساتذة بالجامعة الأمريكية؛ ألحقوه بوظيفة اختلقوها له اختلاقاً : خبير؛ بهذا اللقب المطاط يحصل على مرتب معقول ؛ أما وظيفته العملية فهي مساعدة فرقاء الباحثين فى تجميع المواد، أو المفردات الميدانية والشعبية لإدراجها ضمن قاموس تعده الجامعة الأمريكية : إنجليزى - عامية مصرية.

على أن قمر سرعان ما ضاق بالحياة الزوجية؛ بدأ يستشعر عمق الفواصل الجوهرية بينه وبين زوجه ؛ يستشكف اختلاف طبيعتهما فى كل شيء - سرعان ما تقطعت الأسباب بينهما شيئاً فشيئاً ؛! إنسدت المسالك ؛ أصبح يقضى النهار كله ومعظم الليل خارج المنزل ؛ عاد إلى وحدته من جديد، حتى فى البيت ينام وحده على حشية فوق الأرض لأنه فى الأصل يمقت نوم الأسرة . مع ذلك استمرت الحياة بينهما بفضل صبر محاسن وطول نفسها وقدرتها على الاحتمال خاصة أن قمر كان يعطيها حقها وكامل احترامها كزوجة؛ ولكنه لا ينسى - ولا هى تنسى - أنها هى الأخرى كانت أميل منه إلى العزلة والإنفراد بالنفس لساعات طويلة نون ملل.

- « إ ي ي ي ي لحا .. ا .. قُ !! »

هكذا أطلق صالح هيصة صيحته بمجرد دخوله ورؤيته لقمر فى هذه الصباحية ، فكان لصوته العريض المرح رنين حميم مؤنس ، عبارة «الحق» هذه تخرج من فم كل من صالح وقمر مشبعة بالدفء والمودة والفرح ..

- « إ ي ي ي ي لحا .. ا .. قُ !! »

هكذا رد عليه قمر بسوقية مقصودة متقنة لحميميتها .
قال صالح وهو يسلمنى ربع القرش الحشيش مكفنا بالورق الأحمر القاتم:
«حضرتك عليك فلوس لأم يحيى ؟!»

شكنى دبوس الورق فى يدى وهى تستند على ملف قمر .

قلت فيما أطرقع أصابعى فى بعضها موحوا متألًا :

-«عشرة صاغ أول عن آخر ! هى سألتك؟!»

- «أصلها بتقول لى لمن الحشيش قلت لفلان بيه

قالت لى «قول له أم يحيى بتسلم عليك !»

- «بس كده ؟!»

- «ما هى أم يحيى ما تسلمش على حد لله فى لله !!»

- «كان لازم تقول لها إن الحشيش لى ؟!»

- «ما أنت عارف يا بيه انى ما أعرفش أكذب!»

ثم لاحظ أن قمر هو الذى يتولى السقيا وأننى ألح عليه لكى أمسك له الجوزة حتى يشرب حجره براحتة ، فنظر إلينا مبتسما ثم اختص قمر بنظرة تقدير على إتقانه للصنعة ثم مضى نحو الباب:

- «أصحى لكم الواد صابر من النوم!»

فاستدار إليه قمر صائحا فيه برجاء وقد اكتأب وجهه فجأة لمجرد أن القعدة
سيضاف إليها شخص رابع :

- « إعمل معروف مش عايزين حد ! إحنا كده تمام ! هما الحجرين دول
وحنقعد نقرأ ! »

امتثل صالح وقد ظهر على وجهه أنه يتفهم الموقف؛ اخترق الكراكيب
والحجارة إلى ركنه ؛ جلس فوق حشية القش الكالحة ؛ استأنف تنظيف
الحجارة.

المتاع المحرم

مدرسة معروف الابتدائية - التي لاتزال باقية توحد ربها إلى اليوم - طلع منها عيال أصبحوا من العظماء ؛ منهم الصحفي الكبير ، والممثل النجم ، ولواء الجيش ، وعميد الشرطة، والطبيب والمهندس . ومنها أيضا - من هذه المدرسة - طلع صالح هيصة الذي لم يصبح أى شيء على الإطلاق ومع ذلك يحقق شهرة مدوية لدى جميع الحشاشين يعنى حوالى ثمانين في المائة من رجال وشبان الشعب القاهرى. ولكن : مشهور بماذا ؟ بأى صفة بأى مجد ؟ بأى شيء ؟ هذا ما لا تملك إجابة عليه ؛ إنما هو مع ذلك مشهور والسلام ، هكذا دون أن يسعى إلى ذلك بل دون أن يسعده ذلك.

كل من زاملوه فى مدرسة معروف الابتدائية ظل إلى الآن يعرفهم واحداً واحداً بالاسم واللقب . هم من المؤكد أنهم نسوه تماما . فطبقا لرواية صالح هيصة نفسه عن نفسه عبر قعدات ومناسبات وليال قمرية لاحصر لها مع نكهة الحشيش المحترق على نار مسمومة مثلما تحترق لحظائنا الحاضرة على لهيب الذكريات الحميمة وإن مؤله .. أنه قد حصل على الشهادة الابتدائية من هذه المدرسة التي تسمعنا جدرانها الآن على مبعدة أمتار قليلة من غرزة حكيم . وما أدراك ما الشهادة الابتدائية فى ذلك الزمان من أواخر الثلاثينيات؛ كانوا يدرسون فيها روايات باللغة الإنجليزية قصة مدينتين لتشارلز ديكنز لعل البهوات يعرفونه ، ومسرحية الملك لير لشيكسبير ولا بد أنكم على علم به لأن اسمه يتردد فى الصحافة باستمرار؛ يدرسون يعنى يدرسون ، يعنى يقف التلميذ فى حصة المطالعة ويقرأ صفحات من الرواية بلغة انجليزية سليمة ثم يشرح ما فهمه منها؛ صالح هيصة نفسه اشترك فى تمثيل دور فى مسرحية الملك لير حين مثلها التلاميذ

- فريق التمثيل بتاع المدرسة يعنى - فى احتفال التخرج . إنه لايزال يحفظ بعض مقاطع منها إلا أنه لا يحب الفلحسة :

- «ايه يعنى لو الناس عرفت انى باعرف انجليزى ! طظا!»

إنما هو يكون منشكحا على الآخر حينما يستلوجه بعض الأفندية الخريجين من أبناء هذه الأيام فيتحدثون أمامه بالإنجليزية ظنا منهم أنه لوح لطرانة لا يفهم ما يقولون؛ فلا يجد وسيلة يفش فيها غليله سوى الضحك السايب مما يؤكد لهم تصورهم الخاطيء عنه بأنه مجرد عبيط أهبل بتاع هيصة وزمبليطة . يكون الود ود لو أنه صحح لهم نطق المفردات الإنجليزية التى يرددونها كالببغاوات دون أن يعرفوا نطقها الصحيح أو أماكن استخدامها . كثيرا ما لحق نفسه على آخر لحظة قبل أن يراجعهم ناطقا بالنطق الصحيح للكلمات ، فيمنع نفسه من النطق حتى لايعطيهم فرصة الاستهزاء به والتصافق عليه وتكون النتيجة أن يعمل معهم هيصة كبيرة قد تنتهى بتفتيت دماغ أحدهم وفتح كرش آخر ؛ لكن الأهم من ذلك أنه يحب أن يبقوا على عماهم لكى يعرف حقيقتهم أكثر ..

- «أكبر مصلحة ليك يا بيه إن اللى حواليك يتعاملوا معاك على إنك مفهوميتهك على قدك!! حيبقوا حلوين معاك وآخر فل ! بالهم يطمئن من ناحيتك ينسوك يسيبوك فى حالك وده أول مكسب ! يتكلموا على راحتهم قدامك ! يفتحوا أبوابهم المهجورة ! يخشوا فى الجخانيق والأوض اللى هما دافنين فيها حاجات كتير يمكن جثث قتلوها يمكن حاجات وسخة عملوها أو اتعملت فيهم يمكن يمكن يمكن ماتعدهش !! إنت كمان تخليك جدع برضه ! تسمع ويس ! إوعك تعلق بأى كلمة خليك لمؤاخذة واللوح واحد !! تسمع عشان تتعلم تعمل ده ومتعملش ده وإن عملته تعلمه ازاي وليه وعشان إيه ! إجمع واطرح واضرب بينك وبين نفسك عشان تعرف حقيقة البنى آدم اللى قدامك يستاهل انك تصاحبه بإخلاص وإلا ترميه فى الزبالة وتخلص منه قبل ما يكلفك خسارة مالهاش لازمة ؟! على فكرة ! الاستلواح من غير مؤاخذة فن ! يعنى لازم نتقنه !أنا مثلا لما باعرف حقيقة البنى آدم من دول

إذا كان يساوى الاحترام احترامه على الآخر ! وإذا كان ما يساويش ما اخليهش يعرف إنه فى نظرى ما يساويش ! لأنه لو عرف أبقي أنا لوح لوح بحق وحقيقى ! إنما اللوح الذكى ما يسبنيش ! ولو بين غصب عنه ! يبقى كسب عدوه ! طبعاً لأن التانى مهما كان حيتفاظ أما يحس انك مستصغره أو محتقره ! أنا أحتقره جوايه آه ! وإذا كان له عندى خدمة أعملها له أربعة وعشرين قيراط ! لكن بقى إذا هو حب يعمل نص افرنك ويتمنظر على حاعرّف أوقفه عند حده !! شوف يا بيه! إنت يهكم تعرف حقيقة البنّى آدم على الأقل عشان واحدة بس ! إزاي تتقى شره ؟! وحقول لك إزاي ؟ ما هو طول مانا باسمع وساكت باخش الأوض الضلمة بتاعتهم واتفرج عليها ! يعنى معنة كلامى حابقى عارف مكان الدامل اللى ف جسم كل واحد ! ما ألتهاش ! وابقى شايف السكك الضلمة اللى جواه ! ما أهويش ناحيتها ! ما هو يا بيه خلى بالك : الشر كله ماشى فى الشارع مزالمك فى الشغل قاعد معاك على القهوة ويمكن بيبات معاك على سريرك ! بس مكنون عنك! إمتى يقلب عليك ويهاجمك ويورك العين الحمرا ؟ توّ ما يحس انك بتعرف ! بتفهم ! بتشوف ! خلاص بقيت عدوه رقم واحد ! إنما لو انت ذكى حتعرف إن قدامك سكتين اتنين مفيش غيرهم قدام الشر ياتكون قده وتقدر تواجهه وتقاومه وفى الحالة دى حينفعك اللى انت اشتريته وانت ساكت بتسمع ! ... يا إما تكون أضعف منه ولازم تسالنه على طريقة المصريين الأصلا وفى الحالة دى برضه حينفعك اللى انت اشتريته يعنى تعرف الدامل فيه .. وإيه ؟ ماتلتهاش !!».

ثم يخلد صالح إلى الصمت برهة طويلة؛ ثم يستدرك : - «كان فيه راجل اسمه الحال ! .. أبوه أبوه سماه كده : الحال ! .. الحال ده إتجوز ! خلف ولدين : صلاح الحال .. وفساد الحال !! صلاح الحال اتجوز ! خلف ولد واحد سماه : كلا مفروض !! فساد الحال هو راخر اتجوز ! خلف ولدين : الأول سماه ميل الحال! والثانى سماه وقف الحال !! كلام مفروض ده كان راجل طيب وابن حلال مصفى بس عيبه إنه طول ما هو نضيف وحقانى وفاعل خير حيعيش فى أمان والرزق

يجيله وماحدث يقدر يضيحه ! وكان معتمد فى قوته كلها على قوة أبوه صلاح الحال اللى كان أكبر سند ليه !! .. ميل الحال ووقف الحال ولاد عمه استهيفوه قالوا كلام مفروض إيه الغبى ده ، هو فيه فى الدنيا حاجة اسمها كلام مفروض !! المهم احتالوا عليه خدوا ثروته يشغلوها له فى التجارة ! جابوا أجله وكلوها !! وفضيوا الاتنين لبعض : ميل الحال يدبر لوقف الحال عشان يقضى عليه وياكل ثروته !! لكنه كان أغبى من ابن عمه كلام مفروض ! راح بسلامته اتصافى واتصاحب مع وقف الحال ! وقف الحال ده أكبر نصاب ! ابن عم الريح والنار والتلج ! قال لك من ناحية أتقى شره ومن ناحية تانية أستعين بيه ! صاحبنا كسحه ! ومن يومها والدنيا على دى الحال : وقف الحال متصاحب على أغلبية الناس وغفلان عن شلة الهلبة وأهى ماشية ! لمؤاخذه أوسخ كلمة باسمعها ف حياتى كلمة أهى ماشية !!»

ما أن حصل صالح هيصة على الشهادة الابتدائية من مدرسة معروف العتيدة حتى كان قد كره الشهادة إكراما لخاطر من يحملونها . كلهم كانوا يتأففون منه، يفترضون فيه العدوانية مسبقا ثم يعاملونه على هذا الأساس متوهمين أن الولد مادام فقيرا معدما أسود الوجه رث الثياب خشن الملمس فلا بد أن يكون بالضرورة شريرا قليل الأدب والتربية .

فى البداية حاول أن يتوظف بالإبتدائية ؛ أرسل عدة طلبات إلى جهات كثيرة حكومية وأهلية يستعطفها يرقق قلبها من أجل الأسرة التى يعولها؛ ولكن لاهية لمن تنادى وأخيرا زهق من شراء ورق الدمغة الذى لابد أن يلصقه على الطلبات ؛ فامتنع عن مخاطبة أية جهة بل وطن نفسه وبإصرار عنيد على أن يرفض الوظيفة حتى لو جاعته لحد عنده من تلقاء نفسها . راح يتخبط فى عديد من المهن، أطول وقت أمضاه فى مهنة كان خمس سنوات فى مهنة التجارة، ولذلك فهى المهنة الوحيدة التى أتقنها ويات قادرا على تفصيل الدوايب والأسرة والكراسى وتصنيعها . إلى أن طلبوه للتجيد ، فذهب إليه فرحا مستبشرا مع أنه يكره النظام والشدة فى المعاملة .

وعند نهاية كل مدة كان يطلب التجديد لمدة أخرى كمتطوع . راتب الحكومة
يمكن ادخاره كله مادام الأكل والشرب والنوم والكساء مكفول له من الجيش ،
ناهيك عن بقشيشات تضل طريقها إليه من حين إلى حين .

من فرط عشقه لنهر النيل ، الذى يعتقد بأنه دون كافة الأنهار فيه شئ لله ،
كان لا يصبر على الشوق إليه يوما واحدا ؛ فثمة موعد ثابت أصيل كل يوم لابد
أن يحققه . ما أحلا أن يرتدى الجلباب الأبيض النظيف والعمامة الكبيرة البيضاء
يحمل سنارته وطعومه يحج سيرا على الأقدام إلى شاطئ النيل خارج المدينة ،
يجلس على نفس الصخرة فى هذه البقعة النائية التى لم يكن يعرف لماذا تجذبه
دون بقية البقاع على هذا الشاطئ الطويل النعسان؛ هل لأن الصخرة عالية عن
سطح الأرض بما يوازى طول شجرة فارعة وهو طول يمنحه الأمان من قفزة
تمساح غادر يشده هابطا به إلى القاع ؛ أم لأنها صخرة جميلة ناعمة السطح
عريضته وإن حفلت أضلاعها بالنقوش الغامضة كعمود بقى من قلعة سلطانية
قديمة كانت هنا ذات يوم ؟ أم لأن سطحها العارى يعتبر مملكة لامثيل لمتعتها
حيث يتسع سطحها لتربيعة ومخلاته المزودة بطعوم الصيد وسبرتاية وبراد وكوب
وعلبة شاي وسكر وعلبة تبغ فرط ، وحيث تمتد البوصة الطويلة المكونة من قصبات
يمكن فكها وربطها بقلالووظ معدنى وفقا للمسافة المطلوبة طولاً أو قصراً ، وقطعة
الفلين فوق الموج البعيد تتراقص . كالبهلون غاطسة صاعدة تشى بغمزات مظفرة
تحت الماء ؟ .. لا ، ليس هذا وحده كل ما يجذبه إلى هذه البقعة بكل هذا الشوق
العارم لدرجة أنه يشتااق إليها كلما أنذره الليل بانتهاء فسحة الصيد ، إنما
الجاذب الأكبر كان قابعا فى هذا الكوخ المبنى بالطوب الأخضر على مسافة أمتار
قليلة من صخرته . فمن قعدته فوق سطح الصخرة يصير أعلا من السور الخلفى
للكوخ ، حيث يحتاط السور بحوش واسع غير مسقوف تقوم فيه شجيرات بين
أحواض مخططة على الأرض مزروعة بالجرجير والبقدونس ، وتمتد فى ركن منه
حبال غسيل ، وفى ركن آخر تحويطة ملائنة بالبط والأوز والدجاج . يستطيع صالح

من قعدته أن يرى مكونات الكوخ من الداخل ابتداءً من بابه المطل على الحوش إلى المر الفاصل بين أربع حجرات فى صفيين متقابلين وينتهى ذلك المر بتقفيفة للكنيف . لقد أصبح كائه يعيش بين هذه الأسرة، يستطيع أن يميز أن هذا الرجل الطويل الممتلىء هو صاحب هذا الكوخ وأنه قد وضع يده على هذه المساحة من طرح النهر ، وأن هذه المرأة المصوصة البدن التى ترضع طفلا ويركب على كتفها طفل ويتعلق بذيلها طفل ثالث هى لاشك زوجته ، تظل تصرخ فى زربة عيال حتى لايقربوا من النهر وإلا خطفهم تمساح ، أما هذا الملاك النوراني، هذه الفتاة المشدودة القوام كالضابط، المفسرة الملامح والقسمات فى الوجه وفى الجسد بصورة تكاد تكون مثالية فلا بد أنها شقيقة ذاك الرجل ، فالسمت واحد ، وحتى المشية متشابهة الإيقاع كأن أحدهما يقلد الآخر . لقد عرف من مناداتهم لبعضهم أن اسمها وهيبة وأن الزوجة اسمها أم الحسن وأن الزوج اسمه مكى . حين تتكلم وهيبة كان صوتها يأخذه من قطعة الغلين الغمازة، يصير قلبه مثل هذه الغمازة كلما هدهده صوت وهيبة يرن فى جنبات الكوخ.

كان صالح يدرك أن صاحب الكوخ قد راقبه طويلا من جانب خفى وتأكد من أنه مؤدب لايقصد شيئا سوى الصيد ، كثيرا ما كان يمر بجواره لغير سبب واضح فيقول : «حبابك عشرة» فيرد صالح بود عميق : «حبابك ميه» . مرة فى مرة صار صالح يدعوه لكوب من الشاى على الواقف حيث يتبادلان الحديث وقد بدا على مكى أنه شعر بالفرح والإطمئنان لما عرف أن صالح من مصر ؛ قال له إنه هو الآخر يكاد يكون مصريا صرفا، إذ هو مولود فى شلاتين المصرية وله شقيقة أكبر منه متزوجة فى مصر وأخ أكبر منه أيضا يعمل بوابا فى عمارة بالزمالك؛ أما كيف جاء هو إلى هنا فذلك قصة طويلة ، مع ذلك حكاهما له فيما هو مرتكن بكوعه على الصخرة ممسكا بكوبه الشاى : كان لمكى عم مقيم فى شلاتين المصرية يعمل بستانيا متخصصا فى تنسيق ورعاية حدائق القصور : هذا العم كان قد أنجب بنتا واحدة عقب هوجة عرابى بوقت قليل ، وصل عمرها إلى سن العشرين

تقريباً وأبوها مصمم على تزويجها من موظف حكومي بمرتب ثابت؛ إلى أن جاءه الموظف بالفعل ، رجل كان متطوعاً في الجيش ثم أصبح متطوعاً في الشرطة وكان من حلايب لكنه رأى البنت في سوق شلاتين أيام كان يزور أقاربه التجار فيها ؛ تزوج وبعد بضعة شهور طوحت به الحكومة في بلاد بعيدة فأصبح عنوانه شبه مجهول لاتصل إليه الخطابات البريدية - ثم حدثت لخبطة كبيرة إذ إن العم هو الآخر انتقل من شلاتين إلى الخرطوم حيث جاءت شغلة في بيت ناس كرام نوى حدائق واسعة يلزمها خولى مقيم . العم حسبها جيداً : هو في شلاتين يسكن بالإيجار والرزق ضئيل متقطع ، وليس له في شلاتين أحد غير أخيه الكبير أبو مكي ، أما في الخرطوم فإنه سينال داراً من بابها وسيأكل ويشرب ويكتسى بالمان . ظل العم شهوراً يضربها في دماغه إلى أن أصبح الصباح ذات يوم على أخيه الكبير يصرخ وزوجه تولول : كانت الطريشة قد لدغته وهو راکع يصلی فوق كومة من أعواد النرة الجافة قدام داره إذ كانت هي تبحث لنفسها عن مخرج من بين حزم الأعواد التي انتشرت فيها حينما هبط الأخ بجبهته فوقها تماماً وهو مغمض العينين في غيبش الفجر فما درى إلا وسيخ من الحديد المحمى في النار يخرق جبهته فينسف دماغه نسفاً - يا له من صبح أسود ؛ في مساءه مات الأخ؛ فقرصة الطريشة لا بداء لها خاصة إذا جاءت في الرأس مباشرة . العم ركبهُ الشؤم واصطلحت عليه الوحدة مع الكآبة مع وقف الحال ؛ فسحب الولية زوجه وتوكل على الله إلى مدينة الخرطوم . ربنا أكرمهُ آخر كرم ؛ لكن اللخبطة التي حدثت جعلت الخطابات تنوره في السكك تردها عناوين إلى عناوين تردها بدورها إلى مراسليها . قل إن العلاقة انقطعت تماماً بين العم وابنته فلم يعد يعرف عنها شيئاً ولا هي بدورها تعرف عنه أى شيء ، مما جعل العم يعيش بحسرتها طوال عمره حتى أصابه مرض جعله يحيض كالنساء والعياذ بالله .. بعد عدة سنوات فوجيء مكي بخطاب يرد إليه من عمه يطلب منه اللحاق به ليعيش معه في الخرطوم إذ إن الشغل ثقيل ويحتاج لمساعد . مكي آنذاك شاب في الخامسة

والعشرين معفى من التجنيد لأنه وحيد أبويه ، وكان فلاحا أجيرا يشتغل يوما ويبطل عشرا وهو الآخر يسكن بالإيجار فى نفس الدار ، قال ما الداعى لبقائى هنا والشغل يطلبنى عند عمى؟ ثم سحب أمه وسافر إلى عمه فى الخرطوم ، حيث الدار التى نالها من أصحاب الشغل كبيرة تستوعب عائلة بل قبيلة. فوجيء مكى أن ابنة عمه التى كانت فى شلاتين طفلة أصبحت عروسا فارهة كالفرس إضافة إلى أن عمه كان لا يزال يتعشم فى أن تلد امرأته طفلا ذكرا فإذا هى بعد حين تلد بنتا ثالثة هى وهيبة ، هذه البنت الفارعة التى تعيش معه فى الكوخ . لم يكن مكى مغفلا حتى يترك ابنة عمه العروس تضيع منه وهى من دمه ولحمه ، كلمة والثانية جاء المأتون وعقد القران . يوم والثانى دخل على عروسه التى لاتزال تعيش معه الآن تملأ حياته بنعمة العيال . سارت الحياة بهم سمنا على عسل ، إلى أن دهمهم وباء لم يسمعوا به من قبل اسمه الكوليرا ، مات العم وزوجه فى جمعتين متتاليتين ضمن عشرات من الفقراء . أصبح مكى وريثا للشغلة ومسئولا عن وهيبة بنت عمه وأخت زوجته . كان العم الدقرم الحويط قد علمه أن يتحوط للزمن ، وساعده - بواسطة أصحاب الشغل الذين هم من علية القوم فى الخرطوم فى الاستيلاء على هذه القطعة من أراضى طرح النهر؛ فبدأ ببناء هذا السور ، ثم جعل يتسلى شيئا فشيئا حتى ابتنى بداخله عدة حجرات، بات يتعهد الأرض بالرى والتسميد والرعاية حتى طرح الله فيها البركة وأصبح الآن مطمئنا إلى أنه سيعترك لعياله شيئا يغنيهم ذل السؤال .

هذه الحكاية كانت هى ميثاق الشرف الذى ربط بين صالح ومكى برباط وثيق مساء الخير يا مصرى .. مساء النور يا مكى . ولربما يلتفت صالح فى قعدته فتسقط نظرته فى قلب الحوش واقعة على عين أى واحد من أسرة مكى فيبتسم كلاهما يتبادلان التحية بتلويح اليد فى الهواء ثم صارت هناك مفاجآت لطيفة ومدهشة ؛ إذ كثيرا ما يفاجئ صالح بولد من عيال مكى يقترب منه حاملا صينية

عليها براد شأى كامل أو طبق من حلوى بيتيه نادرة أو حفنة من البلح الطازج .
فى ذلك الوقت كان متوسط رزقه من السمك لا يقل عن أربعة أرطال كل يوم وقد
اعتاد أن ينتقى أطايبه يذهب بها إلى مدربه الملاكى الإنجليزى القديم الموقد لتدريب
ولدان من فرق الجيش ؛ يقوم صالح بشوى السمك بنفسه وإعداد الوجبة للمدرّب ،
ولكنه أصبح يقتسم الصيد كل يوم بين المدرّب وبين صديقه مكى.

إعجاب المدرّب الإنجليزى بصالح تسببت فيه عوامل كثيرة كانت دائما على
لسان المدرّب ومساعديه ، منها أن صالح كان يتفاهم مباشرة مع المدرّب دون
احتياج لمتّرجم ، ومنها أن المدرّب كان يستريح لصالح بالذات حينما يريد أن
يعرف معنى كلام الناس وعاداتهم فى مصر والسودان ؛ ومنها أن المدرّب حين
عرض عليه نفر من طالبي التدريب على الملاكمة وراح يختبرهم ويعجم عودهم
وجد أن صالح أكثرهم استعدادا للانضباط على مقاييس اللعبة ومتطلباتها
الجسدية والنفسية، ثم سأله : هل مارست اللعبة من قبل ؟ فرد صالح : فى
طفولتى فى المدرسة الإبتدائية . أبدى المدرّب دهشته قائلا : لكنك تبدو مدرّبا
وتعرف قاموس اللعبة . ضحك صالح فى خجل وقال له إنه كان فى صباه يعرف
محاميا سياسيا كبيرا كان يصطحبه إلى النادى الأهلى كلما ذهب إليه للإرتياض
فكان يتفرّج على تدريبات الملاكمة بانتباه فأحب اللعبة فأصبح يدرّب نفسه على
ضوء تعليمات مدرّب النادى للاعبيه ؛ ولما كانت صلته بالمحامى - وهو عضو
مجلس إدارة النادى الأهلى - معروفة للجميع فى النادى فإنه كان يتميّز
بحق الدخول إلى النادى وقتما يشاء بمفرده لحضور أى تدريب يعجبه . عندئذ قال
له المدرّب الإنجليزى: أنت من عشاق اللعبة وهذه أول درجة فى سلم النجاح، ثم
تولاه بالرعاية، ووعد لجعلنه بطلا عالميا فى أقصر وقت ممكن، ورسم له برنامجا
تدريبيا وصحيا وغذائيا التزم به صالح التزاما صارما يستحق المكافآت
التشجيعية التى تمنح له لقاء الانتظام فى التدريب بجدية، ومن جانبه قرر صالح
عدم التفكير فى النساء مطلقا، عله أن يتزوج، لكيلا يشغل نفسه بشيء يعطله عن
مشروعه الرياضى.

إلا أنه بعد أن رأى وهيبة وتعرف على مكى ابن عمها وزوج أختها بدأ يشعر - لأول مرة فى حياته - أنه ليس جديرا بالالتزام الذى فرضه على نفسه، راوده الحزن خشية اضطرابه لغش المستر هيث مدربه الإنجليزى المتحمس له فيما يختص بالبند الخاص بالابتعاد عن النساء، لكن ماذا يفعل فى عيني وهيبة التى شبكت سنارتها فى قلبه فبقي معلقا فى الماء يوخزه الألم كلما لامسه الموج؟!، شعوره بالإنجذاب إلى وهيبة كان قويا ماحقا ساحقا لأى مقاومة، ليس لها وحدها كان الإنجذاب، بل إلى الكوخ كله بكل مايحتويه لدرجة أنه عين نفسه حارسا أمينا يقظا للعيال حتى لايتدحرج أحدهم نحو النهر لأنه كان يثقب الماء بنظرته القوية الخبيرة فيرى ظلال التماسيح الخبيثة اللثيمة تزحف نحو الشاطئ متخفية فى كتل من العشب متحفزة للقفز والإنقضاض فى لمح البصر على أى ولد، كثيرا ما هب صالح قافزا إلى الأرض ليدرك طفلا فرحا بقدرته على الركض مندفعا نحو النهر وراء بطة جعجاعة، فى اللحظة التى يقبض فيها على ذراع الطفل تكون البطة قد اختفت وضاع صوتها فى بقاعة المياه والفك المفترس يغيب بها فى القاع البعيد، وإذا يحمل صالح الطفل على صدره ويمضى به إلى الكوخ ليسلمه - يدا بيد - إلى أمه أو خالته يسمع دقات قلبه كدوى الطبل، وإذا تفتحت الخالة وهيبة ذراعيها لتتلقى الطفل فى صدرها، فتلمس يد صالح صدرها رغما عنه، يكاد يغمى عليه من شدة شعوره بثراء الكنز الخفى الساخن الذى لمسه بظاهر يده، فيتحول دوى قلبه إلى فرح ترن فيه الزغاريد وتتألق الراقصات على أنغام الصاجات النشوانة مثله، يشعر كما لو أن وهيبة هذه فى موقف مثل هذا الطفل تتخفى التماسيح على جميع الشيطان لاصطيادها إذ هى فى وضعها ذاك تعتبر عرضة للإنقضاض وفريسة سهلة للإصطياد نظرا لطيبيتها الشديدة وبراعتها، لحظتند تنتفض كل عضلة فى جسده، يخفض بصره حياء فيما يستدير منصرفا:

- «لا شكر على واجب! خلوا بالكم من العيال!».

يعود إلى قعدته السامقة وقد شعر أن الدماء فى عروقه تجددت وسخت

ونشطت، يروح يسأل فى عقل باله وبوصة السنارة تتراقص ترتعش تحت فخذة، هل يمكن ياولد أن يكتب لك عيش مع هذه المهرة الجميلة الجذابة ذات الوجه الصبوح البرىء من كل غش؟ ولماذا لا؟ أنت رجل ملء هدمك ومصرى متطوع فى الجيش ولك راتب حكومى تقبضه نهاية كل شهر تستطيع أن تتفقه على زوج كهذه؟ أنت طول عمرك مضرب عن الزواج ويظهر أنك كنت تنتظر وهيبة فى علم الغيب، ومن يدري؟ وربما لو ضمكما سرير واحد فى بيت الزوجية تكون بها ومن أجلها هذا البطل العالمى الذى يرجوه لك مستر هيث المدرب الإنجليزى، نعم، إن وهيبة كفيفة بأن تقويك ترطب نفسيتك فتفيق أنت وتشوف شغلك على أحسن وجه، ذات عصرية ندية امتد الحديث بين مكى وصالح مليئا بالود والحميمية ليقول مكى لصالح:

– «تلاقيك زهقت من جرایة الدیش ونفسك فى لقمه بيتى!».

على الفور هتف صالح كأن أبواب السماء انفتحت له:

– «على الآخر يامكى! نفس أشم ريحة التقلية!».

– «بكرة تیجى تتعشى عندى إيه رأيك؟!».

إشترى عدة قراطيس من الفاكهة، كان مكى فى انتظاره على باب الكوخ وقد خيم على حوشه دفة يهتف بجمال الدنيا وحلاوة هذا الكون العامر، الحصير مفروش بين الشجيرات والنخيلات ذات البلح الأمهات، امتدت الطبلية، كل الروائح الحريفة الشهية هبت تنشر النشوة والطرب، البط المحمر، أنجر الفتة مغطى بشال مزركش من الصلصة والتقلية.

تلك العشوة السخية وضعت حدا فاصلا لتردد صالح، فبعدها ببضعة أيام دخل فى الموضوع مباشرة، طلب يد وهيبة على سنة الله ورسوله، قویل طلبه بترحيب شديد، انحصرت تكاليف الزواج فى حدود الضرورى من المفروشات، وقد زاد الأمر بهجة وسهولة فى التنفيذ أن مكى الحويط لم يكن قد تخلص عن الدار التى استأجرها عمه المرحوم، فاستغنى عن حجرتين منها لصالح وزوجه.

لم يكن العسل شهرا واحدا، بل كان عاما كاملا، مضى كبرهه وجيزة من الزمن كأنه حلم فى ليلة قمرية ربيعية، لا ينسى صالح حضن وهيبة مطلقا، لا ولا أنفاسها العطرة التى كانت تبعث اللهب فى أوصاله، كانت وهيبة أعظم زوج يتمناها المرء فى الحياة، ليست تكلف زوجها أى عناء ولا تتوانى فى خدمته خدمة العبد للسيد، طيورا تربى، خزينا تدخر، ثيابا تشتري من الدلالة بالتقسيط المريح، وحين الأسرة أسرتين يغلق عليهما فى معظم الأيام باب واحد، واكتشف مكى أنه اشترى أخا يأنس إليه ويألفه، تجدد الماضى وحضر حضورا قويا، أمسى كل من مكى وصالح يستمتعان بالحديث عن أيام الحياة فى مصر، يأسفان معا لحديث زوجتيهما - الشقيقتين - المتجدد كل ليلة عن أختها الغائبة فى مكان ما من أرض مصر، ترى هل هى ميتة أم لاتزال حية ترزق؟ وكيف حالها؟ ألدتها عدد كبير من العيال؟ أين هم؟ ماذا يفعلون؟ إلى آخر هذه السلسلة التى لاتنى تلد الأسئلة من الأسئلة وتوقظ الشجن والأسى وألم الفراق، ولقد تعهد كل من صالح ومكى بأن يقوموا معا بالبحث عن الأخت الكبيرة والإتيان بخبرها من تحت طقاطيق الأرض، حيث أيقن كل منهما أن خبر ظهور الأخت سوف يضاعف من سعادة الجميع سيما إذا اتضح أن للأخت «عيال كبار» .

كل منهما راح يضرب فى اتجاه يتسقط الأخبار منه، لجأ صالح إلى زملائه المصريين نوى الأصول السودانية يسألهم بصنعة لطافة عن بلدانهم الأصلية، أما مكى فقد هداه الله إلى اكتشاف رجل طاعن فى السن أصله من شلاتين كان يعرف عمه معرفة جيدة، وكان شرطيا ضمن فرق الهجانة، اتضح أنه يعرف زوج بنت عمه الكبرى مرزوقة وهدان الخشت الشهيرة بمنتهى، بل اتضح أنه يعرف مرزوقة نفسها عن طريق أخت له تعمل بوابة فى مصر، وأعطاه عنوانها، فلم يشأ مكى إعلان الخبر حتى لاينزعج أهله إذا اتضح أن الرجل يقصد إلى واحدة أخرى، فى الوقت نفسه كان صالح قد ينس من الأمر كله لشعوره باستحالة العثور على إبرة فى تل من الأتربة، لم يكن يعلم أن مكى قد أملى خطابا وشيعه

إلى مصر مستعجلا مسجلا. فلما تلقى ردا على خطابه وتيقن من وجود بنت عمه على قيد الحياة كان حكيما فى إخفائه للخبر إلى حين، لقد عرف من الخطاب الذى جاءه أن زوج بنت عمه يأس من حياته فى مصر لأنه بلا عمل وليس معه نقود يأتى بها إلى السودان ليراهم، فما كان من مكى إلا أن سارع بإرسال مبلغ لزوج بنت عمه بحواله بريديّة وطلب منه المجيء إلى السودان فور تسلمه لهذا الخطاب ولسوف يجد عملا وسكنا ورزقا وفيرا، ثم أرشده إلى طريق للوصول عبر مركب نيلية معينة اسم ريسها فلان الفلانى، ثم أصبح يترقب وصول المركب على المرسى بين يوم وآخر، ويوم وصولها وقف على المرسى ينادى بأعلا صوت: فلان الفلانى، فإذا بفلان هذا ينسلت من بين الواصلين ويهرع إليه يعانقه، وإذا هو كهل ممسوك الحيل، ومن ورائه سيدة عجفاء صديّة تلتف بملائة سوداء وترتدى فى قدميها برطوشة كالحة، قال له الرجل المسن وهو يدفع ظهر المرأة كأنها أمانة يسلمها إلى أصحابها:

– «أدى ياسيدى بنت عمك أهه! مصير الحى يتلاقى!».

إرتمى عليها مكى يسلم ويبكى بحرارة وهى ترتب عليه بتحنان عظيم، ثم إنه سحبهما إلى الدار.

كان صالح قد رجع من التدريب منهكا فتمدد على العنقريب نصف عار، وراحت زوجته تدلك عضلات ذراعيه وكتفيه بزيت ساخن وهو يقاوم الرغبة فى مواقعتها لأن الدار تشغى بالعيال وباب الحجرة معرض للطرق فى أية لحظة، وقد كان، إذ لم تمض برهة حتى سمعا رزعا أهوج على الباب ينم عن فرحة طاغية.

قالت وهيبة فى شبه احتجاج:

– «مين بيرزع؟».

صاحت أختها لاهتة من الفرح:

– «أختك مرزوقة وصلت مع جوزها يا وهيبة!».

تركت وهيبة جسد صالح واندفعت تجرى مزعردة، وانتفض صالح واقفا ملخوما يبحث عن فائلته وجلبابه، وهو يتعجب لايكاد يصدق أن الخيال يصير حقيقة بهذه البساطة المذهلة، ثم تذكر عبارة قالها له مكى ذات أمسية:

- «إنت ريحك قريب من ريحى أنا وعيالى! واسمك مش غريب على! إنت وجودك معانا هو اللى صحى الماضى!».

وحين دخل قاعة مكى يتعثر فى خطوه من شدة الانفعال رأى زوجة مرتمية فى حضن أختها وكلتاهما تصيح وتهذى بأى كلام، لم يتبين وجه هذه المرأة العجوز، لكنه تسمر فى مكانه مذهولا بعد شهقة كاد يلفظ فيها أنفاسه وقد شجب وجهه ونشف ريقه وراح يقلب النظر الملتاث فى هذا الرجل المرافق لهذه المرأة متمتما:

مش ممكن! مش معقول!.. ولكن ليس ثمة من مفر، فكل الشواهد والقرائن الواضحة تؤكد أنه أمام أبيه!! وإنه فهذه المرأة هى أمه، ومن ثم فإنه يكون قد تزوج من خالته!!.

الذهول نفسه صار مضاعفا على وجهى أبيه وأمه التى هتفت فى خليط من الفرح والخوف ضاربة صدرها بيدها:

- «صالح!! الجيش يوديك السودان وما تبلغناش!!».

إخص عليك وعلى قلبك القاسى!!.

وصاح الأب فى ازدراء واشمئزاز:

- «الولد ده إيه اللى جابه هنا!!».

قالت وهيبة فى زهو خافت مضطرب:

- «جوزى! معرس على!».

ضربت الأم صدرها بيدها صارخة:

- «يا خرابى! جوزك؟ يعرس عليكى إزاي دانتى خالته لزم!!».

- «خالته!!.. صالح ابنك يابنت عمى!!».

هكذا صاح مكى، فانخرطت الأم فى لطم وبكاء، وهتف الأب مصفقا كفا على

– «طول عمره وش مصايب! لكن كله إلا اللي حصل ده!!».

هارت وهيبة كخرقة بالية، ارتمت على الأرض مغطية وجهها بيديها، سألت الريالة على شندقى صالح، جرد صوته من جرابه:

– «إيه التخريف اللي بيحصل ده؟! هي أمى اسمها منتهى والا مرزوقة؟! أنا ما أعرفش اسم مرزوقة ده! وأبوها اسمه الخشت والا مهران?!».

صارت الأم تولول فى تفجع:

– «ياربى! بعد العمر الطويل ده كله ابنى الكبير مايعرفش أن اسمى مرزوقة وهدان الخشت! طبعاً! أنا نفسى كنت نسيته! ماكانش حد بينادينى بيه أبدا! حماتى هي السبب! هي اللي طلعت على اسم منتهى ولزق فى مدى الحياة!!».

– «وحنعمل إيه فى المصيبة دي؟!».

إهتاج صالح بصورة مخيفة حينما رأى وهيبة قد أغمى عليها وتخشبت، صار يضرب رأسه فى الحائط يجعز باكيا يشق الهدوم دميت رأسه ووهنت قواه وانطرح على الأرض راح فى غيبوبة طويلة كان يتمنى ألا يفيق منها، الواقع أنه لم يقق منها حتى الآن لدرجة أنه لايعى ما الذى حدث بعد ذلك بالضبط على وجه الدقة والتفصيل، لكنه يذكر أن المأتون جاء وفصل رسمياً بين الزوجين المحرمين على بعضهما، يذكر أيضاً أن وهيبة لم تسترد لونها ثانية، تحولت إلى كائن هزيل شاحب، ضاعت معالم وجهها وانمحت بروزات جسدها، قيل بسبب إجهاضها من فرط الفزع والخضة والحمى التى أصابتها ونجت منها بأعجوبة، إلا أنها فقدت عقلها تقريباً، أدمنت دقات الزار، يذكر كذلك أنه لف على جميع المشايخ من كل لون بحثاً عن علاج لوهيبة فى كتبهم من ناحية، وبحثاً عن الكفارة التى يمكن أن يقضيها ليغفر الله له ذنبه غير المقصود، أصيب هو الآخر بلوثة، امتنع عن التدريب، من كسرة نفسه كان يتمنى ألا يراه أحد، طلب التسريع من الجيش والعودة إلى مصر، بقى مدة طويلة بلا عمل ولا مسكن، حتى فطن إلى أحييته فى العمل فى جهاز الشرطة، تقدم بطلب للتعيين، فعين شرطياً فى حرس الوزارات.

كانت مهمته أن يقف على باب وزير الأشغال، فلما استقرت حالته فى الوظيفة قام حبه للملاكمة من جديد فذهب إلى نادى الشرطة وقيد اسمه واستأنف التدريب مع الفريق الذى يتأهل للسفر للمشاركة فى بطولة دولية أوليمبية فى أسبانيا، ثم إنه سافر مع الفريق بالفعل، وعاد ببطولة وميدالية ذهبية، وذات يوم فوجئ بأن سيادة وزير الأشغال - الذى يقف هو حارسا على بابه - قد أصبح يتوود إليه بشكل لافت للنظر، ففى إحدى المرات كلفه بشراء بعض الطلبات وتوصيلها إلى منزله فى جاردن سيتى ثم نفحه خمسة جنيهات دفعة واحدة يعنى أكبر من مرتبه الشهرى، وفى مرة ثانية أهده بدلة كاملة ومعها حذاء أبيض على أسود لم يلبس مثله طول حياته، مع قميص أفرنجى ورباط عنق، وفى مرة ثالثة - بمناسبة عيد الأضحى - أعطاه مايقرب من نصف خروف وثلاثة جنيهات، ثم إنه أصبح يناديه: ياعم صالح بعد أن كان لايعرف إلا كلمة: ياعسكرى، ولما كان صالح بطبعه يخشى مثل هذه الأفعال ويتشكك فى نواياها ليقينه من أن الرحمة لاتعرف قلوب السادة على الخدم مطلقا، لذلك أصبح حذرا يبحث عن السر وراء هذه الأفاعيل المشبوهة، لكن بحثه لم يطل: كان الوزير قد تزيرن ذات يوم لسبب لم يعرفه صالح فأصدر قرارا بمنع دخول عمال البوقية إلى حجرة مكتبه على أن يتولى صالح عملية الدخول والخروج بما يطلب للمكتب من قهاوى وشايات. وفعلا، تحول صالح إلى جرسون ببدلة مبرى لمدة أسبوع واحد تقريبا، وفيما كان يلم فناجين القهوة فوق الصينية ليعيدها إلى البوقية استوقفه الوزير مبتسما فى لطف:

- «إنت.. متجوز ولا لا يا صالح؟».

فوجئ صالح بالسؤال لكنه ضحك فى أدب شديد:

- «لا والله يا سعادة البية!».

- «ليه طيب؟!».

- «واتجوز ليه؟!».

- «مايتحبش الستات؟!».

– «أبدا عدم المؤاخذاة!».

حملق فيه الوزير بدهشة بالغة، شعر صالح كأن سهام النظرات المدببة تنغرس في وجهه ورقبته ثم جسده كله، أخيرا قال الوزير:

– «أقدر أعرف السبب يا صالح يمكن.....».

– «أصل... أصل.....».

– «لو اتجاوزت ماهيتك تزيد! وحاك يتصلح!».

وحتحب الستات!».

أوشك صالح أن يحكى له ماحدث من أمر زواجه من خالته وكيف أن ذلك الزواج المشنوم أقفل قلبه ودماعه عن بهجة الدنيا كلها، لكنه أمسك لسانه في الحال، طاف بذهنه طائف أشبه بعمود من الدخان الأسود انقبض له صدره انقصمت الضحكة في صدره شحب وجهه، يبدو أن الوزير فهم من حالة الإرتباك التي اعتورته أنه خجلان من حديث الزواج ليس أكثر، فhez رأسه في أريحية:

– «فكر! لما تقفأنا عندى العروسة! تربيتى! مستخسرها فى أبى حد ما أعرفقوش! عاوز أضمن مستقبلها بواحد ابن حلال زيك! فكر يا صالح وادينى خبر!».

hez صالح رأسه فى امتنان، لم يجد كلاما يقوله، احتضن الصيتية حماية للأكواب من الرعشة التي اعترته فصار يقاوم لإخفائها، إلا أنه بعد أن استفارق عمل بنصيحة الوزير وفكر فى أن زوجة من طرف سيادة الوزير حتى وإن كانت خايمته كما يتوقع سوف تكون لُقطة ولا بد أن سيادة الوزير سيعمل على رفع مرتبه وسوف يعاونه فى العثور على مسكن، وجد صالح نفسه يكثر من التجوال فى الحى الذى يسكن فيه الوزير. بواب العمارة – عمارة الوزير – كان يعرفه جيدا، فمن طبيعة صالح أنه يحب تعميق صلاته بالبوابين إذ يعتبرهم عائلته وأهله، وهكذا عزم بواب العمارة على حجرين وكوب شأى فى مقهى بشارع قصرالعيني، كلمة فى حدوتة فى نكتة عرف من البواب تفاصيل القصة كاملة، تماما كما تحدث

فى أفلام السينما، مما جعل صالح يسأل نفسه مندهشا: هل السينما تأخذ من الواقع أم أن الواقع يأخذ من السينما؟ ثم شوح ضاحكا وقال إن كلاهما يأخذ من الآخر ولكن ما يأخذه الواقع من السينما أخطر مما تأخذه السينما من الواقع، وصفق كفا على كف، وهو يستعيد الحكاية متعجبا من قدرة الناس على الظلم والتلفيق: إن الخادمة - أى العروس - هى بالفعل تربية معالى الوزير، ولهذا فهى تربية وسخة، كابنه بالضبط، ذلك الطائش المستهتر الذى وضعت أمامه هذه الوليمة دون رقيب فنمت رجولته المبكرة على صدرها وبطنها، ثم تأكدت فى الخن الذى تنام فيه جنب المطبخ على سلم الخدم، وقد أجهضت البنت أكثر من مرة ومعالى الوزير يكفى على الخبر المواجهير ولا يريد التفریط فى البنت لعدم وجود بديلة مطيعة أمينة نظيفة مثلها، فلما عثر له أقاربه الفلاحون على بنت توازيها فى كل شىء قرر معالى الوزير تسريحها بشكل يليق بمركزه فحسب كما يقنع البنت الجديدة أن من تخلص فى طاعته سوف تخرج من عنده عروسا مجهزة إلى بيت العدل.. وهكذا قرر الوزير اصطياد صالح وتلفيقها له. عينا البواب لمعتا ككرتين من البللور، كبصلتين مقشورتين، لوح بأصبعه السبابة فى تحذير خطير بصوت دافىء ويحة مكتومة:

- «أوعى يا صالح! إياك! ربنا يحبك لأنك سألتنى!».

كان من المستحيل على شخصية صالح أن تبقى كما كانت يعد علمه بهذه الحكاية، لقد تغيرت تماما تجاه معالى الوزير. إن اليد التى اعتادت أن ترتفع لتحية الوزير إذا أقبل رفضت لوحدها دون تدخل من عقله أن ترتفع، ووجهه الذى اعتاد البشاشة كلما وقع بصره على الوزير تجعد من تلقاء نفسه ضنا عليه بالابتسامة، حتى أذنه طرمخت على صوت جرس الوزير.. مدير مكتب الوزير صرخ فيه:

- «تايم على روحك؟! معالى الوزير طالبك!».

دخل على الوزير بوجه جامد كالح مكفهر، توقف على مسافة بعيدة، شمله

الوزير بنظرة مسحته من فوق لتحت، وبقي صامتا لبرهة طويلة لعله كان يبحث خلالها عن شخصية صالح التي يعرفها، أخيرا هتف بخشونة لينة قليلا:

- «كنت فين يا بنى آدم؟!»

- «ماكنتش!»

- «سمعت الجرس ولا ماسمعتش؟!»

- «سمعته!»

- «ماجيتش ليه مادام سمعته؟!»

- «أجى ليه لمؤاخذه؟!»

- «مش المفروض إنك تجيب لى القهوة؟»

- «أنا عسكرى مش جرسون!»

- «إنت.. فيه إيه؟ مالك؟!»

- «ماليش!»

- «طب إمشى اطلع بره يا حيوان!»

- «أنا بنى آدم زيك ويمكن أحسن!»

- «اطلع بره! مش عايز أشوف خلقتك هنا تانى!»

خرج صالح كالسهم الطائش، فاهتزت ستائر وزيقت أبواب وشخللت مفاتيح واصطكت أدراج وتهشمت أكواب وتطايرت أوراق، انشغل ديوان الوزارة كله بالبحث عن سر غضب معالي الوزير على صالح بعد أن كان الجميع يعرف أنه يشمله برعايته، حاول أكثر من رجل مهم فى الديوان استدراج صالح ليحكى شيئا عن أسباب الصدام لكنه أغلق فمه تماما، ويبدو أن الوزير كان مصرا على معرفة سر هذا الانقلاب، فاستدعاه بعد يومين وحاول ملاطفته:

- «لما الوزير يأمر بك بشيء تعمله!»

- «سعادتك تأمرنى فى حدود شغلى بس!»

- «إنت نمروء!»

– «إنت ظالم!».

– «وقليل الأدب كمان؟ والله لأريك!».

– «ماقدرش! نمرة واحد لأنى متربى جاهز! نمرة اثنين لأنك ماقدرتش حتى

تربى ابنك!، خلى الطابق مستور ياسعادة البيه!».

انتفض الوزير واقفا، خرج عن مكتبه، تقدم من صالح والشرر يسبقه، رفع يده، هوى بها على صدغ صالح، لكنه فوجيء بأن رسغه قد صار فى قبضة صالح القوية تعجنه تفركه ثم تطلق سراحه، ثم تمتلىء الحجرة كلها بفحيح صوته الجهورى المخيف:

– «صالح عبدالبر ماحدش يقدر يضربه! هو بس اللي يضرب إنما ينضرب لأ!!

ويكون فى علمك! أى ندالة ولا دقة نقص تعملها معاية إنت اللي حتدفع الثمن غالى!».

ثم استدار بكل هدوء ومضى، أغلق الباب وراءه، إتجه إلى مكانه المعتاد فوقف فيه متحسنا سلاحه الميرى، لم يمض على هذا الحادث أكثر من عشرة أيام ثم استدعى صالح لديوان مديرية أمن القاهرة، وهناك أبلغوه بقرار نقله لحراسة المنشآت فى قسم الدرب الأحمر كنوع من العقاب. أهلا بالليل ويسهر الليل من باب زويلة إلى قصر الغورى حيث الحراسة نزهة ليلية مزدانة بالسلاح الميرى ويقشيشات أصحاب المفروشات المربوطة بلفائف المشمع فى الشوارع، المشكلة كلها أصبحت فى تمرينات الملاكمة، كيف يسهر فى دركه طول الليل ثم يذهب للتمرين صباحا ومساء فى نادى الشرطة؟ ليته يتمرن لنفسه فحسب، إنما المزعج أن إدارة النادى عهدت إليه بتدريب مجموعة من الأشبال سيشتركون فى دورات محلية فى حين أنه لا يتقاضى أجرا على هذا أو ذاك فماذا يفعل؟، إنه – ريك والحق – يعشق فن الملاكمة يفديه بعمره لكن هناك ما هو أهم لديه من الملاكمة بل من عمره كله: حريته، أن يصحو وقتما يشبع جسده من النوم أربع وعشرين قيراطا وفتلة وثلاثة أرباع، أن يفعل ما يريد هو لا مايراد له أن يفعله، أن يقول

مافى دماغه هو لا ما يحب الغير أن يسمعه، أن يتحرك بمزاجه بملء رغبته لا بمزاج عبد مثله يتحكم فيه يحبس حريته، لا، لا، لا، لا، ملعون أب الملاكمة أب الوظيفة أب الدنيا كلها، غدا سيريهم مركزهم. ثم اعتدل فى قعدته على رصيف قصر الغورى دك شعيرات ذقنه الخشنة أشعل سيجارة، كانت أصوات المؤذنين على مساجد الحسين، والأزهر وأبى الذهب والغورى والصالح طلائع وباب زويلة، تتسابق فى موج الفضاء فى مهرجان غنائى بهيج يعلن قيام الحياة فى عربات الفول ومحلات الألبان والمطاعم والمقاهى وعجلات الكارو ذات القعقة المزلزلة، فامتلاً صدر صالح بالرغبة فى أن ... يعمل هيصة.. ما أن طلع قرص الشمس على كتف السحاب حتى ركض إلى الدكان فاشتري السبرتو الأحمر والكوكاكولا ثم ركن إلى إحدى عربات الفول ثم قعد على دكة وراح يجرع ويأكل بشهية، ثم قفل إلى مسكنه فوق سطح بيت متهاك فى كوم الصعايدة بجوار مديرية الأمن، غير ثيابه، لف عهده من الملابس الميرى والسلاح فى بقجة تأبطها وخرج، عرج على إحدى المقاهى فشرب القهوة السادة وهرج مع الناس ضحكا وتنكتيا وصهالة حتى إذا حان موعد التدريب توجه إلى مديرية الأمن حيث سلم عهده للإدارة لأنه لم يعد فى حاجة إليها، قيل له: لماذا؟..

— «أمر مهم ما أقدرش أعصيه!».

— «إيه الأمر ده ومن مين؟!».

— «مزاجى قال لى طظ فى الوظيفة يا صالح قلت طظين فى الوظيفة يا مزاجى!

جيت أسلمكم العهدة واخلى طرفى عشان تحطوا واحد غيرى فى الدرك!».

— «مجنون! فاكدر نفسك بتشتغل فى طابونة تمشى وقت ماتحب؟!».

— «زى بعضه مجنون مجنون بس أنا مش شغال!».

المهم أنه أفلح فى الحصول على استمارة توريد تفيد بأنه سلم عهده كاملة غير منقوصة، ثم ركب الترمای إلى نادى الشرطة، خرم مباشرة على مقر البوفيه

متجاهلا نظرات بعض الإداريين مع اللاعبين، فلما رأوه يجلس على أول مقعد يقابله ويضع ساقا على ساق كئنه سيادة اللواء يطلب فنجانا من القهوة ثقيلة البن اكتملت الدهشة فى عيونهم ولو نطقت ل قالت: تأتى متأخرا وتتقصل؟!، إلا أنهم تفرقوا ساخطين مبرطمين، بعد هنيهة جاء المدير الفنى يتبخر يرج الأرض ب قدميه الثقيلتين يصب عليه جام نظراته الغاضبة:

ـ «ما شاء الله ما شاء الله! بتعمل إيه هنا يا سيادة الإمبراطور؟ إمشى وراك تدريب؟! مش حاسس إنك مزودها؟ وإلا مقيش احترام؟!».

ـ «فيه طبعا مقيش إزاي؟!».

ـ «قوم أقف يا بنى آدم وكلمنى!».

شوح بأصبعه مزيدا:

ـ «قله أدب مش عايز!».

بُهِت المدير الفنى، بدا كئنه يقارن بين قوته الغاربة وقوة صالح الناهضة ، ظهر عليه الإقتناع بأن الإعتداء بالضرب على صالح سيمرط كرامته فى الأرض، فاستدار من سكات وانسحب، ما كاد صالح ينهى آخر رشفة فى فنجانة الثانى حتى رأى سريا من كبار المسئولين عن السنادى واللعبين بملابس التدريب يقبلون نحوه كطليعة جيش تريد استكشاف أنواع المخاطر قبل الهجوم، تقدمهم وكيل النادى فى هدوء دبلوماسى متقن، شعر صالح كئنه يتأرجح على نظرات الوكيل الإستنكارية، مع ذلك بقى فى وضعه دون أن يعتدل ، قال الوكيل بلهجة حاول أن يعكس فيها أكبر قدر ممكن من الاحتقار:

ـ «ممكن سعادتك تتكرم وتقف تكلمنى؟!».

إنداحت موجة من أبخرة الكحول مبتعدة عن عينى صالح، فانتبه فى الحال إلى أن الذى يقف أمامه هو سيادة اللواء وكيل النادى شخصيا، الذى لم يسئ إليه من قبل أبدا بل كان كثيرا ما يعطف عليه يحتضنه عقب كل مباراة يفوز فيها،

فشعر أنه يجب أن يتأدب مع هذا الرجل بالذات، فوقف، اجتهد أن تظل المسافة بينهما طويلة حتى لاتفضحه رائحة السبرتو الفاقعة فى منخريه، قال بثقة واحترام:

– «العفو سيادة اللوا ، أنا ما نمتش بقى لى أكثر من شهرين! من الدرك على التدريب ومن التدريب على الدرك!!».

قال اللواء بابتسامة شاحبة تعلن استعدادده للتفاهم:
– «إزاي بطل رياضى زيك يطول لسانه على المدير الفنى؟! وإزاي تقعد مجعوص واحنا واقفين قدامك؟ أنت أكيد مش طبيعى!!».
– «فعلا يا سيادة اللوا أنا حصل لى خلل فى مخي!!!».
– «إنت شارب حاجة ياولد؟».

– «شارب من كيغانى ياسيادة اللواء! وكمان حضرتك بتقول لى ياولد! يعنى قتلتنى!».

– «إنت باين عليك بلطجى مش لاقى اللى يحكمك!!».
– «بالعكس ياسيادة اللوا ، دى مصيبتى فى الحياة إن اللى بيحكمونى مالهمش عدد!! منين ما أمشى ألاقى اللى عاوز يحكمنى!! كل خطوة فيها اتنين ثلاثة لازم يدونى الأوامر، لازم أخذ توقيعاتهم! لازم أضرب لهم تعظيم سلام! لازم استأذنهم عشان أدخل محل الأدب! عشان أكل! عشان أشرب! عشان أنام!! زهقت يامسلمين طهقت قلت ماينفعش الكلام ده لازم أنا اللى أحكم نفسى بنفسى فيها حاجة دى؟! مش عاوز أبقي خاضع لحد! حقى ولا مش حقى!! وظيفة مش عاوز أتوظف أنا حرا! لعب مش عاوز ألعب حد شريكى؟!».

صار اللواء يتلفت حواليه كالموتور:
– «بقى دى عقلية واحد مرشح لبطولة دولية كبيرة؟»، دى أخلاق وحد معلقين عليه الأمل؟!».

قال المدير الفنى وهو يرمق صالح فى إشفاق واستخفاف:

- «كل اللي حيلابوه فى الدورة أقزام بالنسبة له لكن هو قرر ينتحر!!».

قال اللواء مشوحا فى قرف:

- «يروح فى داهية ! كلمة واحدة ! حتعتذر للمدير الفنى وتنزل التدريب

ولا لا؟!».

- «لا!.. لا!».

قالها ثم مشى، اخترق الطريق إلى باب النادى فى قوة وثبات دون أن يلتفت وراءه، ولو التفت لوجدهم جميعا قد استداروا نحوه وتجمدوا ذاهلين يلاحقون ظهره بابتسامة بلهاء صفراء تتصبب عرقا نتيجة رغبة فى الإنتقام محبطة.

لم يعد صالح إلى نادى الشرطة بعدها مطلقا، جاءه إنذار بالفصل من العملين فتلقاه كما يتلقى السجين خبر الإفراج عنه، ذهب يقبض آخر مستحقاته فرأى المكوجى فى انتظاره عند الصراف وكان مدينا له بأكثر من ثلاثة جنيهات نصيبه فى شركة الهيصة التى كانا يقيمانها معا كل بضعة أيام على نفقة المكوجى الذى يحسب نصيب صالح ويؤونه فى دفتر الشكن الخاص بالزبائن، بقى من قبضه حوالى نصف جنيه، فتأبط المكوجى ونزلا معا إلى الغورية فعملا هيصة مركبة مكثفة نام صالح على أثرها عدة أيام كانت هى ماتبقى له من الأيام المدفوع إيجارها فى العشة التى يسكنها فوق السطوح بكوم الصعايدة، شيئا فشيئا بدأ يفيق من كابوس الوظيفة يتحرر من ربة المواعيد الصارمة يتحلل من كل القيود، صار يعطى دروسا فى الملاكمة للهواة فى الأحياء والساحات الشعبية مقابل مصاريف الهيصة والسجائر، كان يدرّب بإخلاص وحب، لكنه سرعان ما سئم التدريب لأنه هو الآخر يقيد بمواعيد وطقوس لايطيقها، فوجيء بنفسه ذات مرة يتراخى فى الذهاب إلى الساحة الشعبية، ثم يتراخى عن كل المواعيد .

بواكير الخنفسة

التغييرات التى طرأت على مصطفى لمى كانت لافتة للنظر . فبعد الملابس الكلاسيكية المتواضعة الوقورة فى أن ، حيث لا يكون الرجل محترما إلا بستره ورباط عنق خال من بقع العرق الملتمة الفاضحة ، أصبح يرتدى هو الآخر البنطلون الجينز الأجرب السميك الملىء بالجيوب البارزة المكبسلة بكبسولات نحاسية صفراء منقوشة ؛ لكنه لا يخلو فى وجاهة وأناقة ؛ مع هذا البنطلون قميص صوفى فوقه قانلة من الصوف بنص رقبة تبرز من تحتها وتغطيها ياقة القميص . فى القدمين حذاء أسود يلمع كأنه مدهون بالبلاستيك .. فصار مصطفى لمى بذلك قريب الشبه من طلعت الإمبراطور لولا أن الأخير طويل القامة محنى الهامة قليلا فى حين يميل مصطفى إلى القصر وامتلأ الجسد نسبيا . ثم إنه انقلب على المتمسكين بالملابس الرسمية ، صار يسخر من عقلياتهم المتحجرة بل من عقلية الطبقة المتوسطة التى تحرس على المظهر الرسمى حرصها على السمعة والوجاهة التى كانت فيما مضى تتفق وقيادتها لحركة المجتمع .

لم يكن اللبس - على أى نحو يكون - من المظاهر التى يمكن أن تستوقفنا طويلا بخاصة بعد اكتشافنا لصالح هيصة الذى ضرب لنا أسطورة اللبس فى مقتل منذ أن اختفى مظهره من أعيننا لتندأ شخصيته لدرجة أننا لم نشعر فى يوم من الأيام بأنه رث الثياب مع أن الهدمة تسكن جسده فلا تغادره إلا مزقة وراء مزقة حتى يتعرى أو يكاد فيخطف رجله إلى وكالة البلح يشتري قميصا وينطلونا قديمين . لقد قدم لنا الدليل القاطع على أن الإنسان بشخصيته لا بملبسه: أما الذين يرون غير ذلك فهم فى نظره أغبياء يخضعون لابتزاز المجتمع الزائف :

- «مجتمع لمؤاخذه وسخ أحترمه إزاي يعنى ؟ إنت تراعى ربنا فى ذات نفسك
ويس ! نجحت فى دى ؟ إضرب الباقي صرمة ! يايبه المجتمع بتاعنا لابس مزىكة !
الناس بتمثل إنها ناس محترمة ! كل واحد عاوز يرهب الثانى يلبسه الأبهة» ! .
الطريف أننا على ضوء كلامه صرنا ننتبه إلى مناظر السياح فنتصور أنهم من
مدرسة صالح هيصة حيث يلبسون المرقع والممزق ويمسكون بالكتب الثمينة فى
أيديهم لانتهاز أى فرصة متاحة للقراءة . شخصية صالح هيصة كانت تبدو لنا
مجسدة فى الكثير منهم سيما وأنهم يعرفون طريقهم إلى الغرز فى أعماق
الحارات الشعبية العتيقة بل ويعرفون الطريق إلى تجار الحشيش فى الباطنية
وزينهم والجمالية ؛ ولقد حظيت غرزة حكيم بأكبر قدر من هؤلاء السياح
المخربين لأنها فى قلب وسط المدينة ؛ من المؤلف أن نرى أحد الخواجات مرتديا
فائلة بحمالات عارى الصدر والظهر والكتفين والذراعين ، على بنطلون ممزق
ونصف وإحدى ساقيه ضائعة ؛ وفى قدميه شبشب أو صندل كالح ، ولحيته نتنة
متلبدة ، يعلوه الصدا والحشف من طول المشى على قدميه فلعله جاء من باريس أو
لندن أو برلين ماشيا ومثلنا جميعا يمسك قطعة حشيش صغيرة يقتطع منها ،
ويمسك البوصة باستمتاع ويشد النفس بنفس القوة نفس المتعة نفس المزاج بل
نفس الكتمة التى وقر فى أذهاننا نحن المصريين أنها من ابتكارنا إذ نحتجز
الدخان فى الحلق أثناء الشفط ونكتمه عند الإفراج عنه داخل الأنف فيحدث
زيقا حاداً يشبه الصوت الذى تحدثه السيارة فيما يسميه الشبان بالطلعة
الأمريكانى . الخواجة منهم ساقا على ساق غير عابىء بأن نصف فخذ عار
تماما ، أو بأنه حافى القدمين زرى المنظر فيما هو يحشش ويقرأ باستغراق
وتركيز . نروح نحن نحسده ونتحسر على أنفسنا لأننا لا نستمتع بالوقت وبالحياة
وبالسفر مثله .

نفاجأ بأن مثل هذا الخواجة ما يكاد صالح يقترب منه حتى يعتدل واقفا بوجه
بشوش ، يصفحه بحرارة ، يسحب كرسيا يدعو للجلوس يأمر الساقى بأن

يدخل عليه بالجوزة ؛ فلا يعتذر صالح بأن هذا ليس كيفه كما يفعل معنا بل يشد الأنفاس فى ترحاب ، ثم ما يلبث حتى يندمج مع الخواجة فى حديث ودى يبسو شديد الحميمية والخصوصية . نتحرق شوقا لمعرفة ما يدور بينهما إذ يبدوان كأنهما صديقان منذ الطفولة يتذاكران النوادر يبتهجان يضحكان يتصافحان لدى كل ضحكة .

يتكرر مثل هذا المشهد مع عديد من الخواجات ، مما يجعل طلعت الإمبابى يجرى بعض تعديلات فى رأيه عن النشاط التخابرى الدولى فيضيف إلى المخابرات المركزية الأمريكية أو الـ سى آى بى ، المخابرات الإسرائيلية أو الموساد ، سيما وأن حالة اللا سلم واللا حرب كانت تضع البلاد فى حالة توتر قائمة لا تقعد ، والناس تعاني من غضب مكبوت فى الصدور لا يقلح شرب الحشيش فى تخفيف حملة ، وليس فى الأفق ثمة من حل ؛ كل ما هنالك أن حرب الاستنزاف بيننا وبين العدو الإسرائيلى تحقق نجاحا فى بعض العمليات الفدائية التى يقوم بها أولادنا . ليس ثمة من أسيرة إلا ولها ابن أو أكثر فى جبهة القتال منذ ما قبل هزيمة يونيو المحضة الخائقة ، وأنور السادات لا ينى يتذرع بالضباب الذى يكتنف الأفق أمامه . مع ذلك فالحياة محتملة ، لا أحد فينا يعاني من البطالة ؛ فمصطفى لمعى يعمل رساما فى مجلة للأطفال ؛ وقمر المحروقى فى الجامعة الأمريكية ، وطلعت الإمبابى معيدا فى آداب القاهرة قسم التاريخ ، وزكى حامد يمثل أنواراً ثانوية فى برامج الإذاعة والتلفزيون ؛ ، وفاروق الجمل تم تعيينه بالفعل فى مجلة أسبوعية شهيرة تعنى بالكاريكاتير السياسى والإجتماعى ، وإبراهيم القماح رائج فى تنظيم القتارين ، وأحمد عاصم يقلب عيشه فى السينما التسجيلية . هؤلاء هم الهيكل الأساسى للشلة أما المنتسبون إليها ، أى الذين لا نراهم إلا مرة كل أسبوع فكلهم يرزقون بشكل أو بآخر ؛ حالنا جميعا أفضل بالقياس إلى غيرنا من الموظفين والعمال والفلاحين والحرفيين الذين يعيشون فى شظف حقيقى حيث تقف زوجاتهم وأمهاتهم فى طوابير الجمعيات التعاونية من أجل الحصول على كيلو

لحمة أو كيلو أرز أو صابونة غسيل ، وقد لا تلحق الواحدة منهن بشيء من ذلك عندما يجيء الدور عليها لأن موظفى الجمعيات يبيعون ثلاثة أرباع الكمية سرا إلى تجار السوق السوداء والدلالات . ومع ذلك فلا أحد يدرى من أين يحصل المصريون على ثمن الحشيش الذى يحرقونه ليل نهار ؛ صحيح أنه الشيء الوحيد المتوفر فى الأسواق ولكنه يكلف شاربه الكثير من النفقات فى الغرز .

يقول قمر المحروقى لصالح هيصة :

« نفسنا تعرف كنت يتتسامر مع الخواجة يتقول له إيه وبيقول لك إيه » ؟!

ننتبه جميعا . يقول صالح :

« أئنهو خواجة فيهم » ؟!

يقول قمر :

« الخواجة الآخرانى ده مثلا » !

« الخواجة لئيم ! أصقراوى » !

« فقال لك إيه يعنى » ؟!

هكذا يصيح به طلعت الإمامبى متعجلا كأنه يبحث عن دليل يثبت به صدق

نظريته . يتتسم صالح :

« صاحبنا الآخرانى ده سألنى : الشعب المصرى حزن على عبدالناصر قوى

كده ليه » ؟!

تحدث موجة فى القعدة نتيجة تغيير الأوضاع . تلمع فى عيني طلعت بوارق

نارية وهو يمرر نظراته على وجوهنا كأنما ليقول : مش قلت لكم ؛ يضع الممثل

زكى حامد يده على خده موجها نظراته الحادة القوية إلى صالح :

« وقلت له إيه بقى بسلامتك » ؟!

بهده فولاذى بارد يضحك صالح :

« قلت له الحقيقة طبعا ! وجهة نظرى يعنى ! اللى أفهمه عن الموضوع ده ! »

يهتف مصطفى لمعى فى تهكم :

- «نحب نعرف وجهة نظر سيادتك !!»

يضحك صالح :

- «قلت له الشعب المصرى كبير ! قال لى من أنهو ناحية ؟ قلت له من كل النواحي : كبير فى العمر كبير فى المقام فى العقل فى المفهومية !! قال لى وإيه علاقة ده بالحزن على عبدالناصر ؟! قلت له فتح مخك امال ياخواجة ماهو الكبير فى كل حاجة كبير فى الحزن برضه ! أصله بيحب عبدالناصر لأن عبدالناصر ياخواجة كان قد الشعب المصرى ! على مقاسه ! كبير زيه فى كل حاجة ! مصر حطت سرها فيه فأصبح هو مصر ومصر هو !! الخواجة ماداش منطق بعدها ! هأ هأ هأها .. ي .. إنزل» .

هكذا شاركناه فى الضحكة وأضافنا إليها كلمة : إنزل ، التى هى دائما فى ختام ضحكته الصاعقة بمثابة النقطة فى نهاية الجملة .

الرهان الخاسر

لم يكن إبراهيم القماح وحده من لاحظ - بلماحيته وذكائه الشديدين رغم أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة - فتور العلاقة النفسية بين طلعت الإمبابي وصالح هيصة ؛ فقبل عدة أسابيع وفيما كانت القعدة حابكة على سنجة عشرة والحجارة سالكة والجوزة تنتقل بسلاسة وإيقاع سريع، بيننا نظرا لقلة عددنا أصيل ذاك اليوم ، اختصني الممثل زكى حامد بغمرة أردفها بصوت مسموع :

- «طلعت ماعادش بيمسى على صالح هيصة يعنى !!»

كانت الغمرة على وشك أن تمر مرور الكرام دون أن تلفت نظر أحد ؛ لولا أن طلعت نفسه هو الذى لفت نظرنا إليها حيث شحب وجهه وغاضت الدماء فى صدغيه فى خفقة سريعة لكنها تركت دويا مكتوما مقلقا ؛ بدا عليه أنه انزعج ؛ شرع ينفى الأمر بجدية وقوة قائلًا بصوت شاحب صدىء :

- «إطلاقا ؛ ياخبر أبيض ؛ ده صالح حبيبي جدا ؛»

ليته مافعل ؛ من ناحية لأن نبرة صوته أكدت أن فى نفسه شيئا من الموجدة يحاول إخفاءه بغير جدوى ؛ ومن ناحية أخرى لأن كذبه على نفسه وارتبأكه نتيجة لذلك نسى أن الحشيش ليس مشروب صالح هيصة فطلب من صابر أن يدخل عليه بحجر على سبيل التحية . يبدو أنه انتبه لذلك فتمطعت على شفثيه ابتسامة صفراء تشى بأنه على وشك أن يصبح يالقم المليان : «أيوه أنا متغير من ناحيته حد له عندى حاجة ١٩» .. إلا أنه لم يقل شيئا من ذلك ؛ إنما لاذ بالصمت برهة . ثم إن دوره فى التوليع أنقذه من حرج الصمت الطويل فأمسك البوصة بهدوء وراح يقطع على مهل تمهيدا لشد النفس الطويل الذى لا نفس بعده فتلك هى طريقته فى الشرب ، دائما تذكرك بلاعب الكرة الذى يرجع إلى الوراء عدة خطوات لكى يرتد عائدا ليشوط ضربة الجزاء .

ذات صباح جنّت إلى الغرزة لأخطف عشرة حجارة قبل أن أتوجه إلى نادى
الإذاعة فى عمارة على ناصيتى علوى والشريفين لأحضر القراءة الأولى لخماسية
إذاعية من تأليفى ؛ فوجدت كلا من قمر المحروقى ومصطفى لمى ، كانا منهمكين
فى نقاش خنفسارى مع صالح هيصة ، يعنى نقاشا فى السياسة ، حيث كان قمر
المحروقى آنذاك لاينى يعلننا أن صواميل مخه قد تفككت من أفاعيل أنور السادات
الذى يقوم كل يوم بشطب صفحة أو صفحتين من تاريخ ثورة يوليو ويتشدد مع
ذلك بآئه سائر على خط الزعيم الراحل : فمبنى مجلس قيادة الثورة تم التفريط
فيه ؛ وأعداء الثورة الأصلاء تم الإفراج عنهم ووضعهم فى مراكز مرموقة بمن
فيهم الذين ثبتت خيانتهم للبلاد ؛ وبعض الخاضعين لقرارات التأميم سمح لهم
برفع قضايا ضد الدولة وكسبوها فاسترد البعض مؤسساتهم وانفكت الحراسة
عن أموال غيرهم ؛ وسمح لنجوم العهد البائد بوضع كتب سوداء مسمومة تشكك
فى ذمة عبدالناصر الشريف الذى مات فقيرا معدماً وسمح لهم بالتمادى فى
الدعارة الصحفية على مساحات عريضة أفردت لهم فراحا ينددون بالمكاسب التى
حصل عليها العمال والفلاحون سواء فى الحياة أو فى التمثيل النيابى ؛ يستنكرون
مجانبة التعليم ؛ يحملون بضراوة على قانون الإصلاح الزراعى وما نتج عنه من
تفتيت الملكية الزراعية أدى إلى اضطراب المحاصيل وفوضى فى الاقتصاد
الزراعى ؛ يلطمون الخدود يشقون الجيوب من كارثة السد العالى كأكبر مقلب
شربه النيل فى حياته إذ حوله إلى خصى لا طمى فيه يخصب الأرض كما أنه فى
الغد القريب ينحر الشواطىء ويتسرب الماء إلى جميع المدن ليهدم عمارتها ؛ انبرى
أنيس منصور فى مواقفه اليومية يغري الناس بالهجرة يزين للشباب مغادرة البلاد
لملاقاة فرص المستقبل السعيد فى أمريكا وأوروبا .. إلى آخر هذا الرصيد الذى
يجمعه قمر المحروقى كأسباب لخلطة صواميل مخه .

لحظة اقترابى من غرزة حكيم كان صوت صالح هيصة هو الأوضح ، كان
جليا ، مجلجلا ، عريضا ، تخينا ، مرحا ، حميما ، متوهجا بالانفعال الصادق ،

يشع منه شيء من الجلال والرغبة يذكرانك بشخصية تيريزياس صاحب النبوءات الصادمة فى المسرحيات الإغريقية القديمة :

«لو أنور السادات قل عقله وفطر فى القطاع العام اطلعوا كلكم يد واحدة وقولوا له عندك ! كله إلا القطاع العام ! حيفضل للناس إيه لو خدته منهم . ثلاثة بالله العظيم ما حنلاقى سندوتش فول ولا قميص نلبسه ولا جزمة ! كسوة العيال فى العيد حيجيبوها منين؟ السمنة والزيت والبيض والسمك المتلج والفراخ المجمدة حنلاقيها فين ؟ صابونة نفسل بيها هدومنا ! حد فيكم يقدر يشتري كيلو لحمة من عند الجزار ؟ يمكن انتو تقدرؤا لكن الشعب ما يقدرش ! الناس يادوب تقدر تدفع أجرة الأتوبيس اللى بيتعجنوا فيه وتتهان كرامتهم وينداس شرف نسوانهم يعملوا إيه دول ؟ يركبوا التاكسى ؟ إذا كان القطاع العام بايظ ما تصلحه طيب ؟ شيل منه الحرامية اللى انت حاططهم فيه ينصلح حاله!» .

وجدتني واقفا على باب الغرزة أشارك القاعدين فى التصفيق المرح ؛ وكان صالح قد تخطى عهده أثناء اندماجه فى الكلام وخطف رجله إلى شبك الغرزة البعيد ليلتقط منه السيخ الذى احتاجه لتسليك حجارة مسدودة إلا أن حرارة الانفعال أبقتة واقفا واضعا السيخ تحت إبطه كعصا المارشالية لكن دون أن يقصد إلى ذلك . فلما فوجيء بالتصفيق هدرت ضحكته المتدفقة فى صدره ثم تخطى عدته إلى ركنه حيث قعد يسلك الحجارة كأن شيئا لم يكن . خيل لى أن قمر ومصطفى لم يفتننا إلى جلوسى وسطهما ؛ فأعلنت عن وجودى :

«أمال إيه المؤتمر ده على الريق؟!» .

ضحك قمر فغاص صدغاه فى فراغ حنكه الواسع وأخذ يزوم فيما يكتب الدخان فى أنفه :

«صالح هيصة زعلان عشان طلعت ماعادش بيديله وش!» .

«دلقه يعنى ! بطل يلاغيه» !

هكذا أوضح مصطفى ؛ فأكد قمر :

- «فجأة أصبح كأنه ما يعرفوش !»

تحفظ مصطفى :

- «ده إحساس صالح ! هو متوهم كده أ

- «طب وده ماله ومال الخطبة اللي كان صالح بيخطبها ١٩»

زام عمر أو لعله ضحك :

- «ماهو الكلام جاب بعضه ! هو دا صالح هيصة» !.

اتسعت ابتسامة مصطفى الكتومة المتأثية دوما :

- «بس فى الموضوع ! كله فى الموضوع» !

- «صالح هيصة مطاط ! أولسايز ! يتسع لكل المقاسات ! كل شىء عنده

متصل ببعضه ! الرغبة يقرب لمجلس الأمة ! والزيت والصابون والفلو يقربوا

لجمال عبدالناصر! ومعمّر القذافي وأنور السادات وياسر عرفات وصادق حسين

وأمریکا فى نظره عيلة واحدة ! والملك حسين يقول للإنجليز يا جدى ! ومصطفى

خليل وعبدالعزيز حجازى ومصطفى أمين ولاد المماليك البرجية !! ده أنت فاتك

نص عمرک لأنك ماسمعتش الخطبة مع أولها مع أن السبب فى الأصل كان زعله

من طلعت !!»

ولأنى كنت مستعجلا فلم يكن عندى وقت للتقصى ؛ ولكن طاف بذهنى أن

طلعت الإمبابى كثيرا ما تنتابه حالات من الرغبة فى التوحد لكنه لفرط ولعه

بالصخب واللثة لا يتاح له ذلك فإذا هو يندمج فى شرود لساعات يحشش بعمق

وتركيز نون أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، تدق ملامحه فوق دقة حتى تكاد تتلاشى

فلا يبقى من وجهه سوى ظل شاحب شديد النحول على جسد كالخيزرانة ؛ فى

لحظات كهذه قد ينسى واجبات كثيرة ، أن يرد التحية مثلا ، أن يطلب لنفسه

شايًا نون أن يعزم عليك ، أن ينسى المفاتيح فى مكان ما ثم يفرض عليك

الانشغال بها لمدة ساعتين مثلا . لكن لم يكن يخطر ببالي أنه - وهو أشدنا ولعاً

بصالح هيصة وتأثرا به واقترابا حميما منه - يمكن أن يقلب لصالح ظهر المجن .

إلى أن تصادف انفرادى بإبراهيم القماح فى مساء اليوم التالى فإذا هو يجابهنى بسؤال مفاجئ :

« هو إيه اللى حصل بين طلعت الإمبابى وصالح هيصة ؟! »

أقلقنى السؤال سيما وأنه قيل بنبرة جدية . قلت :

« ما اظنش أن فيه حاجة ممكن تحصل بينهم ! ما أنت عارف أن طلعت

ساعات يبقى براوى ! »

شوح إبراهيم بأصبعه السبابة فى نفى وتأكيد :

« لا ! أكيد فيه حاجة غير طبيعية ! أصله لسه ماشى من شوية ! جه وأنا

قاعد ومشى وأنا قاعد ! ماسلمش على صالح خالص ! حتى صالح مسى عليه

ماردش وتجاهله ! حاولت أخرجره فى الكلام مالدانيش فرصة ! وتنه ماشى لا

إحم ولا دستور!! »

« غريبة فعلا ! ما يمكن فيه حاجة شاغلاه !! »

« جايز ! بس طلعت أنا فاهمه كويس ! طموحه كبير قوى ! واللى عندهم

طموح كبير كده بيبقوا حالانجية ! تلاقيه راسم على إنه يبقى وزير فى يوم من

الأيام! »

« لا ! طلعت الإمبابى ما يقلش بأى حال عن رئيس جمهورية كبيرة زى

الاتحاد السوفييتى كده !! » .

ضحكتنا بعمق ومرح شديدين وقال إبراهيم إن هذا إذن يكون هو سبب

الخلاف إذ يشعر طلعت أن صالح هيصة قد ينافسه على منصب الرئاسة . بعد

ذلك بيومين التقانى قمر المحروقى صدفه فى حوالى العاشرة صباحا ، كنت

خارجا من محطة مترو المعادى فى باب اللوق وهو قادم من ميدان التحرير إلى

المبنى التابع للجامعة الأمريكية حيث يوجد مكتبه . تعانقنا كأننا لم نلتق منذ

سنوات طويلة ؛ ما لبث الحضن الدافئ الذى ضم صدرينا حتى استدار بنا

لتقائنا إلى ميدان التحرير ومنه إلى شارع الأنتيكخانة فى طريقنا إلى غرزة

حكيم . ثم توقف هاتفا : « ده أنا ممعيش حشيش ! »

قلت : «ولا أنا !» ، وكنا فى منتصف شارع بسيونى . أشار لى فتبعته إلى ممر شديد الأناقة متلولب كأنه شرخ بين العمائر يوصل إلى شارع قصر النيل . عجبت ، فلم أكن أعرف أن هذا الكشك الذى يكاد يسد الممر ويعرض الانتيكات إنما هو فى حقيقة أمره كشك مراقبة أقامه صاحب مقهى داخل الممر يبيع الحشيش . أخذنا حشيشنا من فؤاد صاحب المقهى ومضينا ، عبر هذه المسافة القصيرة زمنيا ومكانيا حكى لى قمر ماكان من أمر صالح هيصه حين استضافه طلعت الإمبابى فى بيته لعدة أيام ، ذلك أن قمر المهتم هو الآخر بالفنور الذى طرأ على العلاقة بين الصديقين الحميمين قام بتحريراته الخاصة حتى توصل إلى ما استحق أن يحكيه لى بأمانة وحيادية :

كل صديقات ماتيلدا زوج طلعت الإمبابى هن فى نفس الوقت صديقات محاسن عاصم زوج قمر المحروقى . من بينهن امرأة خفيفة الظل والحركة اسمها حياة البرى ، تعمل فى إدارة الجامعة الأمريكية ؛ لها نشاط ملحوظ فى ترجمة المقالات السياسية وبعض الدراسات الأدبية عن الإنجليزية تنشرها فى بعض المجلات والدوريات العربية . هى مطلقة ، فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها؛ سمراء قمحية اللون جذابة ، نحيفة كشريحة البيتزا لكنها تتدفق أنوثة وجاذبية شرط أن تقترب منها وتبين تفاصيل جسدها المرسوم بدقة حيث التكررات والانبعاجات مجرد ظلال رمزية أكثر إثارة وفتحا للشهية ؛ مصابة فيما يقولون بداء يطلق عليه العامة داء «السودة» ، أى أنها فى حالة هياج جنسى لا يكل ولا يمل ؛ الود ودها - فيما يقال أيضا - لو تبقى طريحة الفراش لا تقوم إلا لتغتسل متهية لدخول جديد . لهذا - ربما - فشلت فى حياتها الزوجية ثلاث مرات كانت الأخيرة منها تحت سمعنا وبصرنا . نشهد أنها كانت تعتبر متنازلة كثيرا حين قبلت الزواج من هذا الأخير وهو صحفى ناشئ فى قسم الشؤون الخارجية بوكالة أنباء الشرق الأوسط بعد أن كان أول زوج لها نجما سينمائيا مشهورا جدا . كواحد من أهم وأنضج المخرجين المجددين فى السينما المصرية وقيل إنها كانت

تعلم أنه مصاب بالشنوذ الجنسي بل قيل إنها كانت سعيدة بذلك تمشياً مع الشائعة التي تقول إن المصابين بالشنوذ الجنسي من الرجال هم الأكفأ جنسيا بالنسبة للمرأة لكنها نفرت منه لأنه فى إحدى سفرياتهما معا اصطحبها إلى نادى العراة لممارسة الجنس الجماعى فتركته هناك وعادت وحدها لتتفصل عنه بعد أيام قليلة . أما زوجها الثانى فكان وكيلاً لوزارة التربية والتعليم قد تعرف عليها من خلال ابنة أخته الطالبة بالجامعة الأمريكية حيث كان هو ولياً لأمرها ، وقد انفصلت عنه بعد عناء شديد بسبب من تخلفه وعقليته التقليدية المتبسية . زوجها الثالث - الصحفى الناشئ - كان يدلف علينا فى الغرزة بين حين وآخر ؛ فكنّا نلح عليه باهتمام شديد المراهقة أن يحكى لنا عن أسباب الانفصال ؛ فيقول عنها كلاماً طيباً جداً يكاد يكون قصيدة مدح فى حلاوة طبعها وشخصيتها وريحها وحسن معاملتها للزوج فى الفراش ولكن نهمها الوحشى وإن كان مثيراً جداً فإنه سرعان ما يترك فى نفس الرجل شعوراً بالخطر الفادح من أن يكون مسئولاً عن هذه السفنجة التى لا تمتلىء مطلقاً .

حياة البرى مع ذلك بسيطة صافية لا تعانى من أى عقد نفسية على الإطلاق لأنها منطلقة متحررة بمعنى الكلمة ما تريده تفعله عن اقتناع دونما تردد . حديثها سلس ، أفكارها مرتبة منظمة لا تخلو من بلاغة شعورية بل - وبالله العجب - وملائكية كما يصفها البعض لدرجة أن من يراها ينسى فى الحال كل ما سمعه عنها بل لا يصدق ، لا يخطر بباله مطلقاً أن هذه القطة الوديدة الودودة الصافية التى - رغم فراعنتها - يمكن للرجل أن يطويها كالورقة المالية يدهسها فى جيبه الصغير ليدخرها لا ليصرفها . لا تستعمل أى مساحيق أو أى أداة للترزين فيما عدا ذلك العطر النفاذ المرتبط بجسدها كله على الدوام . صريحة مباشرة إلى حد الخطر الداهم ، يعنى لو حاول أحدهم جرجرتها فى أى كلام مغطى فإنها ستخرق وجهه بسهمين حادين مطلين دائماً أبداً من قاعدتى عينيها الواسعتين المشرعتى الرموش ثم ترديك صريعاً تتخبط فى شبر أعمالك لا ينقذك خجل أو وقار أو لعنة ؛

ببضع كلمات سريعة تردك تغلق عليك باب المصيدة . حدث مرة أن سألها أحد الخبثاء عن سبب تطليقها من الصحفى الناشئ فأفحمتها بكلمة :

« لأنه زيك بالضبط لا راجل ولا ست !! »

حياة البرى من أصول صعيدية . ولدت فى مدينة المنيا لأب كان وكيلا لمكتب بريد المنيا فالحقها بمدرسة أجنبية منذ الطفولة ؛ ثم التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية. أبوها غافلها ومات وهى فى السنة الأولى بالجامعة دون أن يترك لها شيئا سوى معاشه الضئيل ؛ لكنها عنيدة صلبة ، اشتغلت فى أحد مكاتب الاستيراد والتصدير محررة للمراسلات الأجنبية ومترجمة لها حتى تمكنت من النجاح فى الجامعة بتفوق . حينئذ ظهرت على أمها الشابة العفيفة بوارى غير مريحة فلم تتوقف عندها إذ كانت تعرف أنه لا فائدة ترجى من محاولة الحكم على امرأة لاتزال فى عنفوانها بالترمل الأبدى فسلمت لأمها بحقها فى الزواج دون مناقشة ثم استقرت فى القاهرة حيث اشتغلت بعد تخرجها سكرتيرة لصاحب شركة إنتاج سينمائى شهير كان مفتونا بها لطلاقها فى الإنجليزية ودائرة معلوماتها الفنية والأدبية الواسعة فاستمرت معه بمرتب كبير إلى أن تزوجت المخرج السينمائى وبواسطته انتقلت إلى وظيفة فنية بالجامعة الأمريكية .

علاقاتها واسعة جدا ، لها صداقات ومعارف لا حصر لهم من جميع الجنسيات تحظى باحترامهم تربطهم بها حميمية عجيبة إذ ما يكاد الواحد منهم يراها - رجلا كان أو امرأة - حتى يطلق صيحة ابتهاج كانه عثر على لقياء ثمينة . هى تعرف ماتيلدا حتى قبل أن تتزوج من أحمد عاصم ؛ قيل لأن ماتيلدا ، عضو مهم جدا فى الحزب الشيوعى الإيطالى وذات نشاط واسع فى المؤتمرات النسوية الدولية وأن حياة كانت قد ترجمت بعض مقالاتها من مجلة إنجليزية ونشرتها فى مجلة عراقية شيوعية اتصلت بماتيلدا التى طلبت عنوان حياة وأصبحت تراسلها بالإنجليزية إلى أن فوجئت حياة بأن صديقتها الإيطالية تزوجت مصريا وأتت معه إلى القاهرة .

منذ ذلك الحين أصبح بيت طلعت الإمبابى بيتا لحياة البرى ؛ ليس فحسب لأنها أعز أصدقاء ماتيلدا بل بتشجيع وترحيب من طلعت . ذلك أن طلعت فى الواقع زئر نساء لا مثيل له بين جيله كله ؛ هذا الزعزوع السهتان يمكن أن يرتكب أخطر الموبقات دون أن يدري إذا كانت ستوصله إلى امرأة يشتهيها . كان يشتهي حياة البرى منذ أن وقع بصره عليها لأول مرة يوم جاءت لتسلم على صديقتها الإيطالية وتتعرف على زوجها المصرى . كانت فى نظره هى الجنس الحقيقى كما يستشعره ويتمناه سيما وأن ماتيلدا - وقد تزوجها رغم ذلك - ليست جنسية على الإطلاق ؛ إنها بيضاء فحسب ، مشربة بحمرة خفيفة ، مترهلة الجسد غير متناسقة الأعضاء بالمرة ما بين كفل كبير وجسد كعربة الحنطور ؛ ثم إن المرأة المثقفة لا يجرى منها جنسيا فى نظره فما بالك لو كانت تشتغل بالسياسة على مستوى الاحتراف الولوى ؟ زاد اشتهاؤه لحياة بعد زواجه من ماتيلدا ؛ أصبح يشتهيها بكل ما فى خياله الجنسى من نشاط وقوة .

راودها عن نفسها صراحة ذات مرة ؛ فقالت له بكل بساطة : «أنا امرأة جنسية وأنت رجل غير جنسى !» قال لها : «من أدراك» . قالت : «حدس المرأة المفتوحة المسام !» ثم أردفت : «إن الرجل الحقيقى لا يراود المرأة عن نفسها أصلا إنما هو يكافأ من المرأة على تعففه وصدق رجولته !» ؛ ثم استدركت لتقضى على البقية الباقية من إلحاحه السمج الذى يريد أن يفرض عليها فحولته المزعومة فى نظرها : «أنت بالكاد تكفى ماتيلدا المتواضعة غير المعنية بالجنس ! حتى ماتيلدا لا أظن أنك قادر على إشباعها !» ؛ قال : «جربى قبل أن تحكمى !» ؛ قالت : «إذا كانت نفسك ... لنقل الضعيفة تسمح لك بخيانة زوجتك مع صديقتها فإننى لا أقبل خيانة صديقتى مع زوجها» .! سبغ البرمبة صار كالأرنب المنذور . كانت تعرف أنه كذب عليها عندما قال لها إن ماتيلدا تنتظرها على الغداء فوضعت سماعة التليفون وأتت فى الحال لتكتشف أن ماتيلدا لديها محاضرات إضافية بعد الظهر وستبقى فى المعهد حتى الثامنة مساء ومع ذلك تظاهرت بتصديقه حين

زعم أنه تلقى لتوه مكالمة من ماتيلدا تعتذر فيها عن التأخير الاضطرارى . فجأة
قال لها :

- «ماتيجى اسقيكى حجريين حشيش ؟» .
- «فى غرزة حكيم برضه ؟» .
- «فيه أحلى منها ؟ شفتى صالح هيصة ؟» .
- «رحت كذا مرة مع قمر ومع طليقى ومع ذلك ماشفتوش !» .
- «تلاقىكى رحت وهو مخلص المقطوعية ويعمل هيصة ! تعالى أفرجك
عليه» !.

فى غرزة حكيم انزوى بها فى ركن قصى ؛ لكنها ما أن وقع بصرها على
صالح هيصة فى ركنه منهمكا فى رص الحجارة حتى ركبها الفضول فأهملت
طلعت ، زحفت ، أقعت أمام صالح تتفرج عليه بإمعان وفضول شديدين مما جعله
يهدر بالضحك حتى صارت تفاحة آدم البارزة تحت ذقنه تعلق وتهبط كغريال
يتخبط يغربل الضحكات فتتساقط خشونتها صدره يتناثر دقيقتها الناعم على وجه
حياة البرى . تعبت من الإقعاء فجلست على المصطبة التى نجلس عليها فى
مواجهته مما اضطر طلعت إلى أن يحمل خشبة الحجارة ويخىء إليها مسلما أمره
إلى الله يجلس فى الملقف الذى أراد الهروب منه حتى لا يتطفل عليه واحد من
الشلة يفسد عليه خطته . يومها شربت حياة بعمق ، ناددت طلعت فى شد الأنفاس
وكتمها فى المنخرين كعتاة الحشاشين ؛ اسبهلت ، توهجت فوق وهج ، أنعشها
الحوار الطلى مع صالح هيصة ، أشعل خيالها ، عشقته ، شعرت أنها قد ارتدت
إلى ذلك العالم البدائى الساحر المثير ، فجأة أبونا آدم أمامها وجهها لوجه فى أحد
الأخنان بعد طرده من الجنة مباشرة ؛ فانتابها شعور خفى بأنّها حواء ، انتفت
شخصيتها تلاشت بطاقتها الشخصية بل تلاشت عنها ثيابها شعرت كما لو كانت
سعيدة بعريها . الأهم من ذلك أنها استشعرت فى صالح هيصة رحيقا من الرقة
والتحضر لم تجدهما فى أى مخلوق طوال عمرها ؛ ناهيك عن حياته الأصيل

المبهج ؛ قالت لطلعت إنها تدفع عمرها كله لتعيش على سجيبتها مع هذا الرجل أطول وقت ممكن من الزمن لا تلتزم فيه بأي قيود أو تقاليد أو عادات بل تغتسل من ثقافتها ومن كل علم حصلته إذ إن كل معلومة تضاف للإنسان هي في نظرها قيد جديد يحد من حريته . حينما ألح عليها طلعت بضرورة الانصراف قامت لتسلم على صالحي هيصة ، سلمته يدها النحيلة الناعمة ؛ فشعر بالحرج من وساخة يديه الملونتين بعسل التبغ والحصى وصداً الحجارة ؛ بكل حياء لف كفه في منديل من الورق واحتوى يدها يشد عليها بحرارة وصدق ؛ فبقيت في وقفتها مخدرة إلى أن سحبها طلعت ومضى . تأبطته غير مبالية بضربات ثديها لكوعه وهي تميل عليه قائلة في نشوة جنونية :

- « تصدق يا طلعت ؟ أهو ده الراجل اللي نفسى فيه !! أما لو كان يرضى بيجي يعيش معايه بشرط أنه يفضل زى ما هو كده !! » .

رغم أن الصدمة زلزلت طلعت هزته من أعماق أعماقه فإنه استحلى طعم السخريه كملاذ مريح قبل أن تشق الصدمة رأسه . قال كأنه يحاول نزع النصل الحاد من قلبه :

- « ما يرضاش ليه ؟ ده يتمنى ا ! » .

- « ما أظنش ! اللي زى ده شكله يخدعك بأنه سهل وهو في الواقع عقدة ! في العادة بتلاقيه مبرمج على حياة معينة ! نظام معين مستحيل يقدر يطلع منه زى السمكة لما تطلع من الميه تموت ! صالحي هيصة ده لو طلع من هنا على قصر المنتزه حيموت ! القصر بالنسبة له سجن ! ده حتى لو طلبت منه ينام معايه ممكن ما يرضاش !! يا إما خوف من الحرام يا إما عدم ثقة في نفسه !! » .

- « لأ بقى ! كله إلا دى ! ده كان حياكلك أكل ! والنبي لو اتقفل عليكم باب ليفترسك ويمصمص عضمك ! دول ناس متوحشين والفقير هو اللي مخلص ضوافرهم ! الحرمان والكبت الجنسي اللي صالحي عايش فيه بيخليه على أتم استعداد لأي هبرة ! المنطق بيقول كده ! » .

- « غلط !! المنطق ما يقولش كده ! دى نظرتك أنت بس هي اللي تقول كده !
حاكم أنت التاريخ اللي بتدرسه من غير وعى حقيقى بوظ لك مخك أكثر ما هو
بايظ !! خلاك تتعامل مع الناس باعتبارهم قطعان غنم وطوائف تتوصف بأوصاف
واحدة !! المنهج اللي أنت بتشتغل بيه بيركز على الجماهير والتفسير المادى
للتاريخ لكنه بكل أسف عاجز عن فهم الجماهير !! أنا بقى عشان قارئة أدب عالمى
ومحلى بيهمنى الفرد فى حد ذاته وعندى يقين بإن الناس مختلفين زى بصمات
صوابهم بالضبط حتى لو كانوا توائم !! » .

- « يعنى عاوزه تقنعينى إنك لو عرضتى نفسك على صالح هيصا ما يسيبش
اللى فى ايده ويهجم عليكى يالكك لحم وعظم ؟! مين يصدق الكلام ده ؟! إذا كنت
أنا اللي متجوز ولى مغامرات كتيرة ما أقدرش .. » .
سحبت ذراعها من إبطه فى نعومة لتلوح بها :

- « إنت آه ! إنما هو لآ ! ممكن يكون عنده ألف سبب يمنع من الاستجابة
حتى لو كان هو نفسه عنده الرغبة والقدرة ممكن رغبته تندفن من تلقاء نفسها
لأنها على الأقل عاجزة عن التعبير عن نفسها !! » .

- « دى لو كانت غريزة ويس! الغريزة حيوانية . آه لكن العقل المكتسب كل ما
كان كبير تتحجم الغريزة ! إنتى لسه قايلة بعضمة لسانك إن أى معلومة جديدة
بتبقى قيد جديد على الحرية الشخصية !! » .

- « ما أنت عقلك المكتسب كبير ومع ذلك الغريزة باسم الله ما شاء الله جنينة
حيوانات كاملة ! المسألة محكومة بحاجة ثانية ! بالقيم اللي جوه البنى آدم اللي
اتربى عليها يا طلעות ! » .

- « طب تراهنينى ؟! » .

- أراهنك! » .

- « كام لكام ؟! » .

- « لو صالح هيصا استجاب لمحاولتى ورضى ينام معايه ! مجرد إنه يرضى

بس ومش مهم الباقي ! حاديلك نفسى ليلة كاملة !! وإذا صالح أيد وجهة نظرى وامتنع لأى سبب من الأسباب يبقى عليك تشيلنى من دماغك نهائيا وإلا حاقول لما تيلدا على كل حاجة وأنت عارف إنى ممكن أعملها !» .

هرش فى شاربه بكثير من التوتر والشحوب :

- « أيوه بس ازاي حاوافق أو إنتى توافقى على إن واحد زى ده ينام

معاكى؟! » .

- « ومين قال إن ده حيحصل ؟ أنا حاختره بس ! حاشوفه حيوصل معايه

لحد فين وخلص ! » .

- « مصممة على التجربة دى ؟! » .

- « جدا ! وإذا ما اشتركتش معايه فيها حاعملها لوحدى أو بواسطة حد تانى

زى قمر المحروقى مثلا ! » .

- « بس دى عايزة ترتيب ! تأليف وإخراج وتمثيل ! » .

- « وماله ؟ اعزمه يجى ضيف عندك يومين ثلاثة . ويعد ما يشعر بالآفة نبقى

ناخذه ونروح شقتى نعمل العملية دى هناك ! » .

- « وهو كذلك ! إنتى مجنونة وأنا أجن منك ! » .

انتقل صالح بالفعل إلى شقة طلعت الامبابى ضيفا عزيزا مكرما ، الشقة

الحافلة دائما بآرتال من الشباب معظمهم من النساء الأجنيات والمصريات كلهن

أعضاء فى تنظيمات ماركسية متعددة تقوم إحدى الخلايا الفرنسية بمحاولة

توحيدها وتتولى الإنفاق عليها عند الأزمات . بظهور صالح هيصة فى الشقة

اضطربت أحوالها بصخب بهيج كاد يصل إلى حد الجنون على شرف هذا

الضيف العجيب . كان بالنسبة لهم كحيوان بشرى نادر يعود إلى جدنا القرد

رأسا كئنه انعزل طوال تلك القرون الماضية فى غابة من الغابات قبل ظهوره هنا .

الجميع راح يهنئ طلعت على عمق صياغته واكتشافه لمثل هذه النماذج الإنسانية

العتيقة . بعضهم راح على الفور يضعه تحت الدراسة والفحص الاجتماعى

والثقافى يربطه بالمجتمعات البدائية التى قدر لها أن ترى منجزات العلم الحديث .

بعضهم الآخر جعل يتمتع نفسه بالاستماع إلى حديثه الطلى واستشف ما فيه من أفكار غريبة وآراء متشددة فى الحياة وحكم بليغة لا نهاية لها . بعضهم الثالث - من أصحاب العقول التنظيرية ذات الطابع الحنجورى الهتافى - راح يسخر من الجميع من ابتذالهم وفراغهم إلى حد هذا الاهتمام غير العادى برجل بدائى متخلف لا فى العير ولا فى النفير أما ماتيدا نفسها - زوج طلعت وسيدة هذا البيت ودافعة ايجاره الشهري - فإنها قد سعدت به ورحبت بوجوده فى أريحية لم تكن متوقعة على الإطلاق . ذهبت - الأروية - إلى وكالة البلح فاشتريت له سروالا وقميصا وشرزا من الملابس السابق استعمالها ، ذلك لأن الملابس الجديدة - كما توقعت بألمعيها المتودكة على التعامل مع فقراء العالم الثالث - قد لا تعجبه . دربته بنفسها على استعمال الدش والبانىو وكيفية الاستحمام بالليفة والصابونة اللتين اشتريتهما خصيصا له ؛ ولا تسلم عن سعادتها وهى تراه خارجا من الحمام بعد أن لبس هودما نظيفة ، حيث تأكدت نبوءتها بأن الاستحمام وتغيير الملابس لن يؤثرأ على فولكلوريته بل على العكس زادها ألقا .

فى البداية كان صالح هيصة سعيدا بهذا الاهتمام غير الطبيعى به ، ينام مله جفونه فى مطلع النهار بعد أن يتناول فطورا طيبا من البيض المشوى مع طبق الفول وأنواع من الجبن الأبيض والأصفر والأحمر ناهيك عن المربى والعسل الأبيض والزبد والقهوة باللبن ثم الشاى . يصحو عند أذان العصر ليتغدى غداء شهيا حافلا بلحم الأبقار والطيور مطبوخا بطرائق مبتكرة يعرفها جيدا منذ كان صبيا فى مطعم اليونانية تحت سينما الأوديون . فى الليل يشرب الويسكى أو الروم أو النبيذ مما يجئ به ناس كثار أحبوا رؤية صالح هيصة والتفرج عليه والتحدث معه لكنه مالبت حتى سئم اللعبة كلها، بدأ يشعر بالضيق الشديد من هذه الحلقات التى تحاك حوله ليل نهار باعتباره أعجوبة غريبة شاذة ، بات يضيق بكثرة الاسئلة وما يلقاه من عنت وعناء فى الرد عليها بقدر ما يستطيع من صدق وأمانة ، بدأ يظهر عليه التذمر والضجر ؛ بدأ يتحدث كثيرا عن اشتياقه لحي

معروف ، الهيصمة ؛ قال بصريح العبارة إنه يريد أن يعمل هيصمة حيث إن الويسكى والروم والزييب والعرقى كل ذلك لا يؤثر فيه بأى درجة . وهذا بالضبط ما أرادته حياة البرى ، قالت لهم إن صالح هيصمة لابد أن يغير الجو ؛ تعهدت بأن تأخذه للتهوة وتجدد النفس ثم تعود فتسلمه لهم كاملا غير منقوص .

سبقها طلعت إلى شقتها ، اختبأ فى حجرة المكتب وأغلقها على نفسه من الداخل ورمى بجثته فوق الكنبه الاستديو وهو فرح بوجود نسخة من كتاب كان يقرؤه فى بيته هو كتاب «اللاهوت والسياسة» لاسبينوزا ؛ راح يستكمل قراءته متجنباً التخطيط بالقلم على صفحاته كما يفعل فى نسخته الخاصة . إلا أنه كان شديد الاضطراب متلاحق الأنفاس شارد الذهن . بمجرد شعوره بدخولهما نحى الكتاب جانبا ، كاد يكح لولا أنه فطن فارتعب لبرهة ثم ابتسم ثم تمدد قائلا لنفسه إن الوقت لايزال طويلا حتى يبدأ الاختبار محاولته الفعلية .

حياة البرى وإن كانت متحضرة تلبس أحدث الموديلات وأرقاها تستخدم أثمن أنواع العطور الباعثة على النشوة والإيحاءات الجنسية ، وتقرأ وتتحدث بلغتين أجنبيتين هما الانجليزية والفرنسية إلى جانب العربية ، وتعشق الأدب العالمى وترجم الكثير من قصصه وأشعاره ومسرحياته ، ولها رأى فى القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية تعرف كيف تصيفه بشكل موجز محدد .. فإنها فى أعماقها تخبئ طبيعة حوشية بدائية شديدة الحيوانية ؛ لا تتسل عن ولعها بالماكولات التى تذكرنا بأصلنا الحيوانى البعيد أيام كنا نأكل الجيف كالفسخ والسردين والمش العتيق ، لا تسل عن انحيازها العاطفى لكل ماهو بدائى خشن ، هى طبيعة موجودة فى معظم البشر لكن حياة البرى شجاعة فى المجاهرة به وتمارسه نونما تحفظ ؛ وفى رأيها أن الجنس الحقيقى لا وجود له فى الحياة الزوجية إنما هى علاقة بيولوجية بين طرفين كشركة متفق عليها بعقد مبرم بينهما على أن يريح كل منهما الآخر من التوتر وأن ينجبا أطفالا ؛ أما الممتع حقا فإنه ضد الزواج ضد الثبات الذى يخلق ألفة واعتيادا يصد النفس كالطبيخ البابت

الممل المقرف أحيانا ، تضرب المثل بالجنس عند الحيوانات وخاصة جنس الكلاب حيث إنه وليد الرغبة الحقة عند طرفين ، فالكلبة تنشر فى الهواء رائحة رغبتها فتتكالب عليها طوائف من الكلاب الراغبة يصل الصراع بينها إلى حد الاقتتال فيما هى - الكلبة الراغبة - مقعية كالإمبراطورة تنتظر ما سيسفر عنه الصراع ، وربما مالت لواحد منهم وأعطته نفسها ، وربما نفرت منهم جميعا فإذا هم قد انسحبوا فى الحال فى هدوء وتحضر ! ومهما بلغ جنون الرغبة عند أحدهم فإنها لا تصل مطلقا إلى حد الاغتصاب كما يحدث بين البشر ! إلا قوة فى الأرض تستطيع اجبار كلبة على الاستسلام للاغتصاب مهما كانت ضعيفة والمغتصب قويا؛ إن لها مقاييسها الخاصة فى الاختيار والرضوخ بمحض إرادتها. هذا - فيما تقول نون حياء أو تحفظ - هو الجنس كما خلقه الله : أن تتوافق الرغبة عند طرفين فيحدث التلاقى فتكون المتعة عظيمة .. والرأى عندها أن مؤسسة الزواج قد ثبت فشلها منذ زمن بعيد حتى بالنسبة للغرض الأساسى منها وهو حفظ الأنساب.

كان طلعت الامبابى يعلم كل هذا سلفا ويوقن أنها متحررة جدا كما يوقن أنها إلى ذلك غويطة وليس من السهل ادراك اعماقها ، فلقد تقلب عليها أرهاط من زبانية القيادات والكوادر من نوى الأسماء الكبيرة فى الحركة الشيوعية وبخاصة أولئك الفوضويون الذين دخلوا الحركة الشيوعية نون وعى حقيقى بجوهرها وإنما لمجرد أنها ذريعة للتحرر من كثير من القيود ؛ كلهم عقروها وتركوها فى العراء تداوى نفسها بنفسها حتى امتلأت بجروح لا حصر لها أفقدتها الثقة فى جميع القيادات جميع التوجهات لكنها مع ذلك بقيت محصورة فى إطار هذه النوعيات من البشر لأن من يدخل الحركة الشيوعية يصعب عليه الخروج منها وقد تورط فى مواقف فى علاقات ليس من السهل التملص منها كما أنه تقريبا يكون قد أدمن هذه النوعيات التى تعرف بعضها ولا تتكيف إلا مع بعضها البعض . يعرف طلعت أنها لم تعد تؤمن بأى شئ على الإطلاق لكنها فى المقابل لم تعد صالحة للعيش

بين نوعيات جديدة مختلفة ، هى لا تشعر بكيانها إلا بين هذه النوعيات حتى وهم يمارسون عليها النصب والكذب والادعاء باسم المبادئ ومستقبل الطبقة العاملة ؛ لم تعد تسخط عليهم ولا تشمئز منهم ، ربما لأنها هى الأخرى تمارس عليهم نفس السلوك فإن واعدوا أحدهم بأن يلتقيها غدا فى المكان الفلانى فى الساعة كذا لقضاء المصلحة الفلانية فإنها تنصت إليه بجدية واهتمام مؤكدة التزامها بالوعد لكنه مجرد كلام سرعان ما تنساه بمجرد أن تعطيه ظهرها ، لا تذهب إلى الموعد لوثوقها من أن الآخر - هو الآخر - لن يجئ مطلقا ؛ ثم إنها اعتادت حرب الاشاعات والتشهير أصبحت محقونة بمصل منها يقىها من الاصابة بأضرارها ، فأينما التقت بالرفاق فى أية لحظة فإن الحديث يكون نهشاً وتمزيقا فى أحد الغائبين فلا هى تثق فيما يقولون ولا هم يصدقون أنها صدقت بل إنها لا تصدق حتى ما تقوله هى نفسها فى مثل هذه النميمة لأنه مجرد اعتياد على مجارة الحديث أينما اتجه بمرونة فائقة ، ولا بأس فى نظرها من مجارة أى شئ طالما أنها فى النهاية لن تفعل إلا ما تريده هى لن تلبى موعدا إلا أن يكون احتياجا ضروريا .

يقول قمر المحروقى بعد تحليله لشخصية طلعت وكيف يفهم شخصية حياة ، إن حياة حينما راهنت طلعت على صالح هيصة كانت فى الواقع تتمنى من أعماق قلبها أن يكسب طلعت الرهان ، يعنى أن يهيج عليها صالح هيصة ويفترسها إذ هى قد اشتتهته بالفعل وشعرت لرائحته الزنخة بنشوة خاصة ، وقد راق لها هذا الرهان فبيتت النية على الايقاع به فوق أرضها مهما كلفها ذلك من جهد حتى لو أدى الأمر إلى اغتصابه فى مغامرة بونية لا تخلو من سحر وطراقة ؛ ليس مهما عندها أن يكسب طلعت الرهان أو يخسره إنما المهم أنها لابد أن تكسب الموقف وتصل مع جنون النشوة إلى أقصى مداها .. هكذا اعترفت حياة لقمر بلسانها وهى تحكى له تفاصيل المغامرة مع سيجارتى حشيش فى لحظة ذات شجون فى حديقة الجامعة الامريكية .

شقتها فى روكسى بمصر الجديدة عبارة عن حجرتين كبيرتين احدهما متاخمة للباب - وهى المكتب والمكتبة - والأخرى فى الداخل مجاورة للحمام والمطبخ - وهى للنوم - أما الردهة فأشبه بالكرش دائرية وواسعة تتسع لأنثريه وترابيزة سفره دائرية بستة مقاعد مع خزانة زجاجية للأطباق ، ثمة ستائر مخملية على الباب من الداخل وشباك كان مطلان على المنور ، وعلى الفتحة الفاصلة بين الردهة والممر المؤدى إلى المطبخ فالحمام فحجرة النوم .

فى الردهة أجلس صالِح هيصه ، أتت له بزجاجة الكولا وزجاجة السبرتو الأحمر من الثلاثجة ، وديرق وكوب ، وبعض مزة خفيفة وضعت ذلك أمامه :

- « شوف نفسك يا ابو الصلح ! »

اختفت خلف ستارة الممر الثقيلة كالجدار . انشغل صالِح بإجراء الخلطة . راح يجرع فى اشتياق والحرقان يشحط حلقه يلهبه فيشعر لذلك بلذة . ثم بدأ التتميل فى دماغه مع سحب من ضباب تخايل عينيه ، ثم زحفت على خياشيمه رائحة عطر عبقرية عبأت الجو كله برائحة أنثى بحجم هذا الكون ؛ فارتعدت فرائصه ؛ استيقظت فى داخله مشاعر قديمة كان يظن أنها اضمحلت ؛ تحركت فى أعطافه مناورات خفية فشعر كأن عروقه تتمشى فيها دبابات ومصفحات وكتائب من المشاة بمدفعية ثقيلة؛ فجأة اكتشف بأنه لا يزال شابا فتيا فى الخامسة والعشرين من العمر مع أن شهادة ميلاده تنص على أنه فى الخامسة والاربعين. رفع رأسه ليواجه شبح الرائحة المسكرة، رأى حياة البرى فى صورة أخرى تماما، رأى شيئا لا يصمد أمامه أعتى الورعين ، جسدامبروما وموزونا بدقة إلهية معجزة تبرز تفاصيله كاملة خلل قميص نوم شفاف أسود كأنه مجرد سحابة رقيقة من دخان السجائر ، البطن الضامر مشدود للخلف تتوسطه سره كليم معضوض ؛ من تحتها سوة لطيفة كالرغيف البلدى القابب ، تنحسر قليلا فى الأسفل لينحصر التكور بين الفخذين كجوفائية مخبأة فى منديل حريرى وردى اللون مشبوك بحمالات ملفوفة حول خصر دقيق تتعلق به من الخلف عجيزة مدورة مشقوقة من

المنتصف حيث ينساب الفخدان فى نعومة كقرطاسين من المرمز ، ناهيك عن
سمانتى القدمين الحافيتين ،

انزوع المشهد فى عينى صالح فسمره فى مكانه شاحب الوجه ناشف الريق
متلاحق الأنفاس .

اقتربت منه فى دلال وتثن ، وبصوت أنعم من مفرش سريرها الحريرى :

- « روقت يا صلوحه؟ »

جلست فوق ركبتيه ؛ أحاطت كتفيه بذراعها ، مالت قليلا على كتفه فتدفقت
جدائل شعرها الأسود الفاحم على رأسه ؛ اندلق ثدياها السائبان تحت غلالة
القميمص العارى الظهر والكتفين ، الثديان مبططان كرجيفين من العجين قبل
دخولهما إلى الفرن ، وقد التصق العجين ببعضه فى أعلى لوح الصدر وانفصلا
عن بعضهما فى الأسفل وقد دبث فيهما الحيوية فانتصبت الحلمتان اخترقتا غلالة
القميمص صارتا جمرتین تلهبان كتف صالح .

ارتبك ، صار يضحك ضحكات جعلها التوتر الشديد تبدو بلهاء . كان
يرتدى جلبابا من البولين الأبيض بياقة وأساور ؛ وفوجئ بحياة البرى
تتفرز فى قعدتها ثم تقف مذهولة جاحظة العينين يلمع فيهما بريق جنونى .
لاحظ هو أن نظراتها تصب فى حجره. شعر صالح بحرج شديد فحاول
إخماده ونسيانه ، ركعت حياة أمامه ، راح صالح يهدر بضحكاته البلهاء
يتقوس يحاول إبعادها كطفل يهرب من الزغزغة .. صالح يحاول بكل قوته أن
يزيحها :

- « لو سمحتى يا ست هانم! طب نتفاهم الأول بس! » .

هى من اللهاث لا تجد صوتها فتطلق فحيحا وقد تعلقت بذراعيها فى رقبته
راحت تمرجح نفسها بمرونة ولياقة عفية . فلم يجد مفرا من الوقوف بها حاضنا
إياها بذراعيه . مشى بها قليلا وهى تصيح فى رجاء :

- « خش جوه على أوضتى! » .

إلا أنه اختار الكنبه الطويلة ومال فوضعها فوقها مخلصا رقبتة من يديها ؛ ثم تراجع بظهره لاهثا وجلس على المقعد المجاور لها وصدره يعلو ويهبط والابتسامه محفورة على وجهه فاقتدا النطق. أشعل سيجارة ، جرع رشفة وراح يدخن بشراهة. هبطت حياة من أعلى جبل الأولمب إلى منخفض القطارة صارت هشيما تذروه الرياح . إلا أنها كانت دائما تجيد علاج نفسها في مثل هذه المواقف الحرجة ، لقد أطفأت بعض نيرانها وكتمت بقية الجمرات تحت رماد الأعصاب الفولاذية التي تمرست بالاعتقالات ومفاجآت الشرطة . جعلت تنظر لصالح في جدية هذه المرة ، بعين جديدة ، عين إنسانية مدربة على مراجعة النفس وانتقادها والتسليم بالهزيمة بروح رياضية كبطل خسر مباراة وعليه أن يتعلم منها بدلا من لعنها. أشعلت سيجارة ، ركزت عينيها الساخرتين السوداوين الفياضتين بدفء الصعيد الحضري المترقق . ظهر في عينيها أنها بالفعل أمام نموذج إنسانى يستحق الدراسة وليس مجرد مسخ يجلب السخرية . ارتعشت الابتسامه على شفثيها تكسرت الكئوس الأنثوية على رخام صوتها البارد . سلطت عليه عينيها :

- «خايف إ؟»

- «ومستعبر !»

- «خلينا فى الخوف الأول ! تخاف ليه ده أنا وأنت وبس فى الشقة إ؟»

- «ورينا إ؟»

- «والسكر ده .. ما يفضبش ربنا إ؟»

- «لأ ما هو .. عايزن أقول لحضرتك حاجة ! حاكم ربنا وسبحانه وتعالى ماهش من غير مؤاخذه فاضى عشان يقعد لكل واحد من عبیده ويمسك له على الواحدة !! ربنا رب قلوب ! شايف وعارف ! الشرب ده باضر بيه نفسى بس ! وحتى لو كانت الهيصة اللي باعملها حرام !! مفيش داعى أكبر الملف بتاعى وازود العقوبات على نفسى يوم القيامة !!»

رددت - كأنما لنفسها - فى اقتناع : «كلام جميل يا صالِح !» ، ثم
نفضت زهرة السيجارة فى المنفضة برشاقة وسحبت نفسا عميقا
وشردت مبقية السيجارة قرب أنفها ، ثم استدركت كأنها تذكرت شيئا مهما
جدا :

- «لكن إيه القوة دى ؟ إزاي قدرت تمسك نفسك مع إني كنت حاسة
بيك وأنت بتتنفض نفص وكنت واثقة أنك خلاص دخلت فى الفعل ومستحيل
تعرف تخرج ؟ ده موقف لا يمكن أنساه طول حياتي !!»

- «أنا ماكنتش دخلت يا ست هانم ! أنا اندخلت ! يعنى أنا اللي أقدر أطلع
الى دخلنى من غير استئذان كإني وكالة من غير بواب !! ما تعرفيش يا ست
هانم إن العملة اللي حضرتك عملتها فى دى ألتنى ؟ لمؤاخدة كإني ضربتيني
بالصرمة القديمة ! الله !! مش أنا بنى آدم برضه يا ست هانم ؟ وراجل ؟ يعنى
من حقى فى أى لحظة أبقي عاوز وفى لحظة ثانية مش عاوز !! وهى الأمور تيجي
كده برضه من غير إحم ولا دستور ؟»

زامت بعمق وهى تتأمل بعينين تقولان بوضوح : بالعكس فأنت رجل ولا
كل الرجال كما أثبت لى الآن . إلا أنها لوحت بذراعها إلى الوراء متذكرة :
- «نيجى بقى للاستعمار ! يعنى إيه استعمار ؟»
- «احترام النفس يعنى من غير مؤاخدة !»
- «بمعنى ؟» .

- «أهلنا زمان قالوا : اللي ياكل فى ماعون ميصحش يوسخه !! واللى
يدخل بيت ينفض رجليه قبل ما يدخل !! وأنا بسخصيتي دخلت بيتكم وكان
لازم انفض نفسي من أساسها ! إزاي بقى البيت يكرمني وأعمل فيه
دقة نقص ؟ وكمان الأستاذ طلعت صاحبي وبينه وبينى عمار وحضرتك
من طرفه يعنى لازم أحافظ عليكى كأمانة مش ألحس منك لحسة
دناوة !!»

انسأقت وراء العبث فضحكك فى نزق ، وصأحت متعمدة أن يسمع طلعت صوتها :

«من النأحية دى أطمئن ! طلعت نفسه عارف وموافق وكل وأحد حر يعمل اللى هو عأيزه !!»

أنحرق وجه صألح ، تنأثر الزبد على شفتيه والشرر فى عينيه .

«الأستاذ طلعت عارف أن حضرتك حتعلمى معأيه كده وموافق عليه ؟!»
هزت رأسها بالإيجاب مع هممة صوتية :
«أهأه !»

«يبقى لمؤأخذة عرص ابن عرص وأنا مش مستعد أعرفه تأنى ! يا نهار إسود ومنيل بستين نيلة ! ده أنا على كده كنت مفشوش فيه بأفكره رآجل حر ومحترم !!»

هكذا أندفع بأنفعأل مخيف وهو يصفق كفا على كف . فى الحال كفت حياة عن الضحك ؛ فى جدية ، وبنبرة صدق وأضحة وقفت تصفق بيديها فى استحسان ، ثم أنحنت فى تبجيل بحركة مسرحية ، وتقدمت منه فى وجل :

«فعلا فعلا إنت رآجل يا صألح ! تستأهل تقلك ! أنا سعيدة جدا إنك هزمتنى ! على الأقل وفرت على رهأن كان حبقى تقيل على نفسى قوى لو دفعته ! وبصراحة إنت مأهزمتنىش ! لأ ! ده أنت نصرتنى ! أيدت وجهة نظرى ! طب تصدق بالله يا صألح ؟ والله العظيم أنا نفسى أتجوز رآجل زيك ! لكن بما إن ده مستحيل مؤقتأ خلىنا نبقى أصدقاء ! وعشان أثبت لك صداقتى حأشرب من مشروبك ! من نفس كأسك ! أهه !!»

سحبت كأس السبرتو ، جرعت منه جرعة تقلصت منها كل عضألآت وجهها؛ ثم أعطت الكأس لصألح : «فى صحتك» ، فجرع هو الآخر كأئه يوقع بأمضأئه على الميثأق الذى أبرم بينهما لتوه . أنفلتت هى مهرولة فأختفت

خلف ستار الممر ؛ واندمج هو فى الشرب والتدخين بإيقاع سريع حتى أوشك على الإجهاز على الدورق والزجاجتين . ثم ظهرت حياة مرتدية جلبابا منزليا كاسيا فبدت امرأة أخرى تماما . أزاحت الستارة الثقيلة فانفتحت الممر ؛ نادته باحترام كأنها تتأذى زوجها أو أخاها :

- «تعالى يا صالح !»

نهض واقفا ثملا يكاد يترنح لكنه يبتسم فى توجس . ذهب إليها . سحبته من يده فى رفق إلى باب الحمام ؛ أشارت إلى البانيو :

- «خد لك حمام سخن عشان تفوق وتعرف تتغدى ! طابخة لك بطة !»

لم تنتظر رده ؛ دفعته إلى الداخل ثم سحبت الباب وأغلقتة بإحكام ؛ وتصنعت كأنها سمعت طرقا على الباب فصاحت :

- «مين اللى بيخبط ؟ لحظة واحدة !»

ومشت إلى باب الشقة ففتحته بصوت مسموع ثم هلت فى ترحيب حار :

- «أهلا أهلا وسهلا ! جيت فى وقتك ! اتفضل !»

ثم أغلقت الباب بصوت مسموع ، لعلها رزعته ، ثم مضت إلى حجرة المكتب فنقرت على بابها نقرا لا يكاد يسمع ؛ فانفتح بابها عن وجه طلعت شاحبا شحوب الموتى وأصابه تدعك فى شاربه بتوتر كبير . همست له وهى تفلق الباب وراءه كما كان : «إنت اللى لسه جاي حالا ه ؟» ، فهز رأسه موافقا فى سأم ثم مضى إلى الأنتريه فجلس يواصل التدخين متجهما صامتا . أما حياة فاتجهت إلى المطبخ لتجهيز الغداء . وفيما هم يتحلقون المائدة كان صالح هو الوحيد الذى يأكل بية دون شره ، وما أن انتهى من الأكل حتى هتف .

- «اللهم لك ألف حمد وألف شكر !»

وأردف بعد برهة :

- «الواحد ناقصه بقى يشم شوية هوا نقى !»

قالت حياة :

- «فين يعنى ؟ فى جنينة الحيوانات مثلا ؟!»

قال صالح بتلقائية :

- «لأ ! فى مكان نقى باقول لحضرتك !»

- «زى إيه طيب ؟!»

- «زى شارع معروف مثلا !»

فتبادلت حياة مع طلعت نظرة جمدها الذهول .

منذ ذلك اليوم - يقول قمر المحروقى - لم يلن وجه طلعت الإمبابى أمام عيني

صالح هيصة أبدا ، أو بتعبير صالح نفسه : «ما بيدنيش وش !» . وقد علق

مصطفى لمعى من تحت لتحت :

- «مش جايز يكون وشه ضاع منه يا صالح ؟! انت عارف الحرامية اليومين

دول كترتوا ويسرقوا الكحل من العين !! واجب عليك تساعده لحد ما يلاقيه مش

تزعل منه ؟!»

وقال الممثل زكى حامد :

- «أهو أنا بقى اللى نفسى ومنى عيني أسرق وش صالح هيصة

عشان أمثل بيه شوية أدوار !! لو كان القناع يجيب نتيجة كنت جبت واحد

ينقله !!»

ضحك صالح قائلا بلهجة ذات معنى :

- «ألفهولك فى ورقة ؟!»

ضحكنا ضحكة صاعقة . وكان فاروق الجمل يتأهب للكلام لكن إبراهيم

القماح قال بخبث أولاد البلد الخفيف الظل :

- «عم صالح بقى لازم يقول لنا إيه اللى حصل بينه وبين طلعت ! أكيد فيه

سبب وأكد تعرفه أو على الأقل حاسس بيه !»

هتف فاروق الجمل كأنه يشرع فى إلقاء قصيدة من قصائده العامية ذات

النبرة العالية الغاضبة فى حدة ، مضيقا ما بين حاجبيه :

- «وأكيد من حقنا نعرفه باعتبارنا أصدقاء للطرفين ! مش كده وإلا إيه يا صالح ؟!»

قمر المحروقي يقاوم ليكتم السر الذي حكاه لى منذ بضعة أيام وحكيته بدورى لمصطفى فحكاه لإبراهيم الذى حكاه لفاروق وقد شدد كل منهما على الآخر بالأى ينبس بكلمة تفضح هذا السر ، فطلعت مهما كان صديقنا ولا داعى لفضحه وإلا سقطت هيبتنا جميعا فى مكان كهذا . كان من الواضح أن السر يأكل صدر قمر يدق أضلاعه مطالبا بالبوح العاجل ؛ ففتح فمه ملوحا بذراعه فأيقنت أنه سيقول الحكاية كلها ؛ ففتحناحت وأنا أغمز له بعينى راجيا إياه أن يمسك عن البوح ليظل الأمر فيما بيننا وحدنا سيما وأن صالح لو قتلناه فلن يفك حنكه بكلمة واحدة عما دار وجرى . تراجع قمر قائلا :

- «الموضوع طويل يا جماعة ما يتحكيش !»

لحظتئذ اعتدل صالح ومدد ذراعيه فوق ركبتيه فى وضع الإقعاء تمهيدا للوقوف ؛ ثم قال بنبرة صدق :

- «لا طويل ولا حاجة يا أستاذ قمر ! ده كلمة ورد غطاها أول عن آخر !!»

تحداه قمر هاتفا بصيانية حميمة :

- «طب لو كنت راجل صحيح تقوله !»

صاح إبراهيم القماح بلهفة :

- «نحب نعرفه والنبي عشان ضميرنا يستريح !»

- «موضوع بسيط خالص والله يا جماعة !»

شخط فيه مصطفى لمعى كأنه رئيس المحكمة :

- «إيه الموضوع باختصار ؟!»

هتف قمر :

- «باختصار لأ ! بالتفصيل الممل كمان !»

قال صالح :

- «الموضوع وما فيه إن الأستاذ طلعت أصبح فى هيصة ! بيعمل هيصة !!»

احتج قمر :

- «يعنى إيه بيعمل هيصة ؟! ويعمل هيصة ليه ؟!»

- «عشان يلحق الهيصة ! يعنى لمؤاخذة ياخذ قرشين سقع حلوين ! يمस्क

منصب كبير !!»

تغيرت ملامح قمر وهو ينصت بجدية هائلة :

- «منين ياخذ قرشين ومنصب ؟!»

- «من العراق ! فى العراق!»

- «مش فاهم !»

- «يا بيه أصل صدام حسين فى العراق بيعمل الهيصة ! هو راخر عاوز

يلحق الهيصة ! أنا أصلى شفته كتير أيام ما كان بيتعلم فى مصر وأنا

كنت ماسك النار وحجارة الشيشة فى قهوة فى الجيزة كان هو بيقد عليها

مع الأدبائية والسياسيين ! أنا فهمته على طول وعرفت ان فى دماغه شيطان

كبير قوى ! لفت الأيام وبقي هو رئيس العراق ! لكن العراق أقل منه فى

نظره ! قال لك جمال عبدالناصر مات أحل أنا محله بقى واحكم العرب ! عينه

اتحطت على مصر ! الصحفيين وكل الألايش اللي كانوا تبع جمال

عبدالناصر اتهاى له ان هما اللي عملوا زعامة عبدالناصر ! بعث ناس تتفاوض

معاهم عشان يشتغلوا له فى العراق هتيفة ويزعموه ! اللي صحفى صحفى

واللى كاتب كاتب واللى أونطجى أونطجى مايضرش ! حياخدوا ماهيات

بالكيله طبعاً !»

- «يا بنى آدم أنت ! إيه دخل طلعت الإمبابى فى اللي انت بتحكيه ده ؟! إنت

فاكرنا مساطيل ؟!»

- «مانى جايلك اهه ! الأستاذ طلعت دلوقت زمانه انتهى من عمال الهيصة !

وحيلق الهيصة اللي فى العراق ! مش الأستاذ طلعت من غير مؤاخذة كان عضو

فى البتاع ده اللي اسمه التنظيم الطليعى ؟! رجالة صدام نقوا شوية من البتاع ده

عشان يروحوا يشتغلوا عند صدام ! اللى صحفى واللى مزيق واللى استاذ جامعة .
واللى مش مهم يكون أى حاجة مادام حيسبىح بحمد صدام ويشترك فى الهيصة
بتاعته !»

– «طلعت الإمبابى ! حيسافر العراق !؟»

– «ده بقى له شهرين بيحضر البازبورت ! وخذ إجازة خلاص من الجامعة !
وتذاكر الطيارة جات له كمان !»
متشككا سأل مصطفى :
– «جبت مئين الكلام ده !؟»

– «لسانه وقع من حنكه ! نتور كلمتين ثلاثة كده على الطاير ! اتشعلقت
أنا فيهم : مسافر فين ؟! راح مشوح وساكت : الست بتاعته صافية متعرفش
اللوع ! حكى لى الحكاية كلها رحت أنا ساكت ! لكنه سألنى إيه رأيك ؟ قلت له
الصراحة : نفسك تعمل الهيصة ! من بدرى وأنت عاوز تلحق الهيصة ! خلاص
اتكل على الله والحقها ! زعل وكشر ! الست ردت بالمفتشر ! قالت لى يا عم صالح
لازم يبقى لنا بيت ملكنا ولازم نعمل حساب ولادنا اللى جاين ونعيش العيشة
اللى تناسبنا ! قلت لها حقك يا ست هانم ! من يومها وهو مقلوب من ناحيتى !!
يعنى كنت أضحك على نفسى وأقول له براوة عليك ؟! فى وشه ولا تغشه على رأى
المثل !!»

ثم انتصب واقفا ، دخل الدار يبحث عن شئ ما . وقف قمر وراح يتمشى
ذهابا وعودة واضعا يديه فى جيبه وقد تغير لونه إلى بياض شمعى بغير دماء ؛
صار يدمدم فى غيظ :

– «وما يقولناش ؟! ده انت هتاريك غويط قوى يا طلعت !! طب على الأقل
إدينى فكرة !»

وكان قد شملنا صمت عميق ؛ خيم علينا شئ أشبه بالحزن كأننا تلقينا خبر
موت صديق لنا . ويبدو أننا قد أفقنا جميعا مما شربناه ؛ إذ التأمت القعدة من
جديد ؛ استأنفنا الشرب بعمق واستغراق وجدية كأننا نشرب فى آخر زادنا .

شبح الميعة

كان مصطفى لمعى مرشحا - فور تخرجه فى كلية الفنون الجميلة فى أوائل الستينيات - للسفر إلى إحدى الدول الاشتراكية فى بعثة دراسية باعتباره من المتفوقين فى فن التصوير الزيتى ومتقدما على رأس خريجي دفعته . وقد ظل ينتظر دوره فى السفر بضع سنوات ؛ ورغم يقينه أنه لكى يسبق أقرانه إلى السفر عليه أن يتنازل عن بعض كبريائه بعض قيمه الأخلاقية ، كأن يتزلف يتملق يستجدى يتطوع بكتابة التقارير السرية عن النشاط السياسى لزملائه وأساتذته ؛ فإنه مع ذلك عاش يغذى الأمل فى نفسه بأن الحياة فى مصر لابد أن تكون محتفظة ببعض العادلين الذين يمكن أن يعطوه حقه ولو بضربة حظ . ولكن لأنه كان واثقا فى أعماقه أن عصر العدالة قد انمضى من الوجود إلى غير رجعة ، لذا فقد كان يغرق همومه وحيرته فى التحشيش بتركيز وتوسع حتى أصبح حشاشا قارريا لا تعرف البهجة أو الفكرة طريقا إليه إلا عبر التعميرة الجيدة مع أنه فى الأصل شرب الحشيش من أجل خاطر عيون الأماكن العامة التى يتم فيها التحشيش بأشكالها وأوضاعها وناسها وعالمها الغنى الموحى للرسم بلوحات فيها زخم الحياة .

جاء عليه حين من الدهر سئم الحياة فى مصر تماما ؛ فليس ثمة من فرصة للتحقق بل إنه حتى لم يعين معيدا فى الكلية رغم أحقيته . إنه لمحب للمغامرة وقادر عليها فلماذا ينتظر ؟ .. وهكذا قرر السفر على نفقته الخاصة ، منها دراسة ومنها اكتشافات للعوالم الأخرى ، وما أيسر أن يلتحق بأى عمل ينفق منه على دراسته . لم يكن يملك تذكرة السفر ؛ إنما يملك أختين متزوجتين زيجات ناجحة ، وهو الولد الوحيد عليهما ، ومع أنهما كانتا تتمنيان بقاءه فى مصر بل فى القاهرة على وجه التحديد كسند لهما فى الحياة فإنهما رأتا أن مستقبله

أهم من العواطف ، فرضيتا أن تقرضاه مبلغا من المال تعهد برده فى أقرب فرصة . ثم سافر إلى تشيكوسلوفاكيا ؛ أما لماذا وقع اختياره على هذه الدولة بالذات دون بقية الدول فهذا ما لم يفكر فيه أصلا ؛ كل ما فى الأمر أن له بعض أصدقاء مصريين وعرب يعيشون هناك وبإمكانهم تدبير عمل له ومكان للإقامة والمبيت ، هكذا قالت الرسائل المتبادلة بينه وبينهم . وقد فعلوا ؛ ألحقوه بالعمل فى إحدى ورش الإعلانات المتخصصة فى أفيشات السينما وكراسات العروض التى تحتوى على بيانات خاصة بالعروض السينمائية والمسرحية التى توزع على الجمهور بالمجان . فى نفس الوقت التحق بأكاديمية الفنون وسجل موضوعا للدراسة كان معنيا به طول عمره من خلال ولعه بالنقوش والرسم الفرعونية ألا وهو : تفاصيل الوجه الإنسانى كممثل للبيئة التى يولد ويعيش فيها وكيف تترك بصماتها على جيناته الوراثية فتقوم بصياغة ملامحه بحيث يتاح لنا أن نعرف - بمجرد النظر - الصينى من الهندى من الإفريقى من الأوروبى .. إلخ .

طابت له الحياة فعلا ؛ فالأسعار معتدلة مدعومة كما أن جميع السلع المطلوبة متوفرة فى الأسواق ؛ الحياة سهلة جدا ، لا قيود ولا تعقيدات فى أى شئ فمادمت بعيدا عن شغل السياسة فانت من ذلك فى نعيم . الوجه الآخر لسهولة الحياة هو سهولة العلاقات . بهذه السهولة استجابت الأنسة بربارا لنداء عينيه العاشقتين من أول نظرة . بربارا سميلوفيتش من أصل صربى مختلط بدماء ألبانية ، شكلها شرقى أليف ، مرحة ضاحكة ، جميلة التقاطيع رصينة الملامح وديعة ، مشوقة القدر هيفاء ، رفيعة الخصر ممسوحة الكفل ، ناهدة الصدر طويلة الرقبة ، فى العشرين من عمرها ، تحمل شهادة متوسطة تعمل بموجبها موظفة فى نفس الشركة صاحبة الورشة مهمتها توزيع المادة الخام على الفنانين : الورق، الألوان ، الفرش وما إلى ذلك من أدوات كلها فى عهدها . بعد حوالى خمسة شهور من الاستلطاف المتبادل ، والخروج معا للفسحة فى أنحاء العاصمة وضواحيها ،

وتبادل العزومات ، تم الزواج بينهما فى حفاوة كبيرة من الزملاء وأصدقائهم .
استقل بها فى شقة متواضعة نسبيا فى إحدى ضواحي براغ قاما سويا بفرشها
فرشا بسيطا . الأجور كانت مجزية والفلوس كافية إلا أن العمل - لكى تكتمل
منظومة المصروفات المطلوبة - يأكل الوقت كله فلا يتبقى للدراسة أى وقت على
الإطلاق بل لا وقت للراحة المطلوبة للجسد . وفى المرة الوحيدة التى أتيح له فيها
اقتناص نزهة خارج المدينة استغرقه التفكير والشجن ؛ أحس فى الحال بخطر
داهم يهدد مستقبله بل يوشك أن يدمره تماما : إن الرسوم الإعلانية قد بدأت
تطبع على ريشته تكتيك الإعلان الذى يفرض عليه الكذب الشعورى والابتعاد عن
الجماليات الفنية التى بدونها لا قيمة لأى عمل فنى ، ولو استمر على هذا الوضع
عاما ثانيا فالموكد أنه سيتحول إلى حرفى ، محض حرفى كئى نقاش أمدى يتكسب
بأشغال لا بأعمال فنية وراعى رؤية وفلسفة وإحساس بالحياة ؛ ثم راح يقارن -
تلقائيا - بين الحياة هنا والحياة فى مصر ؛ فاكتشف بقلب مرتاع أن الفروق
ليست فى مستوى الاغتراب والبعد عن الأهل والخلان وأرض الوطن ذات السحر
الخاب حيث هو فيه علم ولو صغيرا فى حين هو فى هذا المجتمع الأجنبى نكرة ،
مجرد عامل فى ورشة ؛ إن المبرر الوحيد لبقائه هنا هو مواصلة الدراسة
والحصول على إجازة الدكتوراه وتحصيل الخبرات الفنية ؛ أما وقد تأكد أن هذا
غير متاح بالمرّة فأولى به إذن أن يرجع إلى دياره معززا مكرما ؛ فهو على الأقل
يستطيع الالتحاق بأى مجلة يحصل منها على مرتب معقول وفى نفس الوقت يحقق
حضورا فنيا متوائما مع طموحه . لم يتوان ؛ أبرق إلى شقيقته الكبرى بأن تدبر
له شقة يقيم فيها مع زوجه . تشاء الظروف الحسنة أن شقيقته الكبرى كانت على
أهبة السفر مع زوجها المهندس المدنى إلى الخليج بعقد طويل الأمد ؛ فرأت أن
إقامة شقيقها الوحيد فى شقتها هو أنسب لحفظها وتأمينها . وهكذا عاد مصطفى
لمعى ولكنه كان قد أصبح ثلاثة أشخاص : هو وزوجه بربارا سميلوفيتش وطفلة
سارة البالغة من العمر ثلاثة أشهر . الظروف الحسنة نفسها شاعت أن تقرر

إحدى الدور الصحفية الكبرى إنشاء مجلة للأطفال اسمها العصفور الأخضر جمعت كل زملاء دفعته ، فالتحق بها بعد أسبوعين اثنين من مجيئه ؛ ليصبح أحد أهم المؤسسين لشلة التحشيش اليومي فى غرزة حكيم . كان سعيدا جدا بطفله التى جعلت تنمو بسرعة كأَن جو مصر الجميل قد نفخ فيها روح شمسهِ المعتدلة فأنضجت ملامحها فتجسدت فيها ملامح أمهِ المرحومة وبعض ظلال من أبيهِ الراحل الذى كان وكيلا لأحد المحامين المشهورين فى وسط المدينة ويمك بيتا عتيقا هـرما فى حى الجمالية يستأجره نفر من تجار النحاس المشغول وورش الذهب لكن إيجار البيت كله لا يساوى مشقة الذهاب لقبضه . ما كادت الحياة تضحك لمصطفى حتى أُنذرت بعبوس ؛ فجأة ضاقت المؤسسة الصحفية بخسائر المجلة المطردة باستمرار ، واكتشف رئيس مجلس الإدارة الجديد أن جريدته أنشئت لتلعب دورا سياسيا لا يجوز أن تنشغل عنه بمجلة للأطفال ! مالنا نحن والأطفال ؟! أهى مؤسسة صحفية أم دار حضانة ؟! .. وهكذا بجرة قلم أغلقت المجلة ؛ ولما كان جميع العاملين فيها يعملون بعقود مؤقتة تتجدد بطلب كل ستة أشهر فقد تم تسريحهم جميعا غير مأسوف على مواهبهم .

اسودت الدنيا فى وجه مصطفى لمدة شهر واحد عجز فيه عجزا تاما عن تغطية نفقاته . فى الشهر التالى جاءت برقية من ليبيا تدعوه للمشاركة برسومه فى مجلة الثقافة العربية التى أنشأها النظام الليبى ليضع ليبيا على خريطة النشاط الثقافى العربى كمصر ولبنان وسوريا والعراق والجزائر ، كذلك أنشأت صحفه ومجلاته الأسبوعية ملاحق مصورة للأطفال .. وعلى مصطفى أن يتصل بالمراسل المصرى المنوط بجمع المادة من القاهرة ليأخذ منه قصصا وسيناريوهات يرسمها ويعيدها إليه . كانوا يدفعون أجورا مجزية حقا ؛ جرى القرش من جديد فى يدي مصطفى أصبح يحشش بقلب جامد وعين قوية . إلا أن وجه الحياة قد عبس فجأة واعتلته سحب من الغيوم الداكنة حجب شمس ذلك الصباح الذى استيقظ فيه ليجد ابنته الحبيبة الوحيدة مصابة بالحصبة المكتومة ؛ جرى علاجها باعتبارها لطشة برد

حادثة ، فما كاد النهار الكئيب ينقضى على ترموميتز الحرارة المتصاعدة حتى
لفظت الطفلة أنفاسها صبيحة اليوم التالى فى هدوء ؛ غافلتهم روحها أثناء غفوة
لم تستغرق دقائق معدودة فتسللت من جسدها مغادرة إلى غير رجعة .

الحادث كان قاسيا جدا علينا جميعا . شغلنا موتها المفاجئ الصادم عن
مسألة سفر طلعت الإمبابى إلى العراق كاتبا فى جريدة الثورة ليكتب عن القومية
العربية فى ظل زعامة تتأهل لقيادتها بعد رحيل عبدالناصر . جلساتنا أصبحت
مركزة على مواساة مصطفى ومحاولة تخفيف حدة ألمه إلا أن حزنه كان عاصفا
حتى كاد يقتله . تغيرت شخصيته تماما ، أبت إلى رجل نحيل متجهم الوجه على
الدوام ، متورم الملامح من فرط البكاء الحارق ؛ ضاع منه المرح ، لم يعد يتذوق
النكتة ، يقضى الوقت كله صامتا كالمتجمد ، صار كسير القلب لا يهش ولا ينش ،
ضاق بالحياة فى مصر سيما وقد يش تماما من البعثة الدراسية وتأكد أنها
محض كابوس يجب التحرر منه فورا بالرحيل عن البلاد إلى أى مكان بعيد . يبدو
أن مفاوضات قديمة قد جرت بينه وبعض أصدقائه فى مختلف البلاد العربية بحثا
عن عقد عمل له فى أية دولة عربية ، فلقد فوجئنا ذات يوم بالمراسل المصرى يرسل
له عقدا جاءه من ليبيا .

الشلة لم تكن تعرف عن هذا العقد شيئا . ومصطفى الذى اعتاد أن يمسك
بمحفظة جلدية تخينة لها حلقة جلدية يدخل فيها رسفه ويتركها معلقة فيه أثناء
السير ، يضع فيها نوتة اسكتشات ويغض أقلام من الفحم وجواز السفر والفلوس .
وعلبة السجائر ومفاتيح الشقة ؛ وضع هذا العقد بصورتيه مطويا أربع طيات فى
المحفظة ثم أهمله لمدة تزيد على شهرين دون أن يوقعه أو حتى يقرأه . وفيما كنا
جلوسا أمام الربوة العالية فى طراوة العصر الأغسطسى الخابق فوجئنا
بالمراسل المصرى يطب علينا وبرفقتة المطرب النبوى الشهير فى النضال
السياسى أكثر منه فى الطرب ؛ محمود زغاليل ، صديق مصطفى وزميل دفعته
قسم الديكور . من العتاب المتبادل بينهما فهمنا أن المراسل قد تعب من مطاردة

مصطفى لأن الليبيين يستعجلون وصول الاثنين معا : العقد ومصطفى ، فلما لم يتمكن من العثور عليه فى البيت لجأ إلى صديقهما المشترك محمود زغايل الذى اصطحبه إلى هنا متعهدا بأن ينهى الموقف لصالح العقد من أجل مصلحة مصطفى .

فتح مصطفى محفظته ، أخرج العقد مطويا كالمنديل قدمه إلى المراسل الذى انبسط وجهه وهو يفك طيات العقد ليفصل نسختيه فيحتفظ بواحدة ويترك الأخرى لمصطفى مرددا فى انشراح : مبروك ! ألف مبروك ! ، ثم قلب الصورتين باحثا عن توقيع مصطفى فلم يجده ، تقلصت عضلات وجهه شحبت ، نحى العقد جانبا صار ينظر فى وجه مصطفى متفحصا كأنه ينظر فى إحدى عجائب الدنيا السبع:

- «ما وقعتش ليه طيب ؟!»

- «أسف يا صلاح ! مش حاقدر أوقع !!» .

تلقى المراسل صلاح هذه الكلمة كما يتلقى دبشة تفتح الدماغ ؛ فألقى بالعقد على كرسى بجواره واستغرق فى صمت محزون وكان من الواضح أنه يبحث فى دماغه عن تعليق مناسب . أما نحن فقد صرنا نتبادل النظر فى ذهول وقد عقدت الدهشة ألسنتنا ؛ من ناحية لأن مصطفى لم يحدثنا فى أمر هذا العقد من قبل ، ومن ناحية أخرى لأنه يرفض التوقيع بهدوء بكل استهانة بل وبلهجة رنت فى أسماعنا بنبرة من يتشبث بأخر عمود يقوم عليه صرح كبريائه ..

- «تسمح لى يا أستاذ صلاح ؟»

هكذا قال قمر المحروقى وهو يمد يده ليمسك بالعقد .. لم يأذن له صلاح ، لكنه لم يمنعه ، فراح قمر يجرى بعينه على بنود العقد وقد تمشت الدماء تحت بشرة وجهه فى مهرجان من الفرح والدهشة ثم طواه قائلا :

- «أما مالکش حق يا مصطفى ! ترفض عقد زى ده إزاي ؟!»

انفجرت أساور صلاح قليلا : هز رأسه علامة الأسف تأييدا لدهشة قمر :
فكان هذا إيذانا لنا بأن نتداول العقد نتفحصه بدقة نفتش عن سبب واحد ظاهر
أو خفى يبرر لمصطفى رفضه : فلم نجد إلا فرصة لا تعوز ، ينص العقد على
تعيين مصطفى لمعى رساما من الدرجة الأولى الممتازة فى جريدة الثورة - كل بلد
فيها جريدة ثورة !! - بمرتب قدره ألف دينار ليبي فى الشهر نظير المشاركة فى
التوضيب ورسم الموتيفات والقصص والشخصيات العامة ؛ وأما إن قام بأعمال
إضافية لأية مطبوعة من مطبوعات الدار فإنه يحاسب عليها ؛ كذلك ينص العقد
على منحه مرتب ستة أشهر مقدما ليرتب بها مسكنه وانتقاله على أن يخصم المبلغ
من مرتبه بنظام التقسيط المريح .

صرنا جميعا ننظر إلى مصطفى نطالبه - فى صمت - بتوضيح الأسباب -
الخطيرة بلا شك - التى تجعله يرفض التوقيع على عقد كهذا ربما لا يحصل عليه
أحمد بهاء الدين نفسه !! لكننا لم نظفر منه بطائل ، فبقى الصمت ضاربا أطنابه
فوقنا لمدة أربعين خمسين حجرا لم نشعر بها على الإطلاق . كان الغضب المكتوم
قد ربط بين وجه المطرب محمود زغاليل والمراسل صلاح السيسى فى كلبشات من
التجاعيد الحديدية الصلبة ؛ فلقد أعطيا لمصطفى فرصة كافية على أمل أن يتراجع
عن موقفه أو حتى يناقشهما فى سبب الرفض . أخيرا قال محمود زغاليل بعد أن
تنحى وسلك زوره كأنه سيغنى :

- «العقد مش عاجبك يا مصطفى ؟!»
- «بالعكس ! ده أكثر مما أستحق !!» .
- «لك شروط معينة نقدر نناقشها معاهم بالفاكس ؟!»
- «إطلاقا ! ماليش أى شروط !»
- «إيه اللى مانعك من التوقيع ؟!»
- «أسباب شخصية خاصة جدا !!»
- «يلا بينا يا صلاح !»

هكذا هتف محمود زغاليل بلهجة من يود أن يقول : خلاص اتفلق ؛ لكنه قال واقفا :

- «باى باى يا جماعة ! أسفين لإزعاجكم !»
سحب صلاح من يده ومضيا فاختفيا فى السرداب الجانبى القصير؛ فعرفنا بالبدهاة أن محمود سيمر على دكانة على منجه على ناصية هذا السراب ليتزود منه بتعميرة إذ ليس من المعقول أى يجىء إلى حى معروف وينصرف خاليا من المونة .

قال قمر بانفعال حاد :
- «إزادى ترفض عقد زى ده يا مصطفى ؟ إنت اتجننت ؟!»
قال فاروق الجمل متحسرا :
- «يدى الحلق للى بلا ودان!!»
وحملق فيه زكى حامد بعينيه القويتين منذرا :
- «إلحق الفرصة ما تبقاش مجنون ! دى اللى حتشيلك من الفقر الى الأبد !
اسمع كلامى والحقهم قبل ما يكلموا ليبييا !»
وهتف إبراهيم القماح :
- «أجرى وراهم أجيبهم ؟»
صاح مصطفى بحسم وهو يحتجزه بذراعه :
- «لا لا لا!!»
لوح إبراهيم بيده السمينة حول رأسه بغمزة لطيفة ذات معنى :
- «إيه الموضوع بالضبط ؟ فيه إيه ؟!»
فأردف قمر :

- «أنا مش فاهمك يا مصطفى ! من وقت قريب كنت بتتنشق على عقد ربيع ده!
ولما يجيلك السعد كله تتبطر عليه ؟!»
سحب مصطفى نفسا عميقا من الجوزة كتمة فى أنفه فتجههم وجهه صار كوجه الجنين ؛ قال من خلال الدخان المتدافع من بين شفتيه :

- «بصراحة بقى عايز أبعد عن الهيصة ! ماليش فى الهيصة ! مادام جريدة ثورة وما أدراك ما الثورة ! أنا ما اعرفش اعمل الهيصة ! ومش عاوز الحق الهيصة !! »

بهتنا ، ظنناه بمزح ! حملقنا فيه ذاهلين ! فلما تبين لنا الجد فى وجهه شوح قمر فى مرارة :

- «هيصة إيه وزفت إيه يا أستاذ ؟! إنت حتمشى ورا صالح هيصة ؟! صالح هيصة هو اللي حيتحكم فى مستقبلك ولا إيه ؟! يا راجل اعقل امال !»
رفع مصطفى يده يريد إسكاته :

- «لا مغلش ! إذا كنتوا بتاخذوا كلام صالح على سبيل السخرية فأنا شخصيا مقتنع بيه جدا ! فعلا أنا باستتكف الموضوع ده خصوصا فى الظروف المهيبة دى ! عندى أنكاريا من المثقفين العرب كلهم ! اللي بيعملوا هيصة عشان يلحقوا الهيصة !! يروحوا يشتغلوا هتيفة ! أنا إيه اللي يخلينى أروح اشارك فى صنع أسطورة زعامة جديدة ؟! هى ناقصة ؟! العرب كلهم ما استحملوش زعامة واحدة حيستحملوا ثلاثة أربعة ؟! ثم إنكم على علم بان صدام والقذافى وياسر عرفات وزعوا المثقفين العرب على بعض عشان كل زعيم فيهم فى دماغه هيصة كبيرة ويلزمه رجالة تعمل له اكبر هيصة وكل واحد منهم طمعان ان الهيصة بتاعته تاكل الهيصة بتاع الثانىين حتى لو كلفته ميزانية قارون ! صحف تنطق بلسانه فى كل البلاد ! إذاعات ! تليفزيونات ! كتب! ندوات ! أقلام ! مسرحيات !! كل المثقفين سابوا مشاكل بلادهم الحقيقية وانشغلوا بتربية وتسمين الزعامات ! وكله باسم الثورة ! باسم العروبة ! شوفوا بقى الثورة أصبحت بتكسب قد إيه !!
لا يا عم ! الله الغنى !»

بدأ أن قمر قد خرج عن طوره :

«يا بنى آدم انت حد طلب منك تهتف أو تكتب حاجة تمجد فيها الزعيم ؟! إنت

مالك ما تسبب اللي يتزعم ويتزعم واللى يهتف يهتف وشوف انت شغلك وبس ! إنت
شغلتك محددة :

الرسم ! لا أزيد ولا أقل !»

- «تبقى غلطان لو فهمت ان شغلى كرسام فى جريدة الثورة حيكون خارج
الهتاف والتمجيد والكذب على النفس ليل نهار ! ثم إنك مش ممكن تتمتع بأى قدر
من الحرية وأنت محبوس فى قفص الزعيم يعنى أى فكرة أو مجرد خاطر مشبوّه
يمر على بالك تانى يوم ما تلاقيش نفسك !! يا قمر بص فى العقد وشوف المرتب
والامتيازات اللي فيه ! يعنى عملية كسر عين مقدما ! حشوبُق ! عشان يا تشكر
- يعنى تهتف - يا تبقى لوح مبيحسش!!»

رغم اقتناع قمر بوجهة ما سمع كما قد بدا على وجهه فإنه شوح بيده فى
فروغ بال :

- «هى تربست معاك وخلص!»

علق زكى حامد :

- «أنا شخصيا اقتنعت بوجهة نظر مصطفى!»

طرقع الجمل بأصبعيه فى غبطة :

- «جائنى قصيدة جديدة ! صالح هيصة دخل التاريخ يجرى ! راكب حصان

من غير لجام ولا سرج ! بيمد إيده يزغد المبسوطين فى البرج ... »

أضاف إبراهيم القماح :

- «ويخطف منهم الدُرُج!»

ضحكنا . قال قمر :

- «الخرُج أحسن!»

قال زكى حامد :

- «لا ! الدرج أنسب ! وأشعر ! رمز للفلوس المنهوية !»

أضاف مصطفى لمعى بمرح مصطنع صوته مشروخ :

- « .. ويخطف منهم الدُرج ! ويوزع اللى فيه ع العُرج ! »
ضحكنا بقهقهة غوغائية ، ثم لوح إبراهيم القماح بأصابعه المملظة على طريقة
أولاد البلد عندما يستحسنون شيئاً يطربهم .

- « بس براوه عليك يا درش ! على النعمة من نعمة ربى إنت واد مجدع تستاهل
السلامة ! ده احنا ولاد مصر يا جدع ! ولاد الفراغة ! إن ما كانش زعيم الأمة
دى كلها يبقى مصرى ما ينفعش صدقنى ! هى الزعامة دى لعبة ؟ دى يلزمها ولد
يكون جده رمسيس الثانى ! وخوفو يبقى خاله مثلاً ! وأمه حتشبسوت ! وأحمس
ابن عمه !! وأحمس ممكن يبقى أحمد ما يجراش حاجة طالما حينفع العرب !! »

هذه العصرية الحلوة تكررت عدة مرات . كنا نتوقع أن المكتب الليبى فى
القاهرة سيوقف التعامل مع مصطفى نهائياً ، عقاباً له باعتباره مش وش نعمة ؛
لكن العصريات الحلوة أنبأتنا على لسان مصطفى أن التعامل مستمر وأن العشم
فى توقيعه على العقد لا يزال قائماً . وقد انقسمنا إزاء هذا الموقف : زكى حامد
والقماح وأنا والجمال مؤيدين لموقف مصطفى جملة وتفصيلاً ، بل ومعجبين به ؛
لكن قمر وحكيم يتمنيان أن يلين مصطفى عقله ويهتبل الفرصة . أما صالح هيصة
فإنه الوحيد الذى انسحب قائلًا - بالحرف - إنه ممتنع عن التصويت ؛ ثم
استدرك موضحاً :

- «الأستاذ مصطفى ح يعمل اللى هو شايفه!
ده راجل من غير مؤاخذه عقله كبير ميصحش تقول له إعمل كذا ومتعملش
كذا ! دى حتى تبقى لمؤاخذه قلة أدب منى ! »
رمقة قمر بنظرة تبكيت :

- «إيه ! إשמعنى طلعت قلت له رأيك !؟ »
- «لأن طلعت بيه غير مصطفى بيه! طلعت بيه من غير مؤاخذه خفيف ! أنا
قلت له رأى عشان كنت متأكد انه حيسافر حيسافر لو انطبقت السما على
الأرض برضه حيسافر ! طلعت بيه نفسه يقوم من النوم يلاقى نفسه بقى رئيس

جمهورية الاتحاد السوفيتى شخصيا عشان يضم لها مصر والعرب ويجيب خراشوف يعمله شيخ أزهر وباجورنى يمسه مكة والهرم الشريف ! وياخد شيخ الأزهر يعمله رئيس الكرملين !!»

وأبدا لاتعطله ضحكاتنا المجنونة الزاعقة بما يصحبها من دبدبة بالأقدام على الأرض ، لا ولا ضحكاته هو نفسه تعطله عن الاسترسال :

- «مصطفى بيه بقى وضع تانى ! ما اقدرش أقول له روح ولا ماتروحش عشان أنا واثق ومتأكد إنه مش حيروح !! أصله فعلا ما ينفعش فى الهيصه ! عشان ماهش عامل لنفسه هيصه فى دماغه يعنى مش واخد فى نفسه قلم وفاهم أنه أبو على ! ومادام ماهش عامل لنفسه هيصه يبقى مفيش هيصه عاوز يلحقها ! مصطفى بيه غير الفرشة والألوان مش عاوز من الدنيا حاجة !»

لم يكد يمضى على هذه العصرية أسبوع إلا وفاجأنا المطرب محمود زغاليل قادما وفى صحبته الفنان التشكيلى فخر الدين شداد زميل دفعتهما . استغرق الترحيب بهما أربعين حجرا رصها مصطفى بسخاء فى التقطيع . وكان عدد الحجارة قد قارب المائة حينما انتهت الصفقة الجميلة التى شاركنا جميعا فى مباركتها . ذلك أن إمارة أبو ظبى تؤسس لمجلة للأطفال اسمها : (مالك) ؛ وكلفت فخر الدين شديد بالتعاقد مع طاقم للعمل ينتقل للإقامة فى أبى ظبى حيث تتوفر لهم مطابع على أحدث طراز بإمكانيات مهولة ناهيك عن الاستعدادات المادية الكبرى المرصودة لهذا الإصدار بحيث يجىء على أرفع المستويات فكرا وأداءً وتحديثا . ولما كان الخليج العربى بريئا من شبهة الزعامة والهيصه لا هدف له إلا العمل الفنى وحده فإن مصطفى وقع العقد بدون أدنى تردد رغم أن قيمة الراتب كانت لا تكاد تصل إلى نصفها فى العقد السابق . وكان يوما بديعا ذلك اليوم الذى توجهنا فيه جميعا إلى مطار القاهرة لنودع مصطفى لمعى وبربارا سمايلوفيتش ونوصيهما بعدم قطع الخطابات .

طققان

سفر مصطفى لمعى ترك فراغا كبيرا ، على عكس ما حدث بالنسبة لسفر طلعت الإمبابى ؛ فلمصطفى ظل من الود يصعب افتقاده على من عاشره لفترة طويلة . بعد سفره ببضعة أشهر فرض على الشلة واحد من أجلاب قمر المحروقى هو ذلك المدعو بمرسى خلاف مهندس الفحص فى إدارة رخص مرور القاهرة . فجأة أصبح زبونا دائما يحرص على مواعيد الشلة ؛ ينفق عن سعة ؛ لا غرابة فهو يكسب كل يوم أكثر من خمسمائة جنيهه مقابل تفاضيه عن الشروط المطلوب استيفائها فى السيارات طالبة الترخيص .

زكى حامد وفاروق الجمل وأنا لم نكن نرحب بوجود مرسى خلاف فى قعدتنا الملمومة المتألفة المتعاطفة المتفاهمة، يركبنا الاشمنناط بمجرد جلوسه بيننا نتيجة إصراره على ممارسة أسلوبه السخيف السمج فى البقششة علينا طوال القعدة: «هات للبهوات كذا على حسابى! خش على البهوات الأول لحد ما ييقوا فى التمام! حاسقيكم تعميرة يمكن ما شربتوهاش طول عمركم ! ما حدش منكم يحط إيده فى جيبه وأنا موجود ! أنا اللى حأحاسب ! أنا اللى حارص ! .. إلخ إلخ » . كنا نحتمله على مضض باعتبار أن محدثى النعمة قد كثروا فى هذه الأيام بشكل مقلق .

لكن القعدة تصير ماسخة لا طعم لها ولا متعة فيها على الإطلاق إذا داهمنا مرسى خلاف ومعه وليد رشيد ووجدى الوكيل ؛ مما جعل الرغبة فى تغيير الغرزة تراودنا لولا أن ولانا المكان باعتباره مهد ذكرياتنا الحميمة كان يعطلنا عن الرحيل إلى غرزة بعيدة بل يحملنا على العودة إليها كل يوم بلهفة واشتياق كأنها توشك أن تضيع منا .

يبدو أن محدثي النعمة الثلاثة قد شعروا بأنهم غير مرغوب فيهم إلا من حكيم وحده ؛ إذ ما لبثوا حتى كفوا عن المجيء مرة واحدة . ما كدنا نستشعر الهدوء فى غيابهم حتى لاحظنا أن قمر المحروقى قد بدأ يغيب لفترات طويلة ثم ما لبث حتى اختفى نهائيا هو الآخر . أصبح السؤال عنه ضرورة ملحة ، كل واحد يسأل الآخر عما إذا كان قد بلغه شئ عن سر اختفاء قمر ؟! الاختفاء كان مربوطا باختفاء مرسى ووليد ووجدى وهذا ما جعلنا نستريب فى الأمر بقلق متزايد .

ذهبت الى شقته فى الحى الجديد . صعدت السلم الى الطابق الثالث فى قبط الظهيرة ؛ طرقت باب شقته المجاور لبسطة السلم على اليمين . سمعت صوتا غليظا يأتى من الداخل صاخا فى عجرفة ؛ أيوه ؛ ثم انفتح الباب عن رجل ضخم الجثة جهم الهيئة يكمل ربط دكة السروال على عجل . صاح فى غلظة وصفاقة مشوحا : «إيش ؟! » . قلت محاولا ضبط لهجتى على نبرة تتذرع بأخر أهداب الأدب: «الاستاذ قمر المحروقى من فضلك ؟! » . وضع كفه الغليظة مفردة بجوار أذنه وهتف عاقدا ما بين حاجبيه : «شنو ؟! » . ارتفع صوتى فوق فوران العصبية:

– «الاستاذ قمر المحروقى قلت لك مش دى شقته ؟! »

– « ما باعرف ! هادى شقتى ! »

– «من إمتى ؟! »

– «إيش ؟! تريد تحقق معى ؟! »

وأغلق الباب فى وجهى ، فارتجت الأرض تحت قدمى ، فضربت الباب ببوز حذائى فى عنف ، وبصوت عال لعنت أباه وأب الحيوان الذى أنجبه والظروف القذرة التى أتت به إلى هنا ، ثم جعلت أهبط السلم ببطء وقد وقر فى ذهنى أننى قادر على ضربه إذا ما سولت له نفسه اللحاق بى .

بنفس الأتوبيس عدت الى ميدان التحرير معرجا على الجامعة الامريكية . كانت الحجرة التى يجلس فيها قمر ضمن مجموعة من مساعدى البحاثة خالية تماما . قال أحد السعاة إنه لم ير الاستاذ قمر من شهور طويلة وإنه إما فى

إجازة طويلة وإما أن عقده مع الجامعة انتهى . وفيما أنا خارج من الممر وقد تكاثفت وتكاثفت على رأسى الوسواس تذكرت صديقتنا حياة البرى ؛ فاتجهت مباشرة الى المبنى الآخر حيث يوجد مكتبها فى جناح المكتبة .

استقبلتني بحفاوة بالغة . بعد شرب فنجان القهوة أبدت رغبتي فى أن أعزمها على الغداء فى محل إيزافيتش فإذا بها تعزمنى فى مطعم اليونانية تحت سينما الأوديون باعتباره مطعمها المفضل ولديها فيه دفتر لحساب شهرى . وبررت عزومتها فى هذا المطعم بأنها مشتاقة لرؤية صالح هيصة على بعد خطوات من المطعم . هى ذكية جدا ، عرفت بحدسها القوى أننى أهدف إلى السؤال عن قمر ؛ فاختصرت علىّ طريق الأسئلة وطرحت فوقى شباك حكاية مثيرة مذهلة :

.. فى الشهور التى لم يكن فيها قمر المحروقى طبيعيا أهمل فى ملبسه فى من أكله فى نومه ؛ أصبح ينفر من كل الناس ؛ سيطرت عليه مشاعر غريبة تجاه عمله أصدقائه وزوجته مع أنها فى نظر حياة البرى غلبانة لا تهش ولا تنش . سلوكه صار مثيرا للاستغراب والدهشة والاستفزاز ؛ يدعو الى البيت أصدقاء من نوعيات غريبة لا يمكن أن تقوم صلة بينها ومحيط محاسن عاصم ، أحدهم يدعى مرسى خلاف لا حديث له سوى ما ينفقه على دماغه وحده يوميا ، وتطفله السمج على كل من يعرف أنه صاحب سيارة مبدىا استعداداه للخدمة فى مجال الإصلاح والترخيص والبيع . أما الثانى فيدعى ولد رشيد، ولد خفيف الظل أى نعم لكنه مريب ، فالسيارة التى يركبها ماركة كوماو ليس يركبها رئيس الجامعة الامريكية نفسه ، ومستوى إنفاقه فى تدخين الحشيش والمارلبورو والويسكى والقمصان المستوردة والأحذية العالمية لا يمكن قبوله من شاب لا يزال طالبا فى كلية لا تدرى ماذا حتى ولو كان وارثا لثلاثة أفدنة من أرض زراعية قسمت بينه وأربع بنات متزوجات ؛ ثم إن دائرة معارفه كما لاحظت حياة واسعة جدا بين الأجانب وهو إن كان ضعيفا فى اللغة الإنجليزية فإنه فهلوى ذكى يستطيع التفاهم بالنظرات والإشارات مما يشى بأنه يبيعهم أشياء ثمينة بمبالغ طائلة . وأما الثالث المدعو

وجدى الوكيل فإنه - كما أسمته حياة البرى ووصفته - ولد سهران بهتان نصاب يزعم تارة أنه ابن عم زينب الوكيل زوجة النحاس باشا ؛ ثم ينسى ويزعم أنه من الفرع الأغنى للعائلة ، وينسى مرة أخرى فيزعم أن المسألة مجرد تشابه فى الأسماء ؛ ثم هو يزعم تارة أخرى أنه صاحب محل لبيع الأحذية فى شارع الشواربى ، وينسى فيزعم أنه مجرد شريك فى المحل ، وينسى مرة أخرى فيزعم أنه مجرد بائع فى المحل إلا أنه أهم من صاحب المحل فى الواقع . نماذج غريبة جدا ، ضاقت بها محاسن واستنكفت أن تقوم هى بخدمتها فى بيتها فى حين أنها تحترقهم تنفر منهم تشمئز من جلوسهم عندها . إلا أنها حينما نقلت اشمئزازها ذاك الى قمر انبرى يدافع عنهم بحرارة متهما محاسن وأصدقاءها بأنهم مجموعة من الماركسيين المنعزلين عن الناس كالچيتو اليهودى وأنهم لا يفهمون طبائع الشعب المصرى وربما كانوا مجرد عملاء للاتحاد السوفيتى ، قال كلاما كثيرا من قاموس الغرزة مؤداه أن الماركسيين جميعا فى العالم العربى كله يعملون الهيصة حيث كل واحد منهم فى هيصة من أجل أن يلحق الهيصة وبعد طول عناء قد لا يلحقها لأن هيصة الاتحاد السوفيتى نفسه انتقلت من المتاجرة بأوجاع وأحلام الفقراء المطحونين فى العالم إلى المتاجرة بمصير البشرية فى سباق نووى مجنون مديرا ظهره لمستقبل الطبقة العاملة ومستقبل جميع الطبقات فى الأرض بات مجرد وجود عسكري صرف جاثم على أنفاس الكرة الأرضية ، وكل من سافر إلى روسيا شهد بعينه أن الأمور التى شقيت شعوب الاتحاد فى جمعها ينفقها سيادته على حرب الفضاء تاركا أهله فى أوضاع غاية فى السوء ما بين الجوع والقمع والقهر فى القبضة الحديدية .. ولو أن قمر طلب رأى محاسن أو حياة البرى فى الماركسية اللينينية وفى الاتحاد السوفيتى - فى لحظة صفاء بينهما وهى الماركسية السابقة وإن تخلع بعد قناعها الملتصق بوجهها - فالمؤكد أنها كانت ستقول له ماهو أفضح من ذلك بكثير بل قد تزوده من البيانات الرسمية والتصريحات والدراسات الميدانية ما يثبت بما لا يترك مجالا للشك أن الماركسية

اللينينية صائرة إلى زلزال سوف يدمرها لا محالة . أما أن يقول قمر مثل هذا الكلام السوقي على سبيل الهجوم والشتائم لمجموعة من أصدقائه وبينهم زوجة مع أنه يعلم جيدا أنهم لم يعودوا ماركسيين ولا تربطهم بالتنظيمات أى روابط ؛ فهذا معناه أنه طاقق يريد أن يجرح للتجريح وأنه مضطرب الذهن مشوش الأعصاب .

مهما يكن من أمر فإنها - حياة - لتعرف كيف تروضه وتسلس قياده . إنها تشاركنى فى حبه وتعتقد أنه من أنقى الناس الذين عرفتهم وأنه شخص شريف مائة فى المائة ، إنسان بمعنى الكلمة ، كريم جدا ، إلا أن عقده كما اكتشفتها حياة هى المرأة ، إنه على قدر ما فيه من رجولة يطوى صدره على صورة سيئة للمرأة بوجه عام ؛ تقصد حياة أنه يحتقر المرأة فى أعماقه وإن تظاهر بالرقعة معها؛ المرجح أنه قد يكون مقروصا من امرأة مجهولة ، مروراً لذلك من كل امرأة ؛ سرعان ما يضيّق بها ؛ ورغم طول باله وصبره كشخص ودود عسرى فإنه لا يصبر على حديث امرأة ، دائما يتجنب إطالة النقاش معها مهما عظم شأن موضوع النقاش ؛ يريد أن يكون صاحب الأمر والنهى والكلمة الأخيرة مهما كان على خطأ ، مع أنه يمكن أن يكون سى السيد بملء راحته ورغبته وعن طيب خاطر من جانب محاسن إذا هو طول باله عليها و أخذها بالهدوء ؛ كان من الممكن أن يقنعها بأن تجامل أصدقائه من أجل خاطره وفى نفس الوقت يشدد على أصدقائه بأن يلتزموا جانب الاتزان والاحترام فى بيوت الناس ؛ إلا أنه ما كاد يسمع احتجاج محاسن على سوء المستوى الثقافى والأخلاقى لأصدقائه حتى انفجر فيها يحقر من شأنها هى ومن تلوذ بهم ؛ ولكن الله كان مسانداً لمحاسن ذات ليلة ليكشف قمر ويثبت له أنه غليظ القفا ..

ليلتذاك احتفلت محاسن بعيد ميلاد ابنتها داليا ، والحق أن قمر لم يقصر فى نفقات الحفل بل اشترى كل شىء بوفرة وشت بأن هناك ممولا آخر لهذه النفقات الباهظة . فى المساء دعا أصدقائه كما دعت محاسن أصدقاءها . امتد الاحتفال

على طول السهرة ؛ فسكر أصدقاء قمر سكرًا بيناً ، خرجوا عن حدود اللياقة ، تلفظوا بألفاظ سوقية بذيئة ، عاكسوا بعض السيدات تجراً أحدهم وتحسس مؤخرة البنت الشغالة التي داخت محاسن في الإتيان بها من قرية في الفيوم . من سوء حظ وجدى الوكيل أن البنت ارتعدت جرت صارخة إلى المطبخ . محاسن هي الأخرى تعجلت ، معذورة طبعاً ، أعصابها شاطت في المطبخ وهي تصرخ في البنت الشغالة لتخبرها بما حدث ؛ وفيما كانت البنت تحكى لها بلسان مرعوش وكلمات خجلة مرتعبة كان مرسى خلاف قد خلص لها حقها في الحال ، رفع ذراعه ويكل قوته ناول وجدى الوكيل صفقة على صدغه دوت كالرصاصة ألقت به على الأرض جثة متجمدة من هول المفاجأة ؛ لم يقنع مرسى بذلك بل شيع إلى وجهه بصقة تناثرت على الجميع قرفاً واشمئزاً . كان من الممكن أن ينتهى الموقف عند هذا الحد ؛ لكن محاسن هرعت من المطبخ كتلة من اللهب ذات ألسنة كالأخطبوط ، سببت لعنت بصقت ألقت ما فيها ما خلت ؛ كانت شخصية أخرى تماماً ؛ كانت عنفاً خشى الجميع مواجهته ، فامتثلوا لأمرها في الحال صاغرين وللموا أنفسهم استعداداً للرحيل ، لكنها فقدت السيطرة على المارد الذى انطلق منها فإذا هو - وهي - يندفع فى جنون محقق فيقلب المائدة فتتطاير الزجاجات والأكواب وأطباق المزة على وجوههم وثيابهم الأنيقة ؛ لحقت بها حياة البرى وهي ترفع سماعة الهاتف تستغيث بشرطة النجدة : احتوتها فى حضنها ، زحفت بها إلى حجرة النوم . أغلقت عليهما الباب من الداخل جعلت تهدىء من أعصابها تنبهاً إلى أن الأمر يهدد بفضيحة مدوية . فى تلك اللحظة بدأ قمر يفيق من هول الصدمة يصير قادراً على الوقوف ، فسحب أصدقاءه ونزل بهم إلى الشارع .

طول الليل والرعشة متمكنة من محاسن ، والروع يتملك ابنتها داليا فلا تكف عن الصراخ والبكاء المذعور وقد أنسيت أنها منذ سويحات قليلة كانت موضع احتفال بإطفاء شمعتهى الرابعة فياله من عيد ميلاد مشئوم مؤلم لطفلة . ليلتها

نظرت حياة فى ساعتها فوجدتها تقترب من منتصب الليل ، فآلهمها الله ما يمكن أن تفعل لإزالة الروع عن هذه الطفلة التعيسة : أخذت محاسن وداليا والبنت الشغالة ونزلت ، استأذنت ممن كانوا معها ، دفعت بهم إلى سيارتها الفولكس الخنفساء - التى اشتريتها من طلعت قبيل سفره وغيّرت لونها إلى الأسود الدبلوماسى - ثم ركبت إلى شارع الشيخ ربحان وهى موقنة أن مسرحية مدرسة المشاغبين تكون الآن - بالكاد - فى منتصف فصلها الأول . سمير خفاجة ومعظم أعضاء فرقة الفنانين المتحدين من أصدقائها منذ أن كانت سكرتيرة للمنتج السينمائى الشهير . ابتسم لها موظف الباب وأفسح الطريق إلى صالة العرض فسألت عن سمير وهى تدفع أمامها محاسن وداليا والشغالة ، فقال لها إنه يحل محله فى أداء الواجب وأن القهوة ستجىء وراها ، ثم أشار لزميله قائلاً :

- قعد الأستاذة حياة فى بنوار الأستاذ سمير !

محاسن وداليا وحياة والشغالة ضحككن من القلب فعلاً ؛ وفى الاستراحة شربن القهوة والكوكاكولا وأكلت داليا قطع الشيكولاتة على نفقة سمير خفاجة ؛ تجولن فى الكواليس حيث سلمن على عادل إمام وسعيد صالح ويونس شلبى وأحمد زكى وسهير البابلى وحسن مصطفى وهادى الجيار . وأهم شىء خرجت به حياة البرى من هذه السهرة الفكاهية الضاحكة - بعد الترويج عن داليا وأمها - هو أنها اكتشفت لأول مرة شيئاً غريباً جداً لم تكن تلاحظه من قبل هو أن سعيد صالح وعادل إمام بالذات فيهما لطشة شريفة لكنها واضحة من شخصية صالح هيصة التى سرها أن تعرفت عليها جيداً . قمر المحروقى إذن ليس هو الوحيد المتأثر بصالح هيصة .. هى فى الواقع لا تدري إن كان صالح هيصة قد أصبح تياراً جديداً كاسحاً يؤثر فى جيل بأكمله أم أن المتأثرين به هم الذين شكوا ما يمكن أن يكون تياراً سيما و أن جميع ممثلى الكوميديا على إطلاقهم فى بلادنا يشتغلون على شخصية العبيط أو المستعيط أو الذى ييسوق العبط على الهباله لكيلا يلتزم بأى قانون ؛ إنهم يتكلمون مثل صالح هيصة يرددون بعض طرائفه

يفكرون بطريقته على المسرح وإنها لتأكد أنهم قد حششوا عند صالح هيصة غير أنهم كالعادة لم يأخذوا منه إلا القناع والمفردات الخرقاء يضعونها فى سياقات من المفترض أنها جادة فتحدث المفارقات الزاعقة . أما صالح هيصة نفسه فإنه فى نظرها شئ ثمين من زاوية ما ..

خشيت حياة أن لو عادت محاسن إلى البيت تفترسها الكأبة من جديد ، أو يجىء قمر ليفرغ جام غضبه عليها فيتفاقم الموقف ويتعقد . ركن السيارة ؛ وبدلاً من أن تلف حياة لتعود إلى شارع القصر العيني واصلت الانطلاق إلى شقتها فى مصر الجديدة ، حيث نام ثلاثتهن فى سريرها .

فى الصباح تركت محاسن وداليا فى شقتها ؛ انطلقت إلى الجامعة الأمريكية لتأتى بقمر إلى شقتها لتعقد جلسة صلح على غدوة شهية ثم تسلمه محاسن وداليا على أرض من الصفاء ونسيان ما حدث كأن لم يكن . لم تجده بالطبع ؛ صعدت إلى مكتب الدكتور النبوى شريف النبوى المشرف على القاموس ..

- «صباح الخير دكتور !»

- «أهلاً حياة ! اتفضلى ! أخبرك إيه ؟!»

- «الحمد لله بخير ! أmaal فى قمر المحروقى هو فى إجازة ؟!»

ابتسم فى مرارة :

- «قمر المحروقى استقال حضرته !!»

- «إيه ؟ بتقول استقال ؟!»

- «حضرته رمى لنا الشغل وقطع العقد وتنه ماشى !!»

مقطبة الجبين شاحبة :

- «من إمتى ؟!»

- «من زمان قوى ! من حوالى خمس ست أشهر !»

ريقها ناشف كالعصا :

- «كان حصل حاجه يا دكتور ؟!»

- «الحقيقة مهمته كانت صعبة ! تقريبا أهم عواميد الشغل فى القاموس وانا كنت باراعى ده فى المكافآت وبدلات الانتقال ! »

- «كانت إيه مهمته لو سمحت !؟»

- « تجميع التعبيرات العتيقة المتداولة فى الأحياء الشعبية ! فى الحوارى ، الأسواق ، الحانات القهاوى الغرز .. الخ ! ومعنى أو مدلول كل تعبير ! وكان بيقدم كشوفات بمصاريف انتقالاته بين الجماعات والبيئات المختلفة ! وانا كنت باضيف له فوق منها حوافز ! »

- «أنا متأكدة ان حضرتك متعاطف معاه !»

- «جيت فى يوم بابص فى مكتبه لقيته بيزعق مع الساعة وموظف الاستعلامات ولقيته مقعد عنده راجل شكله مريب جدا ! مقطع ومبهدل ومصدى وشعره مغبر ! متشرد يعنى ! منظره فظيع ! مقزز ! ما تعرفيش ان كان حرامى والا متسول ولا مجذوب المهم انه ميصحش يدخل إلا بعد استيفاء بيانات كاملة عنه !» ضحكت حياة بعقم فأشرق وجهها رغم سوء الموقف :

- «الراجل ده أكيد صالح هيصة !»

- «إنت تعرفيه !؟»

- «ده بالمناسبة راجل كويس ! محترم جدا ويمكن يكون أحق بالاحترام من أى أفندى نظيف من اللى بيدخلوا هنا من غير بيانات ! لكن .. المهم ..» - «استدعيت قمر ! مين ده يا قمر ؟! ده مصدر من مصادرى با سجل له حديث ملين مفردات وتعبيرات بيدور عليها القاموس ! طب ما سجلتش بياناته ليه ؟ قال معهوش بطاقة شخصية والموظف أصر على طرده ! طب ويتزعق ليه وتهيم ؟ لأنهم أهانوا صديقى قدامى !! بينى وبينك أنا اتغاضت من الحدة اللى بيكلمنى بيها قدام الساعة والموظفين ! شخبطت فيه قلت له انا ما أيدش القوضى !راح متعفرت لدرجة إنى خفت من منظره ! طلع العقد من جيبيه ! مكانش لسه مضاه بعد تجديده ! قطع قطع قطع ! ورماه فى الطفاية وخد عندك : إنتو فاكرين

نفسكم إيه واحمدوا ربنا أنى رضيت اشتغل معاكم ! ده قاموس مشبوه ! دى هيصة بتعملها أمريكا عشان بتخطط لاحتلال مصر ! عاوزة تعرف كل حرف بيتقال فى الشارع المصرى عشان تعرف تحكمه ازاي أنا لا يمكن استمر معاكم فى الجريمة دى ! عشرة جنيه من شغله شريفة أحسن لى من الهيصة بتاعتكم ! وفى لمح البصر ما لقيتوش ! ومن يومها لحد النهاردة ما شفتوش ومحرج أكرم حماه !! »

زفرت حياة كل أعماقها فى دخان السيجارة ، استطاعت أن ترى من خلال الضباب الكثيف حالة قمر حيث أصبح مضطرا لهؤلاء الأصدقاء لإنقاذه ماديا من المحنة التى أوقع نفسه فيها . أسقط فى يدها ؛ ماذا تقول لمحاسن ؟ تخشى لو صارحتها بالحقيقة أن يركبها النكد ؛ صحيح أنها موظفة وتستطيع الإنفاق على ابنتها ودفع أقساط ما اشتريته من سلع معمرة ، لكن الحياة لا تكون محتملة طوال الشهر . قدرت بينها وبين نفسها أن مسألة عودته إلى عمله ميسورة إذا هى تفاهمت مع الدكتور النبوى شريف النبوى وهو صعيدى مثلها وتقوم بينهما علاقة من الود والاحترام وتبادل الكتب والمراجع والدوريات الأجنبية المهمة ؛ يبقى أمامها أن تعرف كيف تقنع محاسن بالبقاء عندها بضعة أيام حتى تنتهى من تسوية هذه المصيبة الطارئة ؛ وأن تعرف كيف تقابل قمر بفارغ الصبر . ذهبت إلى شقته طرقت الباب والجرس عدة مرات حتى ملت ، عاودت الطرق صبحا وظهرا وإيلا دون جدوى ؛ خمنت أن يكون قمر موجودا داخل الشقة وممتنعا عن الفتح والرد على الهاتف . ذهبت إلى غرزة حكيم لتسأل عنه فلم تجد صالح هيصة ؛ سألت حكيم عنهما معا فقال إن الأستاذ قمر جاء منذ حوالى عشرة أيام - أى قبل إلخاقة بثمانية أيام - وبعد انقطاعه عن الغرزة شهوراً طويلاً ، حيث شرب عشرين حجرا لوحده ثم أخذ صالح وانصرف ؛ لم يكن حكيم موجودا ساعتها لكن صالح ترك له رسالة مع صابر تقول إن الأستاذ قمر وشركاه استأجروا بيتا قديما فى مريوط قرب الاسكندرية وأقاموا فيه مصنعا للفخاريات والخزف وقد عين

الاستاذ قمر صالح هيصة خفيرا للمصنع فى الليل وإن كان صابر يعتقد أن الاستاذ قمر أخذه لىخدم التحشيش له ولشركائه . اغتاضت حياة ، رجعت إلى محاسن ، أقنعتها أن قمر فى حالة عصبية حادة قد تهدد بانفجار خطير إذا تمت أى مواجهة بينهما الآن ؛ فخير لهما معا أن تظل محاسن لديها ليومين أو حتى لنهاية الأسبوع إلى أن تتمكن هى من تهدئه غضبة قمر ؛ ويا حبذا لو أخذت محاسن إجازة من الشغل ؛ ثم إنها تولت بنفسها طلب الشغل بالهاتف وأبلغت بأن محاسن فى وعكة صحية يلزمها راحة حتى نهاية هذا الأسبوع . ركبت سيارتها ؛ اتجهت إلى شقة قمر وفى نيتها أن تجلس على رصيف الكافيتريا المواجهة للعمارة لكى تضبط قمر فى لحظة دخوله أو خروجه . صعدت أولا لتتأكد ؛ وضعت أذنها على خصاص الباب كاتمة أنفاسها ؛ خيل لها أنها تسمع لغطا وأيمانات مغلظة وحوارا أقرب إلى التناحر ؛ فطرقت الباب ، فكفت الأصوات تماما ؛ ضربت الجرس ، ظلت تضرب بلا فائدة ؛ نزلت وهى متأكدة أن قمر بالداخل مع أصدقائه ؛ وبهذه المناسبة فإنها قد رأتنى وأنا صاعد إلى شقة قمر يوم رحلت أسأل عنه ؛ كادت تنادىنى لتخبرنى أن قمر ليس موجوداً لكنها فضلت أن تتركنى لتختبر النتيجة ؛ ولما رأتنى أخرج من العمارة أهول بحثا عن سيارة أجرة كادت تنادىنى مرة أخرى لكنها فضلت أن تبقى وحدها وقد اتضح لها أن القاعدين داخل الشقة اغتاضوا من الطرق الملحاح مرتين فظنوا أن الطارق فى المرتين شخص واحد فطلع صاحب الدشداشة ليزجرنى . ما كادت هى تنتهى من فجان القهوة على رصيف الكافيتريا حتى رأيت قمر المحروقى يخرج من باب العمارة وخلفه رجلان أحدهما عربى يلبس الدشداشة والآخر يبدو مصريا مألوفاً لها يلبس قميصا وسروالاً . انتفضت واقفة ثم هرولت خلفهم منادية وهى ترمى على المنضدة قطعة نقدية :

- «قمر ! قمر !»

- «أهلا حياة !»

تخلف عن الرجلين حتى لحقت به . لاحظت أن القميص على كتفيه لم يتغير منذ ليلة عيد ميلاد ابنته ، وأن الخشونة والصدأ يتراكمان على يديه . عاجلها .
- «أمال محاسن فين ؟» .

- «عندى هي وداليا والشغالة ! أصلها تعبت قوى ليلة الحفلة واضطريت اجيب لها دكتور ! ما خليتهاش تروح بيت أبوها عشان ما يتخضوش عليها خدتها عندي!»

- «طب الحمد لله إني ما اتصلتش ببيتهم !!»

قالها ببرود ضاحك ، ثم أردف :

- «عن إذك عشان معاه ضيوف !!»

- «بس أنا عاوزاك ضرورى ! لازم تيجى تشوف محاسن ! وداليا كمان

مخضوضه والمفروض تصالحها !!»

- «أنا ماباروحش لحد ! ماصالحش حد !»

- «بسيطة ! أقعد وأنا اروح اجيبها لك تصالحك هي !»

- «خليها شوية !! عندك أو عند أهلها ! لأن أنا مسافر دلوقت حالا ! وبدال ما

تقعد لوحدها تقعد مع حد زيك أو حتى مع الشغالة !!»

- «مسافر فين ؟ كام يوم ؟»

- «اسكندرية !»

- «ولا مربوط عشان المصنع ؟»

- «الله ! ده إنتى شغلتي المباحث ورايا اهه !!»

- «كله بالصدفة ! المهم حتيجى إمتى؟»

- «أسبوع ! عن إذك !»

- «قمر !»

لكنه لوح لها من بعيد ، ثم لحق بالرجلين ، حيث سلم عليهما لابس القميص والسرwal ثم انصرف مهرولا ، فى حين اتجه لابس اللشداشة إلى سيارة

مرسيدس راكنة على مقربة ، فتحتها ودخل ، ثم فتح الباب المقابل فركب قمر . انطلقت السيارة إلى مكان مجهول . داخت حياة ، ارتدت إلى الكافيتريا فارتمت على الكرسي شاعرة بأنها أربكت نفسها بمشكلة هي أقل من أن تحتتمل المضي فيها أبعد من ذلك . طلبت فنجانا آخر من القهوة لعل أعصابها تهدأ قبل أن تقود سيارتها ولربما اهتدت إلى مخرج من هذه الورطة . شربت دختت شربت وعبثا حاولت ضبط دماغها على اتجاه معين ، ثم إذا بسيارة أجرة تتوقف أمام العمارة، ثم تهبط منها داليا ممسكة بيد الشغالة ومن ورائهما محاسن . هرولت إليها :

– «جيتى ليه ١٩»

– «شقتى وحشتتى ! قلبى بياكلنى ما اعرفش ليه ١٩»

– «قمر لسه ماشى ! كان معاه اثنين عرب ! قال إنه مسافر اسكندرية فى مشوار !»

– «براحتها بقى ! ييجى وقت ما ييجى !»

صعدتا معا إلى الشقة . أخرجت محاسن مفتاحها من حقيبة يدها ، فتحت الباب . دخلت . ارتمت كل من محاسن وحياة على الكنب في تهالك ؛ بقيتا صامتين لوقت طويل . أخيرا قامت محاسن فغيرت ثيابها ودعت حياة إلى أن تفعل هي الأخرى ففعلت ؛ توجهتا معا إلى المطبخ شرعتا فى تدبير غدوة ملفقة . ثم أخذن جميعا إلى نوم عميق جدا . فى حوالى الرابعة عصرا استيقظن على صوت المفتاح يدور فى قفل الباب ثم صوت الباب ينفلق وينفلق فى صخب مزعج كأن حيوانا شرسا دفعه بقدميه . خرجن بقمصان النوم إلى الردهة ، فما شاهدن إلا الرجل لابس الدشداشة يدفع أمامه إحدى مومسات شارع الهرم تضع على وجهها طناً من المساحيق وتتقصع فى كل خطوة . صرخت محاسن :

– «إيه ده ١٩ ! أنت مين ١٩ ! زأى تتهجم علينا ١٩»

وقف الرجل مبهورا :

- «إنت اللي مين ؟!»

- «أنا صاحبة الشقة دى !»

- «الشقة دى أنا اشتريتها امبارح ودفعت باقى ثمنها النهاردة الضهر ! ستة

وثلاثين ألف جنيه !»

- «إطلع بره ! إطلع بره قبل ما اطلب لك البوليس !»

تقصعت المومس :

- «ياى ! البوليس ! هى فيها بوليس ؟!»

- «أنا اللي حاطب لك البوليس ! إزاي تدخل شقتى وأنا مش موجود ؟!»

تقدمته منه حياة البرى فى رصانة وهدوء :

- «ممكن تتفضل يا حضرة ؟»

- «أدينى قعدت!»

- «وانتى يا هانم ممكن تورينا عرض كتافك ؟!»

- «وطولى ! مش عاجبك ولا إيه ؟!»

- «روحى وانتى يا بديعة وأنا حابقى اطلبك بالتليفون !»

هكذا قال الرجل للمرأة فاندفعت بامتعاظ سمح ورزعت الباب خلفها ، وصار

شبهبها الغليظ يقرع رخام السلم إلى أن غاص فى الأعماق السحيقة ولم يبق منه

سوى أصدائه . نظرت حياة إلى محاسن نظرة ذات معنى فيها غمزة :

- يلا يا محاسن قومى اتصرفى ! خدى التليفون جوه واتصرفى ! اطلبى أى

دكان بيعت لك الطلبات عشان نغدى الضيف الطيب ده !»

- «ما فى داعى ! ما فى داعى ! أهم شىء أنا شارى ها الشقة مفروشة بكل

ما فيها ! كيف نفعل فى ها المشكلة ؟!»

- «حنحلها ونحل أبوها كمان ! ده احنا مصريين ولاد بلد ونعجبك قوى !

إشرب الأول حاجة عشان تروق دمك وتعرف تتفاهم معنا!»

بحنكتها الحريفة سربت إليه رحيقها الحريف بأنثويته الحريفة ولذعتها

الحريفة . زجاجة كوكاكولا فى فنجان قهوة فى سيجارتين محشوتين شريهما

الجرذل دون أن يلحظ ، فى بسمتين لعوبيتين انشرح صدر الرجل ورحرح على قعدته إلى أن سمعوا طرقا حادا على الباب فاندفعت محاسن بقميص نومها تجرى لتفتح الباب . دخل ضابط الشرطة ومساعدته فسأل عن المبلغة فقدمت له محاسن نفسها ، وقدمت له صديققتها وابنتها وشغالتها ثم قدمت له الرجل المقتحم . نظر ضابط النجدة فوجد أن سيدة البيت وابنتها وشغالتها وصديققتها كلهن بقمصان النوم فيما عدا هذا العملاق الدهل ، فأيقن بأن الاقتحام قد حدث بالفعل وأن الحادث لا يمكن تكييفه قانونيا إلا بكونه حادث اقتحام ، ومن ثم أسلس قياده للمبلغة بتعاطف كامل ومعلن بكل وضوح . بإيحاء ومعاونة من حياة كتب محضر معاينة غاية فى الدقة والإحكام سجل فيه كل ما يخص محاسن داخل الشقة من سرير ابنتها إلى ملابس شغالتها ؛ أما الرجل فقدم عقد بيع موقعا من قمر المحروقى وشهادة السمسار وكل من مرسى خلاف ووليد رشيد . ارتج قسم شرطة حى الدقى للحادث بعد أن هدد الرجل بتصعيد الأمر إلى أزمة دبلوماسية مما أحق عليه الجميع . فى الليل متلوا بشكل عاجل أمام النيابة التى تحفظت على محتويات الشقة وصرحت لمحاسن بالإقامة فيها ؛ وقال وكيل النيابة للرجل إن الشقة حتى لو لم تكن مسجلة فى العقد الأصيلى باسم الزوجين معا فإنها عند اشتجار الخلاف بينهما على الزوج أن يرحل إذا كانت الزوجة قد أنجبت منه ولو طفلا واحدا . كما تحفظت النيابة على عقد البيع الأصيلى المسجل باسم كل من قمر ومحاسن ، والعقد الفرعى الموقع باسم قمر وحده ، وأمرت باستدعائه لمناقشته فى صحة التوقيع ، وطمأنت الرجل بأنها ستتكفل برد حقه له على أى نحو يكون .

ختمت حياة البرى حديثها المؤلم بقولها إن مهمتنا الآن تنحصر فى الإتيان بقمر من تحت طقاطيق الأرض لتخليص زوجها وابنته من هذه الورطة المخجلة . قالت أيضا إنها - مع كل ذلك الذى حدث - ليست تحتقر قمر بل على العكس تشفق عليه ، إذ هو بهذا الفعل الانتقامى ليس يستهدف محاسن كما قد يبدو

للذهن المتعجل ، إنما هو ينتقم من نفسه ، يعذب نفسه ؛ إنه على فرط ذكائه واتساع مخه يتصرف بعاطفية محضة تجاه كل شيء وهى بكل أسف عاطفة عليلة، حتى فى قراراته المصيرية لا يلتفت لعقله ؛ ولكنه بعد أن يصير قراره واقعا ويتبين أنه قد أخطأ خطأ فادحاً فإنه حينئذ قد يرتد مائة وثمانين درجة نحو ما يتصور أنه العلاج للخطأ . زواجه من محاسن مثلاً ، لم يكن مدروساً بل كان دفقة عاطفية جارفة استسلم لها مغمض العينين مخدر الحواس ؛ فلما اتضح له بعد العشرة أن شخصيتها قوية وعنيدة كشخصية أمه التى اشتكى من تسلطها كثيراً ؛ لم يجد أمامه - قليل الحيلة - إلا مثل هذه الاندفاعات الخرقاء يعاقب بها نفسه بجريرة إيقاعها به بين امرأتين متسلطتين تتحكمان فى حريته قراره مزاجه؛ خطورة مثل هذه الاندفاعات أنها تكتسح فى عنفوانها أكثر من برىء لا ذنب له على الإطلاق . إنه - لملك الخاص وأنت صديقه منذ زمن كما هى تعلم - ليس شريراً بالمرء ، إنما هو غلبان ، والله غلبان ، طفل شقى عنيد ناشف الدماغ يسد على نفسه جميع السكك بدلا من الركون إلى السكينة فيعذب أهله أشد العذاب .

قلت لها : لعلنا فى غرزة حكيم نستطيع تسقط الأخبار من أى أحد ؛ فلا بد أن حكيم أو صابر قد حصل على عنوان صالح هيصة المههم أن نأخذ حتى شواهد كلام نساقر بها إلى مربوط ونسأل أهلها عن بغيتنا .
فى غرزة حكيم فوجئنا بصالح هيصة قاعدا فى مكانه العتيد يرص الحجارة . ما كاد يرى حياة داخلة ورائى حتى انتفض واقفا متلهل الوجه ؛ ترك نفسه لأحضان حياة البرى كطفل خجول فى حضن طنط . قال صالح هيصة إن المصنع لم يبدأ الشغل بعد ، كل ما هنالك بعض ماكينات لعجن الطمى وتنقيته وتديوره فى أشكال متعددة كما أظهرت العينات الأولية ؛ وأنه سئم من الحياة فى مربوط الساكنة الميتة على بحيرتها الموحشة ، اشتاق للصخب فى حوارى حى معروف ، لوساخة حكيم ، نتانة صابر ، قرف الحجارة ؛ لكن السبب الأكبر - إن جئنا

الحقيقة - هو أنه لم يحتمل إمارة شركاء قمر وغلاستهم فما كان منه إلا أن اشترى السبريتو والكوكاكولا ثم عمل الهيصة فالتهم جميع القوم وكان المشهد مروعا فى مريوط ، فارتاع قمر ، أمسكه متوجها به إلى الطريق الصحراوى ، استوقف سيارة على طريق القاهرة ، دفع الأجرة مضاعفة وأوصى سائقها بأن ينزل هذا الرجل أمام مبنى فندق الهيلتون ؛ ومن هذا المبنى خرم صالحي إلى معروف وقد صحصح بعد نوم عميق دأهمه فى السيارة . حكى هذه التفاصيل على امتداد عشرين حجرا شربناها من يد ضابري ، وحينما لمحت له حياة بأنها تريد قمر على وجه السرعة لأن ابنته مريضة جدا ، قال إنه عاهد نفسه ألا يعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، ولكنه من أجل خاطر الست حياة مستعد للرجوع فى كلامه والقيام معها الآن وفورا طالما أن سيارتها تحت يدها ، فرفعت حياة يدها برشاقة فى صيحة إعجاب طالبة يد صالحي ؛ ثم تصافحه فى صكة بهيجة وبقيت قابضة على يده حتى أوقفته ينفذ ثيابه تأهباً للرحيل .

حماة

منذ سافرت حياة البرى إلى مريوط لم أرها ؛ لكننى بعد حوالى ثلاثة أيام كنت على موعد مع برنامج البريد الطائر الذى يقدمه صديقى مأمون النجار فى إذاعة ركن السودان لأسجل فيه أقصوصة من تأليفى ، وكنت مبتهجا لأن التسجيل سيتم لأول مرة فى استديوهات المبنى الجديد فى ماسبيرو على مقربة من غرزة حكيم ، أى أن المزاج بات قريبا من الشغل وخاصة فى مثل هذه الاصطباحة الراقية . فوجئت بصالح هيصة جالسا فى مكانه العتيد يرص الحجارة . ما إن رأتى حتى تهلل مبتسما ولوح بيده بحركة تشخيصية كأنها تقول: «أما حصل وحصل وحصل» ؛ وكأن الحديث كان ممتدا بيننا ولم ينقطع سوى بعض هنيهة .

وسواء كانت هى قدرته على التوصيل أم هى قدرتى على الاستقبال فإننى فهمت من تلوينات نراعه أنه يقصد ما دار فى مريوط منذ أن سافر إليها مع حياة البرى ؛ لاحظت أيضا أنه سعيد إذ يشارك فى مؤامرة بريئة ضد صديقه قمر المحروقى خدمة للحق والواجب ؛ ثم غير صوته قليلا كأنه يفتح قوسا أو يخط شرطة لجملة اعتراضية قال فيها إنه حينما علم من الست حياة بما فعله الأستاذ قمر وهما فى الطريق زعل جدا من قمر وانتوى أن يدلّقه من دماغه نهائيا ، لولا أن صديقه ربح قلبه من جهته وارتد إلى الصواب بسهولة ؛ ثم فتح صوته كأنه يقفل القوس أو شرطة الاعتراض ليستأنف حكى ما حدث من طلق سلام عليكم ..

اصطحبته حياة البرى إلى أحد الفنادق فى وسط المدينة اسمه الكوزموبوليتان خلف البورصة ، أظنك تعرفه وتسكّر فى باره أحيانا . قابلت رجلا يلبس الدشداشة ، أتت به فركب السيارة معنا ؛ وقد نزلت أنا لأترك له الكرسي

المجاور للسـت حياة ، لكنها أشارت للرجل إلى الكنبـة الخلفية . بدت السعادة على وجه صالح وهو يبلغنى هذه العبارة . وكان لابس الدشداشة ، قد تفرس فى وجه صالح باسترابة ثم قال :

– «ريتك قبل الحين !»

فضحك صالح :

– «مع الأستاذ قمر !»

فهن رأسه موافقا وعزم عليه بسيجارة مارلبورو ، فاعتذر صالح قائلا إنها لا تكيفه مثل الكليوباترا كنج سايز السخنة وأن كل ما هو مصنوع من أم الدنيا طعمه حريف مثلها ولذيذ . فابتسـمت حياة ولم يعلق الرجل فيما انسابت الفولكس واجن كالضفاعة تزرق يمينا وشمالا حتى تملكـت الطريق السريع فاندفعت بأقصى سرعتها إلى مريوط .

فوجئ قمر . كان جالسا فوق مصطبة فى حوش الدار مع صاحبه الثلاثة : مرسى ووليد ووجدى الذين يسافرون إلى قمر بين يوم وآخر منها فسحة على الطريق الخالى ومنها مباشرة مشروعاتهم المستقبلية المهم . كانوا منهمكين فى التحشيش بجدية فيما يرسمون خريطة الإنتاج المزمع تقديمه فى القريب العاجل . تجمد قمر فى قعدته بينما وقف صاحبه مهللين فيما يشبه الترحاب المهرجاني الصاخب ، فى حين تقدم لابس الدشداشة ليفعل ما اتفق عليه مع حياة أثناء قدومهما فى السيارة : انقض على قمر قابضا على طوقه فى عنف صائحا وهو يتلفت حواليه :

– «أهـ ! تعالى يا بيه اقبطـ عليه ! اتفضل يا حضرة الطابط ! هى الشرطة

مش سامعانى ولا إيه ؟!»

ودفع قمر بعنف فأجلسه على المصطبة فارتج واصطك دماغه بالحائط ؛ ثم اندفع نحو الباب صائحا فى طلب الشرطة وقد اندمج أكثر من اللازم ، حينئذ اعترضته حياة بجسدها فى جدية تمثيلية بارعة ، صارخة فيه بغضب حقيقى :

– «من فضلك ! إحنا ما اتفقناش على كده!»

– «إزاي يا ست هانم ؟ أشوف اللي نصب علىّ واسيبه ؟ أمال باجييب الشرطة معاه ليه ؟!»

– «الشرطة جايه على سبيل الاحتياط وإحنا متفقين إنها تراقب من بعيد لبعيد وما تعلنش عن نفسها !»

– «كيف ما تعلن عن نفسها ؟!»

– «حضرتك عارف أن أنا تعهدت للنيابة بإنى أحل المشكلة بشكل ودى ! وحل المشكلة إنك تاخذ فلوسك ! لو أنا فشلت فى الحل يبقى من حقا تجري تنده لهم يقبضوا على الأستاذ قمر ! سيبنى بقى أتفاهم !»
– «ما يخالف ! فرجينا !»

بمعلمنية مبكرة خفيفة الظل تقدم وليد رشيد نحو الرجل بوجه بشوش :
– «حضرتك اتفضل اقعد استريح الأول ! إحنا رقبتنا سداه ! إنت فاكركنا عيال ولا إيه ؟ دا احنا رجاله قوى وجدعان قوى ونعرف نتصرف !»
أردف مرسى خلاف :

– «كل شىء حيثل بإذن الله »

استدرك وجدى الوكيل :

– «تحبوا تتغدوا إيه الأول ؟ قصدى تتعشوا ! عندنا هنا ثلاجة مليانة خيرات رينا ! ولا .. أشوى لكم خروف أحسن وأسرع ؟»

نظر له لابس الدشداشة فى ارتياب مظنة استعمال الخروف للسخرية منه .
الوحيد الذى التقط هذا المعنى من ملامح وجهه ، فصاح بصوت مفتوح ضاحك النبرة :

– «ده مش كلام طق حنك يا أبأ الحاج ! عدم المؤاخذه بول قدها وقدود ما تبصلهمش البصه دى ! عربياتهم راكنة بره يمكن شفتها باسم الله ما شاء الله الى مرسيدس واللى بوجو واللى فالفو !»

صاح فيه مرسى :

- «ما تولع لنا النار يا صالح !»

- «النار الكبيرة يعنى ؟»

- «شوف انت بقى النار اللى حتشوى خروف!»

وقف وجدى وسحب صالح :

- «تعالى أما اطلع لك خروف التلاجة الكبيرة !»

ومضى به حتى اختفيا . هبط مرسى خلاف على الأرض وأخذ يلثم النار فى المنقذ حول براد الشاى الذى زوده بماء وتلقيمة ، ثم رص حجرا ودخل بالجوزة على الرجل الغريب :

- «مساء النجف !»

أزاح البوصة بخشونة مبرطما بغباوة :

- «مابا طفحوش !!»

رمقه مرسى فى حنق مهذب محكوم بالحياد ، ثم لوح بذراعه فى هدوء أعصاب يحسد عليه ، انطبعت على عينيه غمزة تؤكد أنه أصبغ خلق الله قاطبة إذ يعلق بلباقة :

- «عنك يا باشا! إحنا بقى بنطفحه ! أصله كيف ما بيولفش على كل

الهلوين!»

ثم استدرك وهو ييلع الدخان فى لذة فائقة :

- «اللى زى حضرتك يعنى !»

دخل وجدى الوكيل حاملا خروفا كلاملا مسلوخا لتوه كان جزار فى الدار المجاورة لدارهم يهم بتقطيعه لوضعه فى التلاجة . اقترب به من لابس الدشداشة :

- «يستاهل بقك !»

وطبع على أطراف أصابعه قبلة ! ثم التفت أمرا ببكوية منتحلة لكنها لطيفة.

جدا :

- «يلاً يابو الصلح ولع لنا حريقة فى الدار بسرعة !»
وسلمه الخروف ومضى خلفه إلى الداخل . ودخل مرسى بالجوزة على حياة :
- «إيه بقى الموضوع يا ست حياة ؟»
سحبت حياة نفسا عميقا من الجوزة ثم نفثت دخانه الكثيف ولايس الدشداشة
يرمقها بنظرات هى مزيج من الانبهار والتشكك والإعجاب والاشتفاء والحيرة .
قالت وهى تزن كل كلمة :
- «الحكاية باختصار محاسن وينتها قاعدين فى شقتهم بصوا لقوا الباب
انفتح والراجل ده داخل عليهم ومعا واحد مومس !»
نكس مرسى رأسه . شحب وجه قمر ، ظهر عليه الاضطراب الفاجع ، زام
بعمق ، تتمم :
- «قلت لك الحق غير المفتاح واللا حظ قفل !»
- «ما بالحق ! أنا ما باسرق !»
استأنفت حياة :
- «حضرته بلغ النيابة إنه ضبط لصوص جوه شقته ! جه البوليس خدنا
كلنا !!»
- «وانتِ ليه طيب ؟!»
هكذا سأل وليد الذى كان يتابع بشغف . قال :
- «لأنى كنت مع محاسن ساعتها ! المهم خدونا عرضونا على النيابة !»
- «النيابة ؟!»
هكذا هتف قمر وهو يعتدل فى قعدته . قالت :
- «طبعاً ! مش جنانية ؟! الراجل الطيب ده قدم عقد موقع من قمر ! ومحاسن
قدمت عقد ملكية باسمها هى وقمر ! يعنى عقد الراجل ده غير قانونى !»
قاطعها قمر وقد بدا أنه ثاب إلى رشه .
- «المهم باختصار !!» .

- « بكل أسف مطلوب ضبطك وإحضارك بقرار من النيابة! »
صاح وليد فى احتجاج غاضب :
- « لكن ازاى يا قمر ماقتلناش إن الشقة باسمك أنت ومراتك ؟! »
لكزه مرسى فى عصبية :
- « ما تدقش على قمر ! خد من ده كثير ! »
ثم التفت إلى حياة :
- « حضرتك قلت إنك جايه تتفاهمى ! »
- « مفيش حل قدامنا غير التفاهم ! »
- « يعنى الراجل ده لو خد فلوسه ينتهى الإشكال ؟ »
- « طبعاً ! ونكتب محضر صلح نشهد عليه كلنا وأروح أنا وقمر والراجل
الطيب-نسلمه ويا دار ما دخلك شر ! »
بنظرة رئيس العصابة القوى الذى يثق أن أحداً لن يعارضه مهما كان ، فى
نفس الوقت بلهجة أخوية دافئة رنا مرسى خلاف إلى قمر ليسأله :
- « فاضل معاك كام من المبلغ يا قمر ؟ »
- « أقل من النص ! يمكن التلت مش فاكر »
هكذا أجاب قمر بطلق جاف وهو مطرق إلى الأرض لا يكاد يحتمل ثقل رأسه.
ران على الجميع صمت مشحون قطعه وجدى الوكيل زاعقا فى غوغائية لطيفة
وهو يقبل نحوهم كأنه يحذرهم :
- « على فكرة فيه عربية مشبوهة عمالة تروح وتيجى بره ! يظهر عليهم شاكين
فى صالح هيصه بيفتكروه متسول عاوز يعمل حاجة!! »
قال مرسى :
- « إقعد يا وجدى عايزينك ! »
قعد وجدى على قرافيصه ناظرا فيهم بحركة مسرحية :
- « وأنا متوقع وجاهز أهه ! »

قلب مرسى نظراته فيهم :

- «حد منكم يشتري نصيب قمر فى المصنع ؟ وقمر حيفضل معانه برضه بس مدير بالماهية !»

أطرقوا مفكرين لبرهة . قال وليد :

- «طب ما نوزعه على نفسنا ! ندى لقمر فلوسه وتبقى الشركة متساوية بالتلاته !»

- «وماله ! كل واحد يحط نصيبه هنا !»

وأخرج من حقيبته رزمة نقود تخينة وضعها على الأرض أمامه . رفع وجدى رأسه نحو وليد :

- «إدفع نصيبنا احنا الاتنين وتبقى نتحاسب !»

- «ماشى!!»

سحب وليد حقيبته السمسونية ذات القفل المرقم ، فتحها ، اعتراه قليل من الارتباك سرعان ما تفهمته حياة البرى سببه حينما لمحت بعض قطع حلى نادرة الشكل من الذهب المطعم بالياقوت الحر . كان وليد مدربا على التحوط فأخفى محتويات الحقيبة تحت ذراعيه وسحب مجموعة رزم من فئة العشرات رمى بها فوق فلوس مرسى . قال مرسى فى حسم وإن اتسم بشكل الأخوية :

- «هات يا قمر الفلوس اللى معاك !»

تردد قمر قليلا ، لكنه فتح حقيبته الهاندباغ وأخرج منها محفظة جلدية ، سحب منها رزمة مؤستكة مغلقة :

- «دول عشرة مفقولين!»

ومن جيب آخر فى الهاندباغ سحب رزمة أخرى مفكوكة :

- «دول ألفين وخمسمية!»

ومد يده فى جيب سترته فسحب قبضة مطوية :

- «وأدى خمسمية يبقوا تلتاشر !»

ورفع مرسى وجهه موجها للرجل نظرة متحدية :

«فلوسك كام يا حضرة ؟»

« ستة وثلاثون ألف !»

جعل يعد والرجل يعد وراءه رزمة بعد رزمة حتى كفت الفلوس وقاضت . فى الحال سحبت حياة حافظتها الجلدية ثم شرعت تكتب إيصال استلام بالمبلغ ، وورقة صلح تنازل فيها الرجل عن شكواه وأقر بفسخ العقد المبرم بينه وبين قمر . تهيأت حياة للرحيل فجعلت تستحثهم على النهوض لمرافقتها ، لكن وجدى الوكيل أصر على أكل الخروف المشوى . ومع خيوط الفجر الأولى انطلقت على الطريق الصحراوى أربع سيارات تقطر بعضها بعضا تعاكس بعضها بعضا وقطرات الندى على زجاج السيارات تنشى بأن الشمس العرقانة وشبكة الظهور خلف موكبها الضبابى المتدافع المشعث كقوران اللبن الحليب .

فرحة ما تمت

لم يعد من العسير على أى واحد من الشلة أن يعترف بأنه قد أصبح فيه شيء من صالح هيصة . فى الأول كنا نتفاكه حينما يتصرف الواحد منا تصرفا ما ثم يتضح لنا بعد أو أثناءه أنه كان صورة ممسوخة من صالح هيصة ، نتقبلها ضاحكين مهما كانت درجة المسخ ماسخة ؛ ثم صرنا نشجع من يجيء تصرفه صالحا هيصيا متقنا على نحو ما نراه فى كل من قمر المحروقى وطلعت الإمبابى من قبل . حتى حياة البرى أصبحت هى الأخرى من المنافسين الأقوياء فى تبنى الصالحية الهيصية بشغف لا يقل عن شغفها أيام كانت مفتونة بالأفكار الماركسية فى زمن الصبا الغض الغرير .

باتت حياة البرى زيونة دائمة فى غرزة حكيم ، تجيء وحدها فى العصارى ، تجلس بيننا ، أمام الربوة أو فوقها ، ببطلونها الجينز الصابك على فخذيها وعجيزتها والمثير أكثر مما لو كانت عارية تماما . باتت أيضا صالحة هيصية قلبا وقالبا تردد عباراته بشغف وحميمية ، تضحك ضحكته المتقطعة المنطلقة النبرة ، تناديه باسمه مجردا ، تودعه كما تودع الحبيبة حبيبها ، باى باى يا صلوحة ؛ فنكاد نذوب من فرط الشعور بالغبطة وربما الحسد لصالح مع أنها تنادينا جميعا بأسمائنا المجردة ، إلا أننا - ربما - كنا نفتقد فى أسمائنا على صوتها نبرة ما ، إيقاعاً شعورياً ما .

جميعاً كنا على علاقة طيبة بها . حتى أولاد الحارة كانوا يحبونها لله فى الله يتنافسون على تلبية طلباتها التى كانت فى العادة تخرعها كمبرر للإغداق عليهم من عطفها وقروشها الفضية التى لا تنفد من بكها مطلقا ، صارت أميرة على الحارة كلها : فلان يغسل السيارة ؛ فلان يغير العجلة الاحتياطى ؛ فلان يذهب ليلحمها وينفخها ، فلان يخطف رجله ليأتى لنا بفول وطعمية ساخنة من التابعى

فى باب اللوق .. إلخ إلخ . الحق أنها عوضت الشلة عن أعضائها الغائبين سيما وأن قمر المحرقى أصبح نادر المجرى بصورة لم تعد ملحوظة ، كما أن يجىء - إن جاء - فى أوقات عشوائية غريبة ، فى باكورة الصباح يوقظ حكيمًا من أحلى نومه ، فى آخر الليل والغرزة قد شطبت ، فى قيظ الظهيرة والناس روحها فى مناخيرها ، ودائمًا مستعجل متوتر يخطف العشرين أو الثلاثين فى تركيز ، منه لمن يسقيه صدّ ردّ ؛ لم يتخل عن أناقته وإن ظهرت عليه الخشونة واعتلاه الصدا أصابه الزهد فى الكلام فى الفكاهة أصبح أشبه بعسكرى الجيش - الدفعة - حين يظهر عليه الجهد والإرهاق والسهر بعد طول رفاهية . كان يترك فى الغرزة أشياء نتعرف منها عليه : فخاريات من منتجات المصنع ، حجارة جوزة مصقولة لامعة تستحق أن توضع فى فترينة ، أكواب كبيرة مرسوم عليها نقوش فرعونية ، أطباق عليها رسوم وآيات قرآنية تعلق على الحوائط ؛ يشير حكيم إليها بابتسامته المعتقلة بين شفثيه قائلًا لكل من يلقاه :

- «ما تعرفش واحد يشتغل مندوب للمصنع ؟

الأستاذ قمر بيدور ! عاوز واحد أفندى محترم

يشيل عينات ويلف يعرضها على المحلات وياخذ

عمولة كويسة ! ماتعرفوش حد يا اسيادنا ؟!»

فى جدية صادقة تعلق حياة البرى :

- «والله لو عندى وقت كنت اشتغلت الشغلة دى !»

كل رواد الغرزة وأهل الحارة كانوا متفائلين بظهور حياة البرى فى غرزة حكيم إلى جانب ابتهاجهم بوجود أنثى تحشش معهم جنبًا إلى جنب . ذلك أن يوم ظهورها فى الغرزة كان مقرونا بخبر انتظره المصريون طويلا على أحر من الجمر فشموا أنفاسهم واتسعت صدورهم وارتفعت هاماتهم بعد طول انكسار ومذلة . يوم حضورها كزبونة جاءت للتحشيش فحسب كئى واحد من هؤلاء الرجال ، كان معها جهاز مذياع فى حجم الكف تشبكه فى حزامها وتفتحه من حين لآخر تقلب

فى المحطات باهتمام ودأب كأنها تنتظر خبراً معيناً تترصده كل بضعة دقائق ؛ وأخيراً هبت واقفة تهتف بالجميع أن ينصتوا ، رفعت صوت المذياع ليتلقى الجميع أعظم خبر فى حياتهم فى العصر الحديث كله : لقد عبرت قواتنا المسلحة قناة السويس ، دمرت خط بارليف الحصين ، دحرت جحافل العدو الصهيونى ، أسرت قلوبه ، زلزلت الأرض تحت أقدام إسرائيل فى يوم الغفران . يومها كاد الجميع يحتضن حياة ويقبلها كأنها جالية النصر . ثم إن الفرحة غمرت البلاد كلها وصوب العالم كله أضواءه علينا حتى المتعاطفين مع العدو نظروا إلينا باحترام وتقدير ، مما أطال عمر نشوتنا وعمقها ..

حتى حينما انقلبت الموازين فجأة فحوصر الجيش الثالث الميدانى ؛ وبعد وقف إطلاق النار وخطاب السادات فى مجلس الشعب كانت الجماهير لا تزال تمارس الفرح الذى حرمت منه سنوات طويلة ؛ وبعد أن كانوا يكون أبناءهم المفقودين فى صحراء سيناء إبان الهزيمة الستينية المروعة وأبناءهم المستمر تجنيدهم طوال حرب الاستنزاف أصبحوا يتفاخرون باعتبارهم جميعاً من أصحاب الأوسمة . وصحيح أن حرارة النصر ما لبثت حتى بردت وتتلجت ، والفرحة تعكرت بالثغرة ومحاولات فض الاشتباك ، إلا أن شعوراً جديداً قد طرأ علينا ، بموجبه تأكدنا من إمكانية إعادة اكتشاف العرب كقوة جبارة إذا هى أخلصت لنفسها . على أن حياة البرى كان لها رأى فى مسألة إعادة اكتشاف العرب كقوة جبارة تملك الطاقة والمياه والأرض الخصيبة والمعالم السياحية النادرة والمعادن المخبأة فى جوفها إلى يوم معلوم لا يعلمه سوى العدو الأذى الذى يقبض دائماً على مصائرنا. من رأيها أن هذا الاكتشاف المزعوم لن يتم مطلقاً طالما بقى العرب مصابين بداء السلطة وعشق المريسة والإمارة ، سيظلوا أبد الدهر يعيشون فى ركاب القوى الخارجية التى تمكن كل قرصان فىنا من الإمارة وما أكثر القراصنة المستعدين للتسلطن حتى وإن وعوا بأنهم مجرد خفراء وأدوات قمع لشعوبهم .

سرعان ما نسينا حرب أكتوبر التي باتت بدورها مجلبة للغم والنكد أكثر من هزيمة يونيو ؛ بل أصبحنا جميعا نترحم على أيام الهزيمة فى ظل هذا الانقلاب الذى حدث فى الأسعار إضافة إلى ندرة السلع إلى حد الانعدام . كان الحشيش مزاجا شعبيا صرفا ، يدفع فيه الناس توتراتهم ليتمكنوا من احتمال المرات وتدبير لقمة العيش فى أمان الله ، ارتفعت أسعاره فجأة مع ارتفاع سعر البترول كأنه فرع من فروع الطاقة يجرى عليه ما يجرى عليها ؛ مع ارتفاع سعر الدولار الأمريكى وقلة قيمة الجنيه المصرى إلى حد أنه بات هزأة بين أوراق العملة قاطبة ؛ قيل لأن تجار المخدرات يحتاجون لكميات كبيرة من الدولار الأمريكى لاستيراد الحشيش والأفيون . مع ذلك لم يكف الناس عن التحشيش ليل نهار ؛ لكنهم اقتصدوا فى نفقات الحريق يعنى فى مصاريف الغرز ، ندرت الزبائن سيما وأن الغرز هى الأخرى رفعت سعر حجر المعسل من خمسة مليمات إلى خمسين مليما يعنى من كان يشرب عشرة حجارة بشلن واحد أصبح يشرب به حجراً واحداً .

صفصفت غرزة حكيم على نخبة قليلة جدا من الصفوة راق لها الجو فارفعت بها أسعار الخدمة أضعافا مضاعفة . انقطع الشاعر فاروق الجمل عن المجيء . تحرينا السبب فأتانا صالح هيصة بالخبر اليقين : إن الشاعر قد تعرف فى نادى الإذاعة على ممثلة محدودة الموهبة غير مشهورة وإن كانت قديمة بعض الشيء ومعروفة لبعض جمهور مسرح اسماعيل يس حيث تلعب فى مسرحياته بعض أدوار ثانوية إلا أنها تمثل كثيرا جدا فى تمثيليات الإذاعة لأنها متفاهمة مع المفاتيح ؛ قيل وما المفاتيح يا صالح ؛ قال إنهم من الممثلين العاطلين من الموهبة يأنس إليهم المخرجون فيكلفونهم بجمع الرشوة لهم من زملائهم الممثلين ، السهرة بكذا والمسلسل بكذا ، وشغل الإذاعة يدر دخلا يوميا فوريا كثيرا ، الممثلة عزمت الشاعر على سهرة فى شقتها فطرح شبابكه عليها ، رأى أنها على مشارف الأربعين من عمرها تعانى من الوحدة والفراغ العاطفى فتطوع بتقديم نفسه ليملأ

هذا الفراغ ، عرض عليها الزواج فوافقت فى الحال ، فانتقلت ليعيش معها فى شقتها بجذائق القبة ، حيث أقامت له فيها غرزة صغيرة خاصة يستضيف فيها من يشاء من خلائه المقربين ، سيما وأنها هى الأخرى حشاشة قرارية تصرف على الحشيش أكثر مما تصرف على أكلها وشربها ؛ أصبحت هى تنفق على الشاعر ببذخ شاهده صالح بعينه حينما جاءت ذات يوم فى صحبته لتشتري ربع أوقية حشيش بحاله وتتبضع من زجاجات العرقى والمزة واللحوم والفاكهة يوصلها بها صالح إلى سيارتها ماركة رمسيس شغل مصر .

سرعان ما اندفن هذا النبأ مع صاحبه فى طوايا النسيان كأنه من الأشياء التى لا نحب أن نتذكرها ؛ أو لعلنا قد ولينا وجوهنا نحو شئ جديد راح يستلفت أنظارنا ؛ تلك هى العلاقة التى جعلت تنمو نموا مطردا بين حياة البرى والممثل زكى حامد . ولما لم يكن قد بقى من الحرس القديم سوانا : زكى حامد وإبراهيم القماح وأنا فإننا تلقائيا صرنا نحسب حكيم وصالح هيصة وصابر العسال ضمن أعضاء الشلة ، على الأقل بحكم العشرة القديمة التى من شأنها إزالة الفوارق الصناعية بين البشر ، حيث أصبح الحديث يدور بيننا فى ندية إنسانية . وهكذا اتفق رأينا جميعا على أن زكى حامد استخدم عينيه القويتين ببريقهما الحاد النفاذ المشع فى الإيقاع بحياة البرى واستمالتها إليه بشكل واضح تمام الوضوح أصبحا يأتیان إلى الغرزة معا ، ينصرفان معا ، كثيرا ما تؤجل انصرافها ريثما ينتهى زكى من مراجعة دور له فى «أسكرت» إذاعى سيسجله فى الساعة المقبلة لى توصله بسيارتها إلى ماسبيرو . ولقد فوجئت ذات مساء وأنا جالس فى استراحة الطابق الرابع بمبنى ماسبيرو فى انتظار قدوم موظفى إدارة وحدة الصرف الفورى الخاصة بالفترة المسائية لأصرف إذناً بات معنى من الأمس لا يجوز صرفه إلا من الوحدة المسائية ، فوجئت بفتاة غاية فى الرشاقة والأنوثة تمشى فى كبرياء وبسطة كأنها ذاهبة للاشتراك فى مسابقة ملكة جمال الكون واثقة من الفوز لا محالة . لويت عنقى نحوها لأتمعن فى وجهها الخلفى بعد أن

أدارنى وجهها الأمامى فكنت أقع مغشيا علىّ . من فرط التناسق الهندسى الإلهى البديع فى تكوين الوجهين مثل كفتى ميزان متوازنتين . ثم فوجئت بأن هذه الغادة الهيفاء تحيينى من بعيد ملوحة لى بذراعها البضة ؛ رقص قلبى لهذه المبادرة الهنية ، قررت اللحاق بها للتعرف عليها جيدا ؛ لكنها ما لبثت حتى ارتدت عائدة من الممر الموصل لاستديورقم ثمانية وثلاثين ، ثم اقتربت منى مائة يدها لتصافحنى ؛ فإذا بى اكتشف أنها حياة البرى . جلسنا فى الاستراحة ، قدمت لى سيجارة ، بسبست بشفتيها لعامل البوفيه المار من بعيد ، فأنى ، طلبت قهوتين منضبطتين . قبل أن أترجم فضولى إلى كلمات قالت هى إنها فى انتظار زكى حامد حتى ينتهى من التسجيل فى الاستديو الثامن والثلاثين مع المخرج يوسف الحطاب فى برنامج أحسن القصص، ذلك لأنها - تقول - ستسهر الليلة مع زكى على عشاء عمل فى مكان عام إذ إنها اتفقت مع إذاعة البرنامج الثانى على أن تترجم لها مسرحية «مشهد من الجسر» للمؤلف الأمريكى المعاصر آرثر ميللر لكى يخرجها الحطاب ويمثل زكى حامد بطولتها ؛ ثم ردت على ما كتبت أود أن أسأله فقالت إنها استلهمت فكرة ترجمة هذه المسرحية بالذات من وجه زكى حامد لشدة التشابه الكبير بينه وبين وجه بطل المسرحية ثم ما لبثت حتى اكتشفت وجود تشابه أقوى بين موقفيهما فى الحياة لدرجة أنها دهشت من قدرة آرثر ميللر على النفاذ إلى هذه النوعية من الشخصيات النائية النبيلة المطحونة بين تروس ماكينات العصر الصناعى الرأسمالى القاسى . الحق أننى شخصيا سعدت بفكرة أن تترجم حياة البرى مسرحيات البرنامج الثانى والفرق المسرحية والنشر كذلك لأنها فى الواقع أفضل بكثير جدا من محترفين لا يملكون احساس حياة البرى باللغة بمختلف أبجدياتها . إلا أن الإعجاب البازغ فى عينيها بشخصية زكى حامد يشى بأنه أكثر من مجرد إعجاب ، وبأن العلاقة بينهما دخلت فى طور الحب الصريح بشكل جعلنى أهتم بينى وبين نفسى بمصيره - الحب يعنى - اهتماما لا يوازيه إلا اهتمامى بمعرفة الأسباب الجوهرية التى أدت إلى قيامه على هذا النحو

القوى فى زمن قياسى لا يتناسب وحكمة حياة البرى وتعقلها : ماذا فى شخصية زكى حامد يفتن حياة البرى صعبة المراس ناضجة العواطف ؟!

صابر العسال له ابن خالة من إحدى قرى الشرقية اسمه عبدالودود وهو اسم على مسمى إذ هو حقا ودود ؛ تخرج فى كلية الحقوق منذ بضع سنوات ويعمل محاميا تحت التمرين فى مكتب الأستاذ عبدالعزيز الشوربجى ؛ هو طيب القلب جدا ، متواضع النفس والمظهر ، لا يستكف من الموافقة على قول صابر حينما يقدمه لنا بأن الأستاذ ابن خالته ، لا يأنف من تبادل العطف والود الحميم الخاص مع صابر كابن خالة بالفعل. كان لبقا ، غير مقتحم ، لا يتطفل على قعدتنا وإن شارك فيها من بعيد لبعيد . ذات يوم فوجئ بزكى حامد جالسا بيننا ، فتهلل وجهاهما معا ، واندفعا نحو بعضهما بالأحضان بالقبلات بالسلامات الحارة ، ويا سلام على الأيام شوف الدنيا صغيرة ازاي ؟ وأخبارك إيه وعامل إيه .. الخ . علمنا أن عبدالودود زميل طفولة لزكى حامد ، إنهما مولودان فى بيت واحد وعلى يد داية واحدة فى حارة فى القرية وقد رضع أحدهما من أم الآخر ، وتزاملا فى مدرسة واحدة من أولى حضانة إلى التوجيهية - الثانوية العامة - ثم فرقت بينهما الأيام طوال تلك السنوات الغابرة . لقد سعد زكى برؤية عبدالودود فعلا ، فضحكا معا حتى النخاع ضحكا هستيريا نابعا من ذكريات مشتركة ؛ وقد لاحظ عبدالودود ضاحكا أن وجه زكى لم يتغير مذ كان طفلا حيث كان إذا انفعل - فرحا أو غضبا - يلمع فى وجهه الأسمر معلمان بارزان : عيناه وأسنانه ؛ العينان يبدوان كفتحتين خلفتهما شريحتان منزوعتان من شيش شبك مدهون باللون الرمادى الغامق يطل منهما ضوء مموه بالظلمة يصبغ بشرة الوجه بالسلقون اللامع .

طفولة زكى حامد - طبقا لرواية عبدالودود - كانت شقية مؤلة . أمه كانت صبية فى الثانية عشرة من عمرها يوم تزوجت من تاجر مانيفاتورة يدعى حامد نبيه الدهشان، ينحدر من عائلة ذات أصول بدوية، كان شريكا لإخوته الكثر فى

محلات كبيرة لبيع الأقمشة فى مدينة الزقازيق ويدير فرعاً لها فى قريتهم صال الحجر . كان فى الأربعين من عمره ؛ طويل عريض بصحة جيدة؛ كريم معطاء يعيشق السهر والمواويل وصنع المزامير من البوص على مختلف أحجامها من الأرغول المتعدد القصبات والعقالات إلى المقرودة ذات القصبه الواحدة ومن الناي إلى السلامية ؛ حينما تقدم للزواج من هانم صغرى بنات الحاج خليفة الفرماوى شيخ خفراء البلد رحبوا به فلم يلتفتوا لفارق السن الكبير بينه وبين البنية سيما وأنه دفع مهراً كبيراً يليق بأجمل صبايا القرية . قيل إن الحاج خليفة الفرماوى كان متأكداً أن ابنته هانم تحب حامد الدهشان وترضى به زوجاً أبدياً . وصحيح أنها كانت تعتبر طفلة لكنها كانت ناضجة وذكية وتفهم أن حامد الدهشان رجل ولا كل الرجال . بعد شهر واحد حملت منه فى زكى ، الذى فرح به أبوه يوم مولده فرحاً عارماً ونذر لينفقن عليه فى التعليم حتى أعلى الشهادات ؛ لكنه مع الأسف مات قبل أن يكمل ابنه عامه الثانى ؛ حيث أصيب بوجع فى كتفه الأيسر ظل يصرخ منه طول الليل فما إن طلع الصباح ونقلوه إلى مستشفى البندر بالركاب حتى لفظ أنفاسه فى ذبحة صدرية حادة .

هانم أمه كانت أشجع من الرجال . عمرها آنذاك لم يصل بعد إلى الخامس عشر ، يعنى لا تزال طفلة رغم أنها أصبحت أما ؛ فما هان عليها أن تنتقل بطفلها إلى فراش رجل آخر بعد الذى أحبته . ولكن بعد سنة من رحيله بدأ أهلها يلحون عليها أن تلحق بنفسها قبل أن يفوتها القطار لأنها لا يصح أن تقضى العمر أرملة وهى فى عز الصبا ؛ إلا أنها أصرت على البقاء أرملة حتى تربي ابنها بعيداً عن زوج الأم أو زوجة العم ؛ فطالما أن أشقاء زوجها يرسلون إليها نفقة ابنهم بانتظام وبوفرة ويطلعونها باستمرار على ما يدخرونه له من نصيب أبيه فى الأرباح فما الذى يقلقها ؟ إلا أنها مع الأسف لم تقو على الصمود أكثر من أربع ، من أربع سنوات شافت فيها العجب ؛ كانت أشبه بالمعروضة فى مزاد علنى يتسابق إليه ويتنافس عليها أولاد السوق بالمزايدات المتصاعدة فيما هى معرضة عنهم جميعاً

إلى أن جاءها السعد كله فى أحد الأثرياء الكبار من قرية مجاورة كتب باسمها بضعة أفدنة وابتنى لها سراية مستقلة لأنها كانت فى الواقع تنطوى على جاذبية خارقة . ضُغَطَ عليها أهلها وأهل ابنها ، كلا الأهلين يخشى عليها الفتنة رغم وثوقها وتوقهم من عفتها ورجاحة عقلها . وافقت على الزواج ؛ انتقلت فى زفة مهيبة إلى سرايتها الخاصة فى عصمة زوجها الجديد . أما زكى فقد تسلمه أهله ، عهدوا به إلى جدته أم أبيه التى كانت برغم بلوغها الثمانين من عمرها قوية متماسكة قادرة على العطاء الأموى المكثف . ولأن أمه أصبحت فى بلد آخر بعيد ، داخل دائرة مغلقة ونمط حياة تختلف كثيرا عن الجو الذى يعيش هو فيه فإن الصلة بينهما قد انقطعت إلا من سلامات وأشواق ومرسلة ولقائات خاطفة فى مناسبات متباعدة . حنان الأم الذى افتقده زكى عوضته جدته ، إلا أن شيئا ما فى حياته ظل غائبا ؛ شيئا لا يديره على وجه التحديد كان غيابه عن حياته يرسخ فى قاع صدره جبال الكآبة والشعور القاتل بالوحدة رغم وجوده وسط عدد كبير من أبناء أعمامه المقاربين معه فى العمر يعيشون جميعهم فى دار واحدة فى نفس القرية فيما عدا جده الكبير يعيش فى الزقازيق مع ولديه الكبيرين والقرييين منه فى العمر أنجبهما صغيرا من أم سابقة رحلت فى زمن مبكر . ومن حين لآخر كان زكى يقوم بزيارة جدته لأمه وأحيانا يبيت عندها خميسا وجمعة لكنه مع ذلك كان دائم الشكوى لعبد الودود من الشعور بالوحدة ، فهو إذا نجح فى المدرسة لا يجد من يفرح له ، مبروك ، مجرد كلمة تلقى إليه على عجل سرعان ما ينتهى صداها قبل اكتمال نطقها من عمه جدته ، عمته ، أحد أبناء عمه ، وإذا جاءه ملحق لا يجد من يواسيه بل قد تمضى الشهور دون أن يعنى أحدهم بمعرفة ما إذا كان قد نجح أو رسب أو فى أى عام دراسى هو ، بله أن يسأله أحد عما به أو ماذا يشغله ؛ هو فى الدار مجرد فرد يأكل ويشرب ويكتسى ويأخذ مصروفا كما يشاء لكنه وحيد ، غريب ، كما أن حضن جدته العجوز الهماء بات يعمق فى صدره الشعور بالكآبة ..

فى أعماقه كان واثقا من أحقية أمه فى الزواج ، يعلم أنه من الظلم أن يفرض عليها الانقطاع له وحده فتصير مضغة فى الأفواه مما قد ينكد عليه عيشه، إلا أنه فى نفس الوقت كان حاقدا عليها ليس لشخصها بل باعتبارها رمزا لانعدام العدل فى هذا الكون ، للتخلى والانسحاب وتفضيل النفس على فلذة الكبد؛ فهو تارة يلعننها وتارة يطلق فيها قصائد المدح والثناء والتقدير . يا طالما تحدث مع عبدالودود وهما يذاكران معا فى الدراسة الثانوية عن طبيعة المرأة كشئ غامض بالنسبة له يعجز عن تفسيره وكثيرا ما كان الحوار بينهما فى اللحظات المختلسة يخضوضر يتفرع إلى حديث عن غدر الزمان وسلطان المال وانفساح الطريق دائما للأندال والأشرار يتحكمون فى مصائر الشرفاء والمساكين .

ورث زكى عن أمه جاذبيتها القوية وأشعاع عينيها المليئتين بحزن عميق بهيج شفاف فى أن ، وشفافية بشرتها البيضاء المشربة بالاحمرار كاللبن الحليب مضافا إليه مسحوق القرفة ، تتفاعل تحت هذه البشرة فتعطيها لون الكاكاو ، لدرجة أنك تحار فى لون بشرة زكى حامد هل هو أبيض أم أسمر أم برونزى أم رمادى . وورث عن أبيه ذكاه الحاد ، العملى ، والقلب الحامى . وعن قبيلته البدوية المصرية ورث الاندفاع فى الحق، والحدة فى الدفاع عن شرف القبيلة - حل محلها الوطن - والإسراع بغوث المستغيث ، والايثار أحيانا ؛ لكن تكوينه النفسى والاجتماعى أورثته الكثير من من التناقضات المحيرة ؛ فأنت فى لحظة ما قد تعتقد اعتقادا جازما بأنه نواة رجل عظيم فذ متفرد ؛ وفى لحظة أخرى قد يداخلك اليقين بأنه خسيس غدار لا يعرف إلا مصلحته فحسب . لقد اختلفت فيه الآراء وتضاربت لكنه مع ذلك حظى بحب جميع من عرفه بشكل لافت للنظر ، لدرجة أن أقرانه ربما اشبعوه اغتيابا ووصفوه بأشنع الأوصاف وألصقوا به كل الموبقات ولكنهم ما إن يروه حتى تشرق وجوههم يأخذونه بالأحضان لا يتورعون عن انفاق آخر قرش معهم على مرضاته ، وإن غاب سألوا عنه باهتمام ، لهذا كان طوال سنوات التلمذة فى المدرسة الثانوية أشبه بنجم صغير فى محيط ضيق ؛

دائماً تراه فى كل مصييبة كل فرح كل مظاهرة كل لعبة حتى جميع الجمعيات الطلابية كان عضوا بارزا فيها من الخطابة إلى التمثيل إلى الصحافة إلى الكشافة ؛ دائما أبدا هو المحور ، هو الألفة، هو المتكلم هو المتصدر لكل شئ حتى ولو كان خطيرا يهدد مستقبله .

الولد - يقول عبدالودود - كان شعلة نشاط غير عادى ، ربما بحجم ما فيه من قلق وعدم استكانة ؛ يفضل قضاء وقت فراغه فى غرزة حشيش على أن يقضى ساعة واحدة فى محلات أهله ، يكون فى قمة السعادة حين يتعرف على ناس جدد، على مناطق وعرة فى المدينة ؛ البحث عن مغامرة جديدة يشغله باستمرار . ما إن حصل على الثانوية العامة حتى جهز أوراقه وسافر إلى القاهرة ليلتحق بمعهد الفنون المسرحية . ثم علمت القرية بقبوله فى المعهد . وصحيح أن أهله قد عجبوا من اختياره واستنكروه حيث كان جده يأمل فى استقطابه للعمل فى المحلات ، إلا أنهم سلموا باختياره ، وكانت أنباء نجاحه المستمر تبلغ عبدالودود وتفرحه ؛ ثم اتسع نطاق أخباره فأصبح يقرأها فى الصحف ، ويسمع اسمه فى الإذاعة ، وكان يتمنى أن يراه ؛ ولقد صدق المثل حقاً: مصير الحى يتلاقى ولو بعد عمر طويل .

سيرة زكى حامد هذه أصبحت ماثلة شاخصة ونحن نرقب نمو العلاقة بين حياة البرى وبينه إلى هذا الحد المتطور حتى أصبح كل منهما يتحدث نيابة عن الآخر فى غيبته. ورغم توقعاتنا لما يمكن أن يحدث من تطور بل واستعدادنا لتقبله فإن الخبر قد دهمنا بقوة أدارت رعوسنا يوم دعينا جميعا إلى قاعة ألف ليلة وليلة فى فندق هيلتون النيل المتاخم لحى معروف بحيث يستطيع السائح من غرفته فى الطابق العلوى رؤية حى معروف بكامله مثل قرحة كبيرة فى معدة المدينة المريضة بعسر الهضم تتقيأ سكانها باستمرار إما إلى القبور المزدهمة بالأحياء أو إلى الشوارع المتخمة بالأموات يمشون على الأقدام ويثيرون الجلبة الكاتمة للأنفاس: بيوت متهدمة وأخرى شائخة وآيلة للسقوط تبرقشها طشوت الغسيل والكلاب

والدواجن والورش والغرز والأعشاش والتحويطات وجبال القانزوات العفنة النتنة .
من هذه العشش خرجنا كويضان طردتها الدامل المنفوخة بالقيح ؛ خرمننا من
سرداب أم يحيى ، إلى شارع الانتيكخانة فميدان عبدالمنعم رياض . ثم تقافزنا
كالقروء أمام السيارات ونحن نعبر الطريق إلى مبنى المتحف المصرى ونحود مع
جداره لتصيينا قشعريرة التقزز من شبح مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى
تزايلنا بمجرد عبور حارتها إلى مبنى الهيلتون .

الدعوة التى تلقيناها كانت للاحتفال بدخلة حياة البرى على الممثل زكى حامد
وسط جمع غفير فوجئنا بارتفاع مستواه بصورة سخفتنا تحتها : وفود من
الأمريكان والانجليز والفرنسيين والسوفييت والitalية ، لفيف كبير من كبار
الفنانين من مختلف المجالات ، وكلاء وزارات ومديرو محطات اذاعية ومقدمو برامج
تليفزيونية ، صحفيون وكتاب ومترجمون ، مطربون ورقصات ملء السمع والبصر
تطوعوا بالغناء والرقص والتهريج ، أما العروسان فلم يكونا هما على الإطلاق ،
بحثنا فى وجهيهما عن ملامح زكى حامد وحياة البرى فلم نجد أى ملمح يمت
اليهما بصلة إنما عرفناهما باليوم من خلال بعض الإيماءات وظلال الحركات
الخاصة بكل منهما .

أثناء عودتنا من الحفل بعد منتصف الليل بدا أننا غير قانعين بما نلناه من
بعض كثؤس الويسكى والبيرة وشرائح اللحم ، فاتجهنا تلقائيا إلى موطن المزاج
الحق فى معروف . دهمتنا كآبة الغرزة بعد الأضواء الصاخبة ، تحسسنا الكراسى
فى ظلمة الحارة تحت الربوة ورأينا أن نوقع حجرا بحجر ، ثم رحنا نشرب فى
صمت عميق . أخيرا قال عبدالودود انه الليلة اكتشف شيئا خطيرا جدا جدا هو أن
الشبه بين حياة البرى وهانم أم زكى حامد قوى إن لم يكن متطابقا وانه لمتشائم
من هذا الاكتشاف لأن أقل ما ينبئ به أن الزواج لن يكون ناجحا . قلت لعبد
الودود: هل ترى أنه سيحاكم أمه فى شخص حياة مثلا ومن أجل هذا الدافع
الخفى تزوجها ؟! قال عبدالودود كأنه يقرر بديهية ؛ بل ليستردها فحسب ! هو

الآن فى قمة السعادة لأنه قد استرد أمه التى سلبت منه فى طفولته فسلبت طفولته ! ولكن السؤال الآن : حتى متى ستستمر هذه الفرحة ؟ الله وحده أعلم .

الحق لقد استرحت لتحليل عبدالودود ، أوشكت على اعتناقه ؛ وبدا كأن إبراهيم القماح قد توصل هو الآخر إلى تحليل خاص به ، ثم بدا كأننا معا اتفقنا سرا على عدم فتح هذا الموضوع كلما التقينا ؛ كنا نقضى الساعات الطوال فى صمت وروقان يتخلله صوت كركرة الجوزة وشد الأنفاس ، وقد نرفع رأسنا فجأة فلتلقى العينان بالعينين فنندمج فى ضحك عميق بلا صوت على الإطلاق كأننا ننفض جسدنا فى الأرض بقوة ؛ ثم نزفر زفرة ذات معنى ويغطس كل منا فى بثره الخاص . ثم فوجئت ذات عصرية بزكى حامد يمر على الغرزة بعد انقطاع طويل جدا تحول خلاله إلى صفحة من تراث الغرزة يحولنا أن نتصفحها من حين لآخر فى زهو وغبطة ثم نطويها قائلين : ربنا يسهل له . كان قد دخل بالفعل فى طور النجومية حيث لعب بطولة مسلسل تليفزيونى حظى بقبول جماهيرى ملحوظ فافتتح له طريق البطولات فى المسرح والتلفزيون، عصريتنا كان ذاهبا إلى استديو جلال للمشاركة فى دبلجة فيلم روسى - لعله هاملت الروسى - إذ إن المخرج المصرى اختار زكى ليطلع صوته بالعربية على صوت ممثل هاملت الروسى . لاحظت أنه يرتدى فائلة من القطن بنصف كم بدون ياقة ، صورة طبق الأصل من الفائلة التى نرتديها تحت ثيابنا لكنها تتسم بالأناقة فوق بنطلون من الصوف الرمادى الخفيف ؛ جسده امتلأ بعد الزواج ، اكتنزت ملامحه ، غرز شعره فتركه مهوشا ؛ وفيما هو يلتفت ليمسك ببوصة الجوزة رأيت جانب وجهه حيث اختفى الفك فى العنق الممتلىء ، فتملكتنى رعدة خفية حيث بدا لى لحظتنا صورة طبق الأصل من صالح هيصة . ها هما معا فى المواجهة ؛ أقسم بالله أن لا فرق بينهما سوى فى شكليات طفيفة كيباض الشعر عند صالح ونظافة الملابس عند زكى ، فيما عدا ذلك فإنهما - فيما بدا لى - جوهر واحد فى صوت واحد على لهجة واحدة، بمفردات واحدة، إن زكى الذى كان فيما مضى مغرما بتقليد

صالح هيصة أصبح الآن أكثر إتقاناً من صالح هيصة نفسه بطبيعة الحال حيث براعة التقليد على أرض من الموهبة الكبيرة استشفت الجوهر تقمصته أو تقمصها ليس ثمة من فرق ، صار النموذج أكثر بهاء ولعانا من الأصل تماماً كالتمثال المنحوت لسعد زغلول مثلاً بأزميل المثال مختار حتى يبدو أكثر غنى وجاذبية من سعد زغلول نفسه . صارت الابتسامة الشقية ترف على شفתי رفيف خاطر الخبيت الذى راح يناوشنى ليدخل فى روعى أن حياة البرى قد تزوجت فى حقيقة الأمر صالح هيصة . على أن زكى حامد اعتاد - من جديد - أن يمر على الغرزة من حين لآخر ، لا ليخطف مزاجاً سريعاً يستعين به على تصوير أو عرض مسرحى ، فحسب ، بل ليمتع نفسه ويمتعا معه بمنظر الأطفال وهم يتحلقونه ويتسابقون لمصافحته يداً بيد ، ويتميز الخدمة التى سنحصل عليها إكراماً لخاطره .

البركان

مثلما فاجأنا الهزيمة الكافرة فى العام السابع والستين ؛ ومثلما داهمنا - على غير توقع أيضا - خبر انتصارنا الساحق على العدو الصهيونى فى العام الثالث والسبعين ؛ ومثلما داهمنا خبر الثغرة ، وحصار الجيش الثالث الميدانى ، وخبر وقف إطلاق النار .. داهمنا كذلك - وعلى غير توقع على الإطلاق - خبر زيارة الرئيس السادات الى القدس لتقديم النوايا الطيبة لقادة اسرائيل إثباتا لجديته فى اعتزامه إجراء صلح بيننا وبينهم .

السكين سرقتنا لوقت طويل ، كنا نظن خلاله أن الرئيس السادات يمزح بنكتة مصرية متطرفة ، ثم داخلنا الاعتقاد بأنه يناور لغرض فى نفسه لاشك سينقذنا من الورطة ، يفك حصار الجيش الواقع بين فكى الكماشة ؛ لكننا فوجئنا بأن الأمر واقع شاخص نراه فى التلفزيون عيانا بيانا .. ها هو ذا الرئيس السادات يأخذ أعداءنا ويأخذونه بالأحضان ، يجلس مع بيجين وشارون وديان وجولدا مائير على مائدة واحدة فى ديارهم المنتزعة منا عنوة واستقدارا ..

صالح هيصة يشير إلى بعض الصحفيين المعروفين صائحا فى ضحك يختلف تمام الاختلاف عن ضحكه المبهج الصافى المنطلق ، إنما هو ضحك يتكىء على إيقاعات التوتر البركانى المزلزل بعنف ؛ يصيح :

- «هاها هاى ! واخذ معاه الهيصة كلها ! كل واحد من دول فى هيصة ! عامل الهيصة ! عشان يلحق الهيصة اللى حيشتروها بدم عيالنا ! يلا يا كحيانين يا ولاد الوسخة ! بتتصبوا علينا بقى لكم خمسة وعشرين سنة باسم الثورة وتحرير الأرض وقضية فلسطين !! هاها هاى ! إل .. ح .. ق ! فاكرينا مصدقين!! إل .. حق ! طب نصدق الحرب اللى حصلت دى كلها ازاي ؟! إل .. حاق ! ولاد الناس ماتوا أو نطه ف أونطه عشان شوية مجانيين كراسى يفضلوا على الكراسى ؟ هاؤها .. إلحق !!»

فى غمرة انفعاله رمى الحجارة ونط خارجا . كان واضحا أن مسا من الجنون قد أصابه ؛ بعد تخطيه عتبة الغرزة ارتد عائدا ، لكز حكيم فى كتفه :

« هات نص جنية بسرعة ! »

لم يتردد حكيم ، كبش من سيالته حفنة برايز ورقية جمع منها خمسة سلمها له ؛ فأخذها وهرول خارجا .

ليلتذاك تجمعت الشلة بصدفه عجيبة بعد طول شتات ، ولكن يبدو أن خبر الزيارة الفعلية ونقلها مباشرة على الهواء ليراها العالم أجمع كان قد رفع درجة حرارة البركان الجماهيرى فبدأت تفجراته السلمية تجد لها متففسا فى الأرض الرخوة ؛ هجّ الناس من بيوتهم إلى الشوارع والمقاهى ولم يبق فى البيوت إلا عدد محدود ممن يملكون أجهزة بث تليفزيونى . التأم شمل الشلة ، باستثناء طلعت الإمبابى ومصطفى لمعى لسفرهما تواجد قمر المحروقى وإبراهيم القماح وفاروق الجمل وزكى حامد وعبد الودود ومرسى خلاف ووجدى الوكيل ووليد رشيد . التليفزيون الباي ١٧ بوصة أبيض وأسود - الذى كنا نتفرج عليه - أتى به زكى حامد من سيارته الفيات ١٣٢ التى اشتراها مؤخرا من لاعب كرة شهير بألفى جنيه : قال إنه كان يتربح انتقال الإرسال الى القدس فرأى أنه لن يحتفل رؤية هذا المشهد المخزى إلا بين صحابه ومع التحشيش بعمق لعله يهدىء ثائرة بركان يتقلب فى جوفه منذ الصباح ؛ ثم أردف بلهجة خطيرة ينتقد بها نفسه وينتقدنا :

« مصيرنا كله بيتغير اللحظة دى واحنا قاعدين نحشش !! »

فشوح إبراهيم القماح قائلا إن المسألة كلها من أول قيام الثورة إلى هذه اللحظة مجرد تحشيشة كبيرة فى أمسية مواتية طولها ربع قرن من الزمان . فعلق حكيم :

« مغبوط يا بو خليل ! الرئيس السادات باسط الشعب من الناحية دى على

الآخر ! حشيش للركب فى حته ! أنا مش فاهم انتو زعلانين منه ليه ؟ ! المثل بيقول ! الإيد اللى متقدرش تقطعها بوسها !! وده لا سمح الله مش رايح ييوس

أيادي ! بالعكس ! الراجل ده معلم دقرم ! قرصهم قرصة طلعت بالدم ! وراح لهم مالى مركزه يقول لهم أنا أهه عايزين تصطلحوا أهلا وسهلا مش عايزين حيبقى كل يوم من ده !!

وبعدين احنا مصريين دمننا زفر ما يتاكلش !!

وغطس دماغه بين كتفيه وهو يحبس الابتسامة بين شدقيه فبدأ كأنه يعصرها فى حلقة ، وبدأ عليه الإحباط لأن كلامه لم يبدد شيئا من الكآبة التى استوطنت جميع ملامحنا فكأننا فى ماتم حار ؛ لكن حكيم انتفض فجأة واقفا كان قطعة نار سقطت فى حجره ؛ ثم ألقى مشيرا بذراعه المعروقة إلى شاشة التلفزيون صائحا فى ذهول :

- «أهه ! أهه ! فاكرك يا أستاذ قمر ؟ يا ابراهيم ؟ الواد وجيه فرحان ! الشاعر الكحيان اللى كان قارفنا فى عيشتنا وابراهيم كان بيدفع له بقية الحساب!

آه يا بتن يا ابن النتن ! قال بيقولوا من بلد يوسف عتريس الصحافى ! آخر مرة كرشته هو والبنت السنكوحة بتاعته !»

- كانت عدسات التصوير قد ركزت على موكب الرئيس السادات لحظة استقباله والتفتت وجه وجيه فرحان فيما هو ينادى على أصدقائه المصريين المصاحبين لموكب الرئيس ، يأخذ الإذاعى على فايق زغلول بالأحضان ، ويصافح الصحفيين والمذيعين بحرارة تنضج حميمية صادقة . جمدنا الذهول ، أعيننا جميعا جوفها الغباء فبدت محض ثقوب يفح منها الظلام . المرجح أن كل واحد فينا يقلب الآن فى محتوياته الداخلية ليعرف ماذا دار ذات يوم بينه وبين هذا الوجيه فرحان الذى يستقبل الوفد المصرى المصاحب للرئيس السادات باعتباره أحد ألمع الإعلاميين الإسرائيليين . أصابنا الدوار العنيف أنا شخصا حاولت جاهداً أن أتذكر آخر مرة رأيته فيها منذ سنوات طويلة فاختلط على الأمر بين مرة كانت فى مكتب الإذاعى على فايق زغلول يتفق على كتابة فواصل زجلية تربط بين فقرات برنامج

مسرح المنوعات الذى يسجل فى مسرح بحضور جمهور ، ومرة فى مكتب الإذاعى
الأزهرى يحتال عليه بابتسامته المداهنة لكى يسلفه جنيها على ذمة برنامج
سيسجله بعد غد لإذاعة ركن السودانى والدليل على صدق كلامه أن مأمون النجار
جالس قبالة إيهاب وها هو يومىء برأسه لإيهاب أنه سيسجل بالفعل ؛ لا أدري أى
المرتين كانت هى الأخيرة ؛ لكننى عجبت جدا كيف أننى لم أتذكره طوال هذه
السنين المنصرمة على الإطلاق ؟! لا ولم يتذكره أحد من الشلة مطلقا حيث
انقطعت سيرته بانقطاعه المفاجيء عن المجيء . نظرت فيمن حولي ببلاهة :

- «إيه تفسيركم لده ؟!»

قال فاروق الجمل :

- « لو كان طلعت هنا كان قال : مالهاش إلتفسير واحد : الولد ده إسرائيلى!
والموساد زرع فى مصر عشان يتجسس على الوسط الثقافى والسياسى من قلب
الإذاعة ! يستغلنا كلنا وينقل أخطر المعلومات !!»
ضحك قمر المحروقى فصار حنكه كحنكه التمساح :

- «وجيه فرحان مصرى ! أنا أعرف أهله وناسه كلهم فى بلدهم ! وله عم ف
مصر عتيقة على ما أظن بيشغل سواق فى هيئة النقل العام ! وأعرف ناس كانوا
زمايله فى المدرسة !!»

شوح إبراهيم القماح فى أسى عميق :

- «دى تبقى أوسخ يا جدع !من ناحيتى أنا .. ياريتته كان طلع يهودى كان
أحسن ! ما كنتش حازعل ! لكن مصرى ؟ ومسلم ؟ هى دى الكاينه الكبيرة يا
جدع ! الناس جرى لها إيه يا جدعان ؟!».

لمع البريق الجهنمى فى عيني زكى حامد :

- «حقاش يكون الموساد زارع العيلة دى بحالها فى أرض مصر من القرن
الماضى مثلا !!».

ومال وجدى الوكيل بجذعه كله نحونا وعدل المنظار الطبى الذهبى على أرنبة
أنفه ثم راح يلوح بأصبعه فيما يشبه الولولة :

«طب إيه رأيكم إن أنا شفت الولد ده ف مطار ليبيا يوم ما سافرت أشتغل هناك؟! هو اللي جه سلم على وفكرنى بنفسه ! افكرت : لاحظت ان كان فيه ناس بتقف لما يقف وتمشى لما يمشى ! أيو الله العظيم كده ! افكرت كمان إن الكام شهر اللي قعدتهم فى ليبيا كان فيه زباين تكلمنى عن مصر ويعدين تسألنى عنه أقول لهم دا هنا ف ليبيا وأنا شايفه ويقيت مضطر أحلف لهم ستميت يمين إننى ما أعرف عنوانه !!»

صوت صرخة طفولية أوقفه عن الاسترسال ، فى أعقابها اندفعت ابنة حكيم
الطفلة تلهث هاتفة :

«إلحق بابا ! البوليس نازل ضرب فى صالح هيصة!»

شوح حكيم فى وجهها متفجعا :

«مالناش دعوه ! يقطعوه حتت ! يستاهل!»

عامل الهيصة وحيودينا ف داهية ! بأقول لكم إيه يا جماعة ؟ أقفل الباب ده يا صابر وانقلوا جوه ! طفى نور الكهريا وشغل لمبة الجاز عشان اللي بييجى يعرف ان احنا شطبنا ! الليلة دى باين عليها مش حتعدى على خير ! قليل ان ماجه البوليس يهجم علينا بسبب المجنون ابن المجنونة !!»

قال زكى حامد :

«طب ما نمشى كلنا !! إحنا كده اطلوينا خلاص ! يلا بينا يا جماعة !»

بسرعة رشيقة مد ذراعه نحو حكيم بورقة من فئة الخمسة جنيهات رافعا يسراه نحونا ليووقف أيدينا عن الدخول فى جيوبنا :

«الحساب كله يا حكيم !»

اتجه قمر وصحابه إلى سياراتهم الراكنة فى شارع عبد الخالق ثروت أمام نقابة الصحفيين تحت كنيسة القلب المقدس . واتجهت مع زكى حامد إلى سيارته الراكنة فى شارع الأنتيكخانة . رأينا البوليس يجرجر صالح هيصة يدق عنقه

بدباشك البنادق يشوط مؤخرتها بالشلايت ، وهو فى عز الفرهة والهوان يحاول
عدل لسانه المبروم فى حلقه ، يجعز بأعلى صوته :

مين قال له يروح يصطلح مع اسرائيل ؟! بيتصرف بمزاجه ؟! طقت فى دماغه
زى ما بيقول ؟! أنا بقى طقت فى دماغى أوريه مركزه !

ما .. ما .. ما هى طققان بطققان خلاص بقى كل واحد تطق فى دماغه حاجة
يعملها !! طب وعيالنا اللى ماتوا دول ؟ طياراتنا اللى اتمدرت فى أنشاص من قبل
ما تحارب ؟! دا فيه عيال لسه ما رجعتش من سبعة وستين ! طب ومدرسة بحر
البقر ؟! حد فيكم يرد يا جبنا «

انهالت عليه الشلايت والبونيات من كل حذب وصوب ؛ مقتلة بمعنى الكلمة .
ارتعشت أطراف زكى حامد وظهر الشحوب على ينذر بأننا - هو وأنا - سنقع
حالا فى كارثة ربما سوت بيننا وبين صالح فيما يلاقيه . فجأة صار زكى حامد
يدمدم بصوت مرتفع كأنه يهتف فى جماهير عريضه :

- «لأبقى ! دى مقتله ! هو ينفع كده برضه ؟!

إحنا فين ؟! ده مهما كان مواطن مصرى له حق الاعتراض !

هى طريقته اللى ميعرفش غيرها تعملوا فيه كده ؟!

حاولت أن أسحبه الى السيارة ، أن أجعله يخزى الشيطان ويركب ليعدنا عن
هذا المنظر البشع ؛ لكنه شد ذراعه من يدى بقوة ؛ اتجه منفعلا إلى أحد كبار
الضباط يقف بجوار عربة الشرطة ، هتف به :

- «يا افندم أظن حرام اللى بيحصل ده ! المنظر ده عيب قوى فى حق الشرطة

وحق مصر كلها ! وأكد زمان وكالات الأنباء كلها صورته !!»

- «نعم يا روح امك إنت كمان ؟!

- «ما اسميش روح امك ! اسمى زكى حامد ! ومعايا مؤهل عالى زيك

وشهادة ميلاد مصرية زيك !»

- «خلاص عرفناك ! شغل النظرة بتاعكم ده ما احناش فايقين له الساعادى !

مش انت اللى حتعلمنا شغلنا !»

- «يا كابتن مفيش حد بيعلم حد شغله ! بس ده راجل مش فى وعيه !
وغضببان من المفاجأة اللي حصلت !»
- «ده مجنون واحنا عارفينه !»
- «طب ما دام عارفين إنه مجنون سيويه يروح لحاله !»
- «تعب تشرفنا فى الحجز الليلا دى ؟!»
جاء العسكر بصالح هيصة جئة مكتوفة اليدين والرجلين مكمم الفم ؛ ألقوا به
فى سيارة الشرطة ، فتح عينيه قرأنا ، فهتف به زكى بصوت متحشرج :
- «ما تخافش يا هيصة ! حنجيب لك واحد محامى يطالعك حالا!»
اتجه نحو سيارته وقد انهمرت دموعه بفزارة :
- «أنا لازم أروح دلوقتى أشوف حياة يمكن تعرف حد كبير له نفوذ عند
الشرطة ! لازم نطلع هيصة قبل ما يقتلوه من التعذيب ! يا ريتنى ما اتدخلت !»
وراح يضرب رأسه بيديه فى قوة وعنف وغضب فيما هو يواصل الدمدمة :
- «أنا غلطت غلطة بشعة ممكن صالح يروح فيها ! دلوقتى حيفتكروا إن
صالح ده مخلص قط ! إن وراه حزب سرى سياسى معارض ! أنا وانت كده ظهركم
كاننا معاه ! كاننا مسلطينة ! إحنا الرعوس المدبرة وهو الأداة ! حيفتلوه عشان
يعترف لهم بأسماء المدبرين ! طبعاً حيفتكروها عملية كبيرة ! أنا تايه عن البوليس
المصرى ؟! تلتيمت ضابط عاوزين ينزقوا فى عملية زى دى ف وقت زى ده !!» .
فتح لى الباب اليمين فركبت بجواره ؛ سحب منديلا ورقيا وجفف به دمه :
- «أرجل واحد فينا !! حد يقدر يعمل اللي عمله ؟!»
فى تلك اللحظة ظهرت طائفة من العسكر مقبلة نحو سيارة الشرطة ساحبة
صديقنا الكاتب والمترجم الماركسى إبراهيم منصور وبعض المثقفين الذين كانوا
على مقهى ريش منذ برهة . وكانت الخطبة الـثلاثانة التى خطبها إبراهيم على
المقهى قد وصل إلينا رذاذها وأخذ يقترب إلى أن ظهر إبراهيم مكتوف اليدين
يجعر بأعلى صوته : يا خونة ! يا مجرمين ! بتبيعوا البلد لمن ؟، وكانت قامته

أطول من قامة العسكر ، ورقبته الطويلة هي البارزة كلها فوق الرعوس برأسه الدقيق وفكيه الحادين الطويلين فبدأ كحوت قفز على سطح الماء يلتقط جرعة هواء تأمله زكى وابتسم بمرارة :

«أهو ده راخر عاوز حد يطلعه !»

وانطلقت السيارة حيث أنزلتني في باب اللوق ثم واصلت طريقها إلى مصر الجديدة .

كل الوسائط التي أتينا بها من كل ناحية عجزت عن الإفراج عن صالح هيصة، بل عجزت حتى عن الإثبات بأن هناك شخصا اسمه صالح هيصة . من بين الوسائط أديب ولواء شرطة في نفس الوقت يعمل مساعدا لوزير الداخلية في شئون العلاقات العامة وهو تقريبا حلقة الوصل بين الوزير ورجال الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي ، وإلى ذلك هو رجل دمث يكتب الدراما التليفزيونية ويحضر معنا في الكثير من الندوات والأمسيات الفنية . هذا الرجل الجاد المحترم استشاط غضبا من عجزه عن فهم ملابسات الموقف فما كان منه إلا أن اصطحبنا في سيارته : حياة البرى وزكى حامد وأنا ، فمررنا على جميع الحجزات وسجن القلعة ، وجيء له بجميع الدفاتر فلم يجد بين المحتجزين شخصا باسم صالح هيصة لا ولا الاسم الذى صححناه بصالح عبد البر ! كان صديقنا اللواء نور الدين في غاية الحرج من إصرارنا على الاعتقاد بوجود شخص بهذا الاسم تحت يد الشرطة في حين أن كل الذين قبض عليهم بسبب التظاهر ضد المبادرة قد خرجوا حتى اسألوا صديقكم إبراهيم منصور ورفاقه ! ثم نبهنا إلى أن علينا البحث في تخشيبات أقسام الشرطة حيث هي مخصصة لأمثاله من المشبوهين جنائيا ..

كانت عملية أشبه بالنكته السمجة حينما أخذنا نلف بسيارتى زكى وحياة على جميع التخشيبات وقد حرصنا على التوضيح : صالح عبد البر مهران وشهرته صالح هيصة ! ، ولم نترك مستشفى إلا وفتشنا في دفاتر استقباله ، حتى

المشرحة زرتها وراجعنا محتويات التلاجة من الجثث المستفة فيها وكل ذلك دون جدوى . كدنا نصاب بالجنون فعلا ، فلجأت حياة إلى أصدقائها من الصحفيين والكتاب المسموح لهم بالمزاح الشكلى الخفيف مع الحكومة فكتبوا تساؤلات ولقطات وكبسولات فى نهاية أعمدتهم ويومياتهم ، وحاولت حياة البحث عن صورة فوتوغرافية له كى تنشرها الصحف ضمن التائهيين أو المفقودين فلربما يكون قد فقد الذاكرة وهام على وجهه فى بلاد الله ، فلم نجد له أى صورة ؛ فإذا بحياة التى لم تجرب الرسم طول حياتها ولا تعرف عنه أى شئ - تعتكف فى بيتها أربعاء وعشرين ساعة أمام الورق والريشة والألوان تعصر نفسها عصرا حتى تمكنت من رسم صورة مكبرة لوجه صالح هيصة من ذاكرتها . يا إلهى ، إنه لشئ خارق ؛ الذهول يجمدنا ونحن نتناقل اللوحة لنتمتع فى كل ملمح فيها مأخوذين بالتطابق التام بين اللوحة والأصل بل إن اللوحة قد أصلت الأصل بثت فيه إشراقا يهتف قائلا : ها أنذا صالح هيصة بذات نفسه . تقدمت حياة بهذه اللوحة إلى صديقها محرر الصفحة الأخيرة فى جريدة الأهرام لينشرها فى بابه الناجح لعلها تساعد من يراها على معرفة صاحبها فيتصل بالرقم الفلانى لفلانة الفلانية ، فما كان من محرر الأهرام إلا أن نشر اللوحة بالفعل داخل برواز فى مكان بارز ولكنه كتب تحتها : بورتية بريشة حياة البرى .

كبرت المسألة فى دماغ زكى حامد بصورة أصبحت تهدد استقرارنا ، بل أصبحت بالنسبة له قضية شخصية يترتب عليها أن يكون أو لا يكون كصديقه الحميم هاملت شيكسبير . أبدا لم يستطع نسيان الأمر برمته فلا ينى يقلى ؛ حتى حياة المتعقلة بحكمتها لم تقو على تهدئته بل لعلها كانت تغذى انفعاله باستمرار . فوجئت به يقتحم على حجرتى فى فندق أمبريال بشارع رمسيس ؛ كان متوترا مهموما ، يدخن بشراهة . ظننت أنه - أصله ممكن يعملها - قد اختلف مع حياة البرى فطلعت زرابينه فضربها بألة حادة شجت رأسها وربما شالها ورمها من الشباك أو على الأقل رمى عليها يمين الطلاق ومشى ..

- «خير يا زكى ؟ مالك ؟ !»
- «قوم البس وتعال - معايا بسرعة ! عندنا معاد !»
- «مع مين ؟ فين ؟»
- «مع مدير الأمن !»
- «مدير الأمن ؟ ليه يا زكى ؟!»
- «أنا أصلى جددت القضية ! قدمت بلاغ للنائب العام اتهمت فيه مديرية أمن القاهرة بإخفاء شخصية صالح هيصة ! وانا وانت شاهد عيان شفنا الضباط وهما بيضربوه ويحطوه فى عريية الشرطة ! وانا احتكيت بالضابط وعندى استعداد للإدلاء بأوصاف كاملة ! والنائب العام مطالب بالكشف عن حقيقة لغز صالح هيصة خصوصا إن البلد بحالها أصبحت على علم بيه وعايزين يعرفوا مصير مواطن !»
- «يعنى احنا دلوقت رايعين للنيابة واللا المديرية ؟!»
- «المديرية ! المعاد مع مدير الأمن ! هو اللى طلبنى ! استدعانى ! أنا كاتب نمر تليفونى وعنوانى !»
- «يا زكى : اخزى الشيطان ! احنا مش قدهم !»
- «لا غلط ! إحنا قدهم وقنود ! لازم يفهموا كده !»
- «يا زكى ! إنت ناسى انهم أثبتوا إن مفيش فى دفاتر المواليد كلها واحد بالاسم ده ؟!»
- «صدقتهم يا عبيط ؟!»
- «مممكن يكون ساقط القيد فعلا ! فيه ناس كثير ما بتقيدش عيالها الصبيان عشان ما ياخدھمş الجيش !»
- «غبى زيھم !!»
- «ليه بس ؟!»
- «أنا ربنا ألهمنى وجبت لهم وثيقة دامغة حتخليهم يكلموا أنفسهم !!»
- «معقولة ؟!»

أخرج من جيبه ورقة مطوية من أوراق تصوير المستندات فى الحال ، فردها ولوح بها . تناولتها ، ذهلت من ذكائه . إنها شهادة من مدرسة معروف الابتدائية تثبت أن صالح عبد البر مهران كان تلميذا بها وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة كذا ضمن دفعة مكونة من ومن ومن ، وتحت أحد الأسماء خط زكى خطا ثقيلًا بالفلوماستر ؛ سألته عن صاحب هذا الاسم فقال وبريق شيطاني يمرح فى عينيه إن هذه هى المفاجأة الصاعقة ، فصاحب هذا الاسم هو النائب العام نفسه الذى حصل على الشهادة الابتدائية من نفس المدرسة فى نفس دفعة صالح. ثم قال إنه لفت نظر النائب العام فى بلاغه إلى هذه الملاحظة ولا بد أنه قد تذكر زميل طفولته .

مدير الأمن كان حادا وحازما ولطيفا معا ؛ طلب لنا قهوة مخصوصة من بن فى درج مكتبه . جعل يطيل من فترة الترحيب بنا يتفرس فى ملامحنا يتذوق كل كلمة نقولها يدرس شخصية كل منا فى هدوء وترو ؛ أخيرا اعتدل فأخذ الهيئة الرسمية الصرفة :

- «يا أخ زكى إنت بتقول إنك احتكيت بالضابط اللى قبض على الأخ صالح هيصة !»

- «وآدى شاهد عيان !»

وأشار نحوى بإصبعه . قال مدير الأمن :

- «إذن ! لو عرض عليك الضابط تقدر تعرفه !؟»

- «طبعا يا افندم ! لأنى كرهته ساعتها من كتر إهانتته لى من غير سبب !

وعشان حقدت عليه ملامحه انتثبتت فى دماغى ! أعرفه من وسط مدينة !»

- «حاضر عليك السادة الضباط وأنت تشاور عليه من وسطهم !»

- «هو ده الكلام الجميل !»

- «اتفضل ! هات الشاهد بتاعك وتعال !»

وقف رافعا سماعة الهاتف قائلا إنه نازل على الفور ، تم وضع السماعة وأشار لنا بالتحرك ..

فى حوش المديرية اصطف ما لا يقل عن مائتى ضابط شرطة بالملايس الرسمية . بدأ من أول الصف ، زكى وأنا صرنا نتفحص نتفرس نتمعن فى كل وجه من الأنام ومن الجنين ومن بعيد ومن قريب . سيادة مدير الأمن طول باله علينا إلى أقصى درجات البرود المتقن الموظف كأنه يريد أن يقول لنا : أما اشوف إيه أخرتها معاكم ، لكنه يكاد يبتسم فى رضاء كلما اقتربنا من آخر ضابط عنده هز زكى رأسه بحركة نفى رصينة وأضاف :

« متأسف يا افندم ! الضابط اللى انا احتكيت بيه مش فى دول ! بس انا متأكد انه ضابط عنديكم ! أنا ممثـل ودارس وابن بلد يعنى أعرف شخصية الضابط حتى ولو كان عريان ومغير شكله كمان !!»

يكاد مدير الأمن يهتف به : لقد صدقت يا بنى ! إنما ابتسم ، اختلجت ملامحه وهز رأسه بحركة تتم عن احترامه لصدقنا ! ثم أوضح قائلاً إن هذه فعلاً كانت محض مناورة يختبر بها حقيقة نوايانا ؛ فعلاً إن جميع هؤلاء الضباط لم يشتركوا فى العمل ليلة زيارة الرئيس السادات للقدس ؛ ولقد تعدد سيادته أن يشعـرنا بالملل والضغط النفسى لعلنا نتعجل فنختار أى واحد والسلام ، لكى تثبت الدفاتر الرحيمة أنه لم يكن فى الخدمة ليلتها وبالتالي تفتضح كذبتنا أمام سيادة النائب العام ؛ أما وقد تأكد له أننا صادقون فى بلاغنا وواقعون من كلامنا فإنه يقودنا الآن إلى العرض الحقيقى للضباط الذين كانوا فى الخدمة ليلتها من شرطة قصر النيل إلى شرطة الخانكة . دخل بنا غرفة اجتماعات كبيرة جدا ، تحتوى على أكثر من عشرة صالونات ، امتلأت مقاعدها بضباط فى ملايس مدنية توقعنا أنهم من رجال المباحث . وقفوا جميعاً بمجرد ظهورنا أمامهم . صاح مدير الأمن فى زكى بلهجة رسمية :

« شوف مين فى دول اللى أنت احتكيت بيه ؟! »

ثم مشى بجوارنا يشاركنا التفـرس ؛ إلا أن زكى كان قد انشـدَّ بصره من لحظة دخولنا إلى ركن قصى يجلس فيه اثنان بدا عليهما الاستهانة بزملائهم على

وقوفهم . كان من الواضح أنهما يتعاملان مع المشهد بخفة وبروح هزلية لدرجة أنهما بقيا جالسين فاخترقا وراء الواقفين . أزاح زكى شخصين عن بعضهما فوسعا له فاخترقا الطريق إلى الركن القصي ثم تفرس في الجالسين ثم وضع يده على كتف أحدهما هاتقا :

« هو ده يا. أقندم ! »

تمعنّته أنا الآخر ، وجدتنى أصيح :

« فعلا هو ده ! مفيش غيره ! »

لوى الضابط عنقه ناظرا لزكى حامد فى كبرياء وعجرفة ، فإذا بزكى حامد يسلط نظراته القوية على عينيه . لم يقو الضابط على مقاومة اللهب الذى يفح من عيني زكى حامد ؛ نكس رأسه فى الأرض برهة ثم رفع وجهه صائحا فى هستيريا :

« إنت كذاب ! أنا ما اعرفكش ! ما شفتكش ! »

زكى حامد ليس يستهان به ؛ ركز نظرات التقريع والتأنيب والسخرية مرددا : إه ! اتق الله . ثم إذا به يتقمص شخصية الضابط ليلتذاك ، فيتكى بذراعه على حافة الكرسي موجها الحديث لى باعتبارى هو ليلتها ؛ وقد وفقه الله توفيقا مروعا فى تقليد لهجة الضابط والتقاط لوازمه الشخصية الثابتة فى الحركة والإيماءة واللفتة لدرجة أن جميع الضباط انفجروا ضاحكين ، بل نسى بعضهم وصفيق بإعجاب ناظرين لزميلهم بإشفاق . أما مدير الأمن فقد كتم ضحكته مستردا وقاره وجديته ثم قال :

« خلاص يا أستاذ زكى ! مهمتك انتهت ! إحنا حنقدم حضرة الضابط

للتحقيق ! »

ثم التفت إلى الضابط :

« اطلع لى فوق ! »

ورافقنا إلى باب المصعد حيث صافحنا بحرارة مؤكدا لنا أنه سيجرى محضرا

بما تم بمعرفته وأن القانون سيأخذ مجراه لا محالة وأن علينا أن نطمئن تماما إذ إن هذا الضابط سيعرض فى مساء اليوم على النائب العام .

بقينا ننتظر يوما ما وراء يوم ، وسربت حياة إلى الصحف أخباراً بما حدث من مستجدات فى قضية المعتوه الغائب كما أستمها الصحف ؛ فإذا بالصحف كلها فى اليوم التالى تنشر قراراً من النائب العام بإيقاف النشر عن هذه القضية طالما أنها رهن التحقيق . على أن حدثاً آخر من نفس الفصيلة طرأ علينا فعمق المتاهة فى مشاعرنا ، أفقدنا القدرة على التمييز بين الوهم والحقيقة فبدأ لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن المتاهة هى الحقيقة الوحيدة وما عداها حتى وجودنا نفسه محض أوهام من الأوهام . ذلك أن بيجين رئيس وزراء إسرائيل ، الإرهابى المحترف ذا التاريخ الحافل بالجرائم والمذابح ، الذى استمد فخره وأمجاده من إبلائه البلاء الحسن فى قتل العرب وإذلال الفلسطينيين وإهانة المصريين والادعاء علنا تحت سمع وبصر العالم وأمام الرئيس المصرى أن أجداده اليهود هم بناء الأهرامات ، فى طريقه لزيارة القاهرة - ردا على زيارة السادات للقدس - بصحبة وفد رسمى على أعلى مستوى ؛ فيما عرف بتبادل النوايا الحسنة وإعادة بناء الثقة بين الدولتين المتحاربتين مصر وإسرائيل وكان الثقة كانت موجودة فى يوم من الأيام قبل الحرب.

صباحة يوم الزيارة كنت فى ماسبيرو ؛ كالعادة مررت على صديقى الإذاعى على فايق زغلول لأشرب القهوة معه . لحظتها كان يوزع ورق الفقرات التمثيلية على الممثلين الذين سيشتركون معه فى هذه الحلقة من برنامجه [مسرح المنوعات]. ما كدت أجلس حتى انفتح الباب ودخل زكى حامد فإذا به من بين المشاركين فى هذه الحلقة التى سيتم تسجيلها بعد غد فى مدينة بورسعيد الباسلة . ما كادت القعدة تروق لنا ثلاثتنا حتى طرق الباب ثم انفتح ، ليطل منه وجه معروف لنا جيدا وإن ظهر كالمبتكر فى ثياب نظيفة محترمة : سنزة من الصوف الثمين فى غاية الأناقة فوق قميص حريرى برباط عنق من ماركة عالمية ذاتعة الصيت وينطلون

أسود وحذاء ذى مهابة تخجل منها الأرض بسجاجيدها . هتف مهللاً وهو يقبل
نحونا :

«مش ممكن ! الحبايب كلهم هنا !»

وقفنا هاتفين مذهولين :

«وجيه فرحان ؟! يخرّب بيتك !»

المفاجأة جمدتنا فى وقفتنا فلم ننتبه إلى أننا قد استجبنا لعناقه ؛ لكننى شعرت أنى قد انخطفت لبرهة فى شبه غيبوبة خيل لى خلالها أن يدا كانت تربت على كتفى وأن صوتاً يقول لى : « مشتاق لك والله ! » ثم جلسنا ؛ زكى وأنا رحنا نرقبه فى تركيز على وجهه ؛ لعنا كنا نبحت فيه عن شىء قديم كنا نعرفه منذ أكثر من عشر سنوات مضت . كان هو هو ، نفس الوجه نفس الصوت نفس القوام وإن امتلاً وظهرت عليه الراحة والتغذية ، نفس العيون الضيقة ، الباجسة ، الزئبقية لا تمكنك من التقاط أى شعور منها على الإطلاق ؛ عيون مراوغة مثل اللقطات الخاطفة فى أفلام الإثارة لا تعطيك فرصة الإلمام بأى شىء ؛ خدان نحاسيان بارزان تنزلق فوقهما نظراتنا بعد إذ عجزت عن الإلمام بشىء من عينيه ؛ حتى ابتسامته التى تبرز من بينها أسنانه الكبيرة ، والتى كانت فيما مضى تنضح بشقاء وعناء غامضين ، هى الآن صارت جثة ميتة ممددة على منضدة ، وجهه فوق ملءة قرمزية . هذا الشاب المصرى الذى كان منذ حوالى عشر سنوات واحداً من شلتنا يقاسمنا هموم الوطن يكتب أشعاراً بالعامية المصرية يتغنى فيها بأصالة الشعب بالثورة بالغد المشرق بالأسى لضىاع الضمير عند بعض المسئولين، ينشر ديواناً يقدمه له صلاح جاهين قائد حركة شعر العامية ، يحشش معنا فى غرزة حكيم .. هذا الشاب هو الآن ضيف دبلوماسى على مصر بجواز سفر إسرائيلى ضمن وفد رسمى على أعلى مستوى ؟! هل هذا وهم أم حقيقة ؟! هل جاء مباركا أم شامتا أم متشفياً ؟! أم تراه قد اشتاق إلى أهله فى قرية البيروم شرقية ؟! ..

توارد الخواطر بينى وبين زكى حامد كان عجبيا أو لعله كان طبيعيا إذ سألته
فى الحال :

- «أبوك وأمك لسه عايشين يا وجيه ؟!»

قال مبتسما بصوته الجهورى المقتحم :

- «أتعشم انى ألحق اشوفهم بكره ولا بعده ! حسب الظروف على كل حال !

أنا أصلى مرتببط بوفد الرئيس بيجين !»

صوته لا يزال مطبوعا بأثار عالقة به من مرارة نتيجة لاستمراره الشكوى
المستمرة تحت شعور جارف بالاضطهاد . كل الألوان تتقلب على وجه زكى حامد ،
خيل لى لحظتها أنه يقاوم رغبته فى الانقضاخ عليه وخنقه . صدق حدسى إذ
لاحظت أن على فايق زغلول قد لاحظ هو الآخر حالة زكى حامد فقدم سيجارة ،
خصيصا ليفمزه قائلا :

- «ولع ولع ولا يهكم !»

لم ينتبه وجيه فرحان لهذه الملاحظة لأنه - بروح معنوية عالية - كان مندمجا
فى حكى موقف طريف حدث له فى المطار ، حيث - يقول - تقدمت منه مباحث
أمن الدولة للقبض عليه ؛ فقام لفظ هائل فى الوفد الإسرائيلى كاد ينذر بأزمة
دبلوماسية فى لحظة غبية كهذه لولا أن وجيه فرحان حسمها بالإشارة إلى جواز
سفره الإسرائيلى الدبلوماسى ، أى أن الشرطة المصرية لاسيادة لها عليه ولا
يجوز القبض على مواطن إسرائيلى فى زيارة دبلوماسية ضمن وفد يرأسه رئيس
الوزراء ؛ ورغم أن الشرطة تراجعت مكظومة مقهورة فأعادت إليه جوازه مع
اعتذار ذليل فإن مديز مكتب بيجين نهر الشرطة وأعطاه درسا فى حسن
السلوك. كان يحكى هذا الموقف باستمتاع عظيم . غبت عن الوعى برهة ثم أفقت
فيإذا هو يبدى رغبته أو يعلن شوقه لزيارة كل الأماكن العريزة التى شهدت فقره
واضطهاده خاصة مكتب إيهاب الأزهرى ووجدة أنونات الصرف الفورى ؛ ثم نظر
نحوى قائلا إنه فكر فى المرور على مكتبى فى المجلة ليأخذنى إلى غرزة حكيم

لنشرب حجرين رغم أنه لم يعد يشرب إلا الويسكى والمكيفات الراقية خاصة أن إسرائيل تترفع على الحشيش . فعلق زكى حامد قائلا إن إسرائيل هي التي تصدر الحشيش وتشتري بثمنه طائرات تضرب بها العرب .

حتى لحظتذاك ، كان زكى حامد لا يزال يميل للأخذ برأى طلعت الإمبابى من أن وجيه فرحان يهودى إسرائيلى زرعه الموساد فى مصر فلما أدى مهمته أو تأكد من عدم صلاحيته للاستمرار قام بسحبه إلى إسرائيل قبل وقوعه فى قبضة الأمن المصرى . أما الآن فقد مال على أذنى وهمس بأنه اقتنع بالعكس تماما ، أى أن المخابرات المصرية قامت بزرع وجيه فرحان فى إسرائيل ليكون عيناً لها هناك ، فأنكشف أمره فاحتفظوا به كوثيقة يثبتوا بها تفوقهم علينا وفى نفس الوقت يكون مصدرا للمعلومات عن الحياة الداخلية فى الواقع المصرى ؛ هذا هو المعنى الوحيد لإتيانهم به إلى مصر ضمن الوفد الرسمى الإسرائيلى كرسالة خبيثة لإذلال المخابرات المصرية وكسر أنفها ؛ وهذا أيضا هو التفسير الوحيد لحالة وجيه فرحان وروحه المعنوية المرتفعة . وحينئذ كثر توافد الممثلين على مكتب فايق زغلول وصاروا يبحثون عن مقاعد ، فوقف وجيه فرحان مسلماً يقول لى إنه ربما نتاح له فرصة لرؤيتى مرة أخرى . فوقفت ، ووقف زكى حامد ، وضع ذراعه على كتف وجيه ودفعه برفق نحو الباب فيما قصد أن يلاطفه :

- «بتقول انك نفسك تشرب حجرين ! إذن فخير البر عاجله ! يلا بينا قوام

قوام ! فيه ناس كثير حبايبك نفسهم يشوفوك !!»

قال وجيه فرحان إنه يرحب تماما ؛ كل ما فى الأمر أنه لابد أن يمر على عمه فى مصر عتيقة ليسلم عليه ويترك له بعض الهدايا التى أتى بها لعياله من إسرائيل ، فإن كان لدينا استعداد لمرافقته إلى بيت عمه ثم ننزل معا فى العصارى الجميلة فإن ذلك سيسره خاصة أنه يريد اليوم صحابا متلنا يفتحون شهيته للغداء فى بيت عمه . كنت أظن أن زكى حامد لفرط اشمئزازه سيتقاعس عن هذا العرض بحجة أو بأخرى فإذا هو يتلقف الاقتراح بوجه مشرق ويشير له

فى بساطة أن : هيا بنا .. فتأكدت أن زكى قد نوى أن يغريه بالنخل الحريز
ليعرف أصله وقضله . إلا أن ما أدهشنى حقا هو أن وجيه فرحان ليس لديه أية
تحفظات على أى شىء ، بل ليس يشعر أنه أتى أمراً يستحق عليه أى لوم ، ثم إنه
لا يبدى الرغبة فى الهروب منا خشية أن نذكره بما فعل بل هو على العكس
يستبقينا بكثير من الحميمية !! ومن يدري ؟ ربما كان فى أعماقه يعتبر نفسه بطلا
من نوع ما !! ولربما هو يريد أن يحكى لنا طرفا من أخبار بطولته !! المرجح أننا
الآن بالنسبة له مجرد مادة ومصدر لأخبار مطلوبة ! بل المؤكد بداهة أنه مكلف
بالاختلاط بالمتقنين ما أمكن لمعرفة مدى صدق المصريين فى الإقدام على هذه
الخطوة الجنونية غير المتوقعة وهل الصلح مجرد رغبة ساداتية للخروج به من
مأزق حرج أم أن لإعلان الرغبة فى الصلح عمق شعبى ؟!

بيت عمه أشد عتاقة من جى مصر عتيقة ؛ فى حارة ضيقة متاخمة لمحلة
المترو ، خلف قسم شرطة مصر القديمة . صعدنا إلى الطابق الثالث على سلم
رخامى حلزونى ضيق ذى درابزين لا يزال متينا ؛ أى سحر وحميمية تتطوى عليها
مثل هذه البيوت ذات الشقق المتقابلة بأبواب من درفتين بشراعتين من شبكة
حديدية وباب زجاجى أسدلت عليه من الداخل ستارة بيضاء محندقة ومكرنشة .
فوق بكية الباب لمبة كهربائية سهارى ، وعلى صدغه جرس كهربائى ، وتحت
الشراعة لافتة نحاسية عتيقة صدئة ببيضاوية محفور عليها : جمال فرحان ..
رئيس حركة بهيئة السكك الحديدية .

ممر صغير ضيق يفتح عليه الباب حيث يوجد على يسار الداخل مباشرة بابان
متجاوران مفتوحان على مطبخ وحمام يسمح بالكاد للجسم أن يستدير حول
نفسه، تحت دش الماء الصدىء ذى خروم لاشك مسدودة . توجد ترابيزة ماركة
إيديال عليها مفروش كالح من المشمع الملسوع بالنار فى أكثر من بقعة ، يحيط بها
أربعة كراسى من البلاستيك ؛ عبرناها إلى حجرة فى المواجهة تطل على الحارة
بتراسينة محندقة لها باب بدرفتين مفتوحتين على السياج الحديدى للتراسينة

الشبيهة بجسد البطة . فى الحجرة سرير ودولاب وكنبة بلدى منجدة . جلسنا على الكنبه فى حين فضل الحاج جمال أن يجلس على شلته فوق الأرض . الشبه بينه وابن أخيه واضح للعيان ، نفس السحنة نفس الملامح نفس الصوت وشكل الأسنان البارزة ؛ إلا أن الطيبة المصرية واضحة عليه وضوح نهر النيل فى أحشاء الوادى . حدثنا عن طفولة وجيه الشقية بسبب من هوايته لكتابة الأزجال والأغاني وقراءة الكتب التى عطلته وألهته عن كل شغلة حاولوا إلحاقه بها . ثم قال إن ابن أخيه معنور فيما فعل لأن المخابرات المصرية طاردته عاكسته فى رزقه ضيقت عليه الخناق فى كل مكان ؛ فى الأول ظنفته شيوعيا فلما اتضح لها أنه ولد غلبان يريد أكل العيش فى أمان استضعفته رسمت لتشيغله - بالمجان طبعاً - مخبراً على أهل الإذاعة والتليفزيون وزملائه المكاتين فى الجرائد ؛ إلا أنه غشيم لا يعرف كيف يلعب هذه اللعبة ؛ فلم يجد المسكين مفراً من الهرب إلى مكان لا تجرؤ الشرطة المصرية على الذهاب إليه : إسرائيل .

فيما كنا نتناول غذاء الحاج جمال فرحان ، المكون من شرائح بطه مع ملوخية وأرز ودقية بامية قرن فى أبرمة ؛ طلب زكى حامد من وجيه فرحان أن يحكى لنا بالتفصيل المل كيفية خروجه من مصر ودخوله إلى إسرائيل . فانفتح فى تدفق تلقائى لا تتقصه الحرارة ؛ حكى لنا أنه تسلل إلى ليبيا للبحث عن عمل هناك ، لكن السلطات الليبية أمرته بمغادرة البلاد بعد ثمانية وأربعين ساعة من وصوله . وحينما استدعوه إلى مديرية الأمن لإبلاغه بأمر الرحيل أوعزوا إليه أن السلطات المصرية وضعت اسمه فى قائمة المنوعين من السفر وأنها سوف تصطاده من ليبيا إن عاجلاً أو أجلاً فخير له إذن أن يغادر البلاد حتى لا يتسبب لهم فى حرج مع السلطات المصرية الشقيقة . كان قد سارع فور وصوله بتسجيل بعض أحاديث وأشعار للإذاعة الليبية عن طريق مذيع مصرى كبير يعرفه فيها ؛ فأسرع بصرف مكافأتها ، واقترض مبلغاً من صديقه المصرى ، وسحب زوجته وركب أول سفينة متجهة إلى إيطاليا . وما إن أبحرت السفينة حتى اكتشف على متنها بعض

ركاب مصريين ؛ ولاحظ أنهم يتحركوا به وبزوجه ، يفرضون عليهما خدماتهم ، استدرجوهما حتى تخبطا فى الكلام فأعزوا إليهما أن بينهما من يستطيع إلحاقهما بعمل شريف فى إيطاليا ؛ وعندما رست السفينة على شاطئ نابلى أراد الهرب من هؤلاء الملاحقية لكنه وجد نفسه فى موقف ضعيف حين عجز عن التفاهم مع موظفى الميناء فلحق به بعضهم وشرحوا موقفه بأنه زائر عابر بغرض السياحة لساعات معدودة ؛ ثم طلبوا منه أن ينتظرهم عند باب الخروج من الميناء ؛ لكنه ما كاد يخرج من بوابة الميناء حتى رمى بنفسه وبزوجه فى أول سيارة ليموزين زحفت نحوه ؛ ولم يكن قد حدد اتجاهه حينما نظر خلفه فرأى ملاحقيه يبحثون عنه متلفتين فى كل اتجاه ، وأخيرا ركبوا سيارات كانت فى انتظارهم ومن الواضح أنها تتبع السفارة المصرية ؛ عندئذ لمحوه فى السيارة الليموزين فإذا به يصرخ فى السائق بانجليزية ركيكة : القنصلية الإسرائيلية من فضلك وظلت سيارة المصريين تلاحقه إلى أن هبط بسرعة وانزلق إلى باب القنصلية تاركا لسائق الليموزين كل ما كان معه من ليرات استقضاهما على ظهر السفينة .

طلب مقابلة القنصل لأمر مهم ؛ فأدخل إليه فى الحال شبه مقبوض عليه هو وزوجه بعد تفتيشهما بدقة . كان مباشرا وصريحا إلى حد النفاذ ؛ قال للقنصل إنه شاعر مصرى مناضل ضاقت به الحياة فى مصر فى ظل كيت وكيت ، وأنه قد اختار بمحض إرادته واقتناعه أن يكون مواطنا إسرائيليا يتمتع بنظامها الديمقراطى المفتوح ويجد الحرية للتعبير عن نفسه والعيش بكرامة افتقدها فى بلاده فى ظل الدكتاتورية المصرية القائمة ، وأنه مستعد للوضع تحت كافة الاختبارات للتأكد من صدق نواياه . حقيقة الأمر أنه كان من المستحيل عليه - وعلى أى مخلوق سواه - الإفلات من قبضة السلطات الإسرائيلية من لحظة اقتحامه لمبنى قنصليتها ؛ جرت الاتصالات السريعة بين القنصلية والسفارة وبين السفارة ووزارة الخارجية ثم وزارة الداخلية المهم أن العصفور قد وقع فى القفص وانتهى الأمر ، وبعد مايقرب من شهر عاشه فى جناح سكنى ملحق بالقنصلية

تحت جميع ألوان وأنواع الاختبارات والتحريات والمحاولات والدردشات انقطعت صلته بالحياة تماما لمدة لا يعرف مداها لكنه حين أفاق منها وجد نفسه وزوجه فى مطار إسرائيل الدولى كلاجى سياسى مصرى . ساعده فى إيجاد مسكن يؤويه، ألحقوه معداً للبرامج بإذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية ، راقبوه طويلا رغم يقينهم أن الجاسوس لا يمكن أن يدخل على هذا النحو المكشوف ؛ كثر زواره من علماء الاجتماع ونقاد الأدب والمؤرخين والمحللين والمعلقين للاستعانة به فى شرح تعبيرات أو عادات أو معتقدات شعبية ؛ وكلهم أجمعوا على طهره الإنسانى وصدق موقفه فى اختيار الحرية والديمقراطية ، فتوسطوا له فمنح الجنسية الإسرائيلية وفى نفس الوقت - شوف الحرية والتقدم - لم يرغموه على التخلّى عن جنسيته المصرية!!

وكان الطعام قد توقف فى حلقنا منذ وقت طويل دون أن نقوى على بلعه أو بصقه درءاً للقرف ؛ ربما من أول لقمة ؛ ثم ما لبث حتى صار فى نظرنا جثثا ميتة من لحم أطفال لعلهم من تلاميذ مدرسة بحر البقر ؛ فشعرنا بتقزز وبمغص مؤلم . صارت قدمى وقدم زكى حامد تتغامزان تحت الترابيزة ؛ كلانا يريد أن يدخل بورة المياه ليتقيأ لكننى كنت تعباً جداً ؛ أزحت الفوطة قائلاً : الحمد لله ؛ ووقفت طالبا بورة المياه ؛ فاقترادنى الحاج جمال إليها وهو يحتج على انصرافنا عن الطعام . أغلقت باب الحمام وجعلت أجاهد حتى لا أصدر صوتاً مقززاً ، فلم ينزل من جوفى سوى مياه سائبة مصحوبة بمرارة وحرقان وانقلاب معوى ؛ أخيراً غسلت يدى ووجهى وخرجت لأجد زكى واقفاً بالباب . وإلى أن عاد بعد وقت طويل كان وجيه فرحان لا يزال يأكل بشهية وشراسة وقد عجبت إذ لم أجد فى حياتى كلها شخصاً كهذا قادراً على الأكل بملء الشدقين والكلام بطلاقة ووضوح فى آن واحد كأن أسنانه تعمل بمعزل عن لسانه .

بنظرة متبادلة بينى وبين زكى خبط على جبهته قائلاً :

- «يا ه.. ه.. نسيت إن ورايا تسجيل دلوقت !»

ثم هب واقفا . فتبعته زاعما أنى مرتبط بنفس التسجيل وأنا يمكن أن نلتقى
غدا فى جروبى سليمان فى الخامسة مساء على مقربة من غرزة حكيم التى يعرفها
جيذا . ولما كان لا يزال يأكل فأنى حمدت الله أن جنبنى المصافحة باليد .. باى ..
ثم دفعت زكى أمامى ؛ فتحنا باب الشقة وخرجنا . ركبنا سيارة زكى التى مضت
بنا من تلقاء نفسها إلى غرزة حكيم ، انخرطنا فى التحشيش بعمق وتركيز
وصمت مطبق لمدة لا تقل عن ثلاث ساعات ، شعرت خلالها أن عقلى قد انعجن فى
قلبى فى دموع داخلية سخنة كانت تتدفق وراء قناعين متصلبين أثار منظرهما
رعب الجميع من حولنا . حتى عند انصرافنا من الغرزة لوح كل منا للآخر بيده
فيما يتباعد كل منا فى اتجاه نحو سردابين متباعدين يوصلان كلاهما إلى طريقين
مختلفين تحت سماء نفس المدينة الصاخبة المضطربة التى توشك من فرط الزحام أن
تؤوب إلى مقبرة .

البحث

بعد يومين اثنين من مقابلة وجيه فرحان الكاتمة للصوت دخلت غرزة حكيم في حصة العصر فوجدت زكى حامد قاعدا هناك وحده. قال إنه عائد لتوه من مدينة بورسعيد بعد انتهائه من تسجيل برنامج على فايق زغلول مسرح المنوعات، وأنه اشترى من هناك تعميرة جيدة رأى أن يذوقها قبل عودته إلى البيت، ثم عرضها على، فلما رأي منبراً بها إذ هي كلكية في حجم البيضة تحفظ قائلاً:

- «خلى بالك إنها شركة بينى وبين حياة!»

- «يعنى حنوقها واللا بلاش؟!»

- «حتنوقها طبعاً!»

واقطع سنتين في حجم النبة، كورها ووضعها في كفى:

- «دى علشانك تشوف بيها نفسك مع نفسك! وأنا حارص طول القعدة!»

- «عداك العيب!»

قال أيضا إن إبراهيم القماح شرب معه عشرة حجارة وانصرف. ثم راح يحدثني عن مدينة بورسعيد ومدى ما شاهده فيها من بؤس مؤلم، وظهور طبقة جديدة من تجار العملة تمنكوا من الاستيلاء على الشاطئ وعلى بحيرة المنزل. ورحت أحدثه عن رواية انتهت لتوى من قراءتها لكاتب روماني يهودي، عنوانها (الساعة الخامسة والعشرون) تصور معكسرات التعذيب النازية لليهود وكيف تم تشريدهم بقسوة لا يقبلها العقل مطلقا. وبعد أن لخصتها له أبدت دهشتي من قدرة الخيال اليهودي على حبك هذه الأسطورة بكل هذا السحر الفني الذي لا يمكن أن ينجو القارئ العادي من تأثيره إذ لا بد أن يأسف لليهود ويتعاطف معهم ويشعر بالذنب تجاههم، فأن تترجم هذه الرواية إلى العربية وتشرها دار نشر بيروتية بهذه الفخامة فمعنى ذلك أن نفوذ الدعاية الصهيونية ضارب في

أحشائنا منذ أوائل القرن تقريبا. وقال زكى حامد إننى لو كنت جدعا بحق فإننى يجب أن أرمى القفاز فى وجه المؤلف اليهودى الرومانى، أقلب عليه الترابيزة، كيف يا زكى؟ قال إننى يجب أن أقتبسها وأعكسها فى مسلسل تليفزيونى بحيث أجعل البطل اليهودى فلسطينيا وأجعله يتعرض لنفس المحنة وأحداث التعذيب والتشريد ولكن من القوى النازية الجديدة: اليهود الصهاينة الذين هم الأصل والجذر فى الأفكار النازية فالواقع أن أسطورة الجنس الجرماني الأرقى لم تنشأ فى حقيقة أمرها إلا لمواجهة أسطورة شعب الله المختار التي استعلى بها اليهود على جميع الشعوب. نشط خيالى، وفى لمح البصر تخيلت العمل الفنى كله بجميع أحداثه ومشوقاته ومعطياته لكننى انتبهت فجأة إلى أن الجو قد اصطبغ فى ناظرى بغلالة شفافة من الخيال السحري البديع كأن كل المرئيات أمامى من بشر وأشياء داخل قترينة زجاجة ملونة تلعط وتنالق؛ فأيقنت أن التعميرة جيدة بالفعل وأننى يجب أن أحسن الانتفاع بها فى الفوص داخل أعماقى البعيدة للتفتيش فيها عما قد يساعدنى على فهم نفسى جيدا مثلما هو فالى مع كل تعميرة جديدة طازجة.

الحياة تبدو فى نظرى الآن محض خيال يفرى بالمشاهدة؛ لكن الصرخة التى دوت فى الحارة زلزلت جدران الغرزة فاصطدمت رءوسنا بأرض صخرية فيما هى لاتزال واقفة على أكتافنا. هاهى ذى تتكرر متطاولة؛ ها نحن نقيق وتطابير الأنفاس من رءوسنا كالعصافير المذعورة، إنها صرخة فيها من الفرح قدر ما فيها من الفجيعة؛ سرعان ما ترجمت إلى كلام يقتحم علينا الغرزة فى هيئة امرأة كزنبل البطاطا. تأكدنا أنها أم يحيى. من هول المفاجأة بهتنا جميعا تبلدنا لم نعرف إن كانت أم يحيى تزغرد فرحا وطربا أم تصرخ مولولة باكية. مضت برهة طويلة قبل أن نستوعب ما كانت تقول:

«صالح هيصه رجع يا ولاد! صالح هيصه جه يا حكيم! إنتو يا أفنديات مش كان صاحبكم؟ أهه رجع اهه!».

اشربأت الأعناق ترسل النظرات فى اتجاه الباب فى انتظار أن يدخل صالح هيصه، ووقف حكيم ينفذ جلبابه كائن صالح سيدخل على الحجرة مباشرة: ثم جعل يتساءل:

- «هو فين يا أم يحيى؟ ماجاش ليه؟!»

- «قاعد يعمل هيصه فى الخرابه اللى بيبات فيها!»

صاح زكى فى ابتهاج عظيم:

- «حقه ياعم! حقه!»

واندفعنا جميعا خارجين. صرنا نهرول: نخترق حيشانا من المفترض أنها بيوت مسكونة: نخوض فى هديم تلو هديم، وصلنا إلى ذلك البيت الذى لم يبق منه سوى جدران حجرة داخلية كاملة يتخذها صالح مأوى له. صرنا نتعثر فى حجرة وقوالب طوب وغائط أطفال حتى اقتحمنا الأطلال. رأينا صالح هيصه مقعيا على قرافيصه، مسنداً ظهره للحائط، مريحا رأسه على كتفه، يده قابضة على زجاجة كوكاكولا مقطوشة الرأس ملأنة بمخلوط السبرتو الأحمر مع الكولا، ويجواره زجاجة أخرى فارغة، وورقة من كتاب مدرسى عليها بقايا قطع من الطرشى تبدو متعفنة. هتف حكيم بصوت جهورى فرحان:

- «واد يا صالح!»

فبدا لنا كأنه يبتسم، البسمة تملأ وجهه كالعادة غير أنه مغمض العينين ، تقدم منه زكى، عدل رأسه ربت على صدغيه، أسنده على الحائط، فتهاوى الرأس.

اقترب حكيم شاحب الوجه؛ أمسك برسغه فى حين وضع زكى يده على قلبه. أقيعت أنا أمامه مرتعبا لم يكن فيه ثمة من حياة . أسقط حكيم اليد فتهاوت. رفع زكى يده وألقى بجوارى ناظرا إلى فى شعور بالفجعة:

- «على فكره ده لسه ميت قريب! بالكثير خالص نص ساعة وإلا كان زمانه

اتخشب!..!»

انفجر حكيم فى النحيب وهو يحتضنه. إنهمرت دموع زكى بغزارة وهو يعتدل واقفا:

- «أجل العياط دلوقت يا حكيم شوف حنعمل إيه؟!»
قال حكيم:

- «شيل معايه نروحه عندى لحد ما نتصرف!»،
شخط فيه زكى:

- «أوع حد ييجى ناحيته لحد البوليس ما ييجى يعمل محضر والنيابة تعاين! ده كان غايب من مدة طويلة والحكومة أنكرت وجوده من الأساس! لازم ياخدوا خبر باللى حصل! أmaal حنطلع شهادة وفاة ازاي وتصريح دفن؟ يلا أنت وأم يحيى وصابر على قسم قصر النيل تبلغوا باللى شفتوه! ما يهملكش! كل مصاريفه على حسابى أنا وحياء لحد ما نروحه معزز مكرم أربعة وعشرين قيراط!»،
هز حكيم رأسه فى امتثال. قال للواقفين:
- «حد منكم يقعد جنبه يا جماعه!»،
ونظر لى:

- «أنا وأنت طرف فى القضية! يستحسن إننا ما نكونش هنا خالص الساعادى!».

سحبنى ومضينا. خرمتنا على شارع عدلى جلسنا فى حديقة جروبى، بكينا بعمق وحرقة، شربنا قهوة سوداء، دخنا بشراة، حاولنا تصور ملابسات الحادث من جميع النواحي فلم نقلح. هل فى الأمر شبهة جنائية؟ هل كان طرف الشرطة كل هذه الأيام فعلا؟ المؤكد أنه لو كان حرا فى الخلاء ما غاب دقيقة واحدة عن غرزة حكيم. هل يتعين علينا أن نحرك الدعوى قضائيا لنثبت كذب الحكومة ونطالب بتقرير الطبيب الشرعى؟ أم الأفضل أن نختفى من المشهد كله حتى لانعرض أنفسنا لمتاعب لسننا بقادرين على احتمالها سيما وأننا فى مفتتح حياتنا الطموحة علما بأن جميع مؤسسات التنفس الأدبى والفنى من صحف ونثر وغناء

وتمثيل ومسرح وسينما وإذاعة وتليفزيون كلها ملك للدولة، وليس بخاف علينا أن مستقبل الواحد منا فى هذا البلد قد يوقف نموه لمجرد أنه تفوه بلفظة بريئة لم تعجب شخصا بعينه، مستقبل مصر نفسها مرهون بمزاج فرد من الأفراد.

انصرفنا دون أن نصل إلى قرار محدد، لكننا فى ظهر اليوم التالى تلاقينا فى غرزة حكيم. كانت أم يحيى قد كنست أرض الحارة ورشتها بمياه الغسيل المخلوطة برائحة الصابون المعطر. الحارة يخيم عليها صمت وقور، من شدة وقاره بدا أن له جانبه الفكاهى، تماما كشخصية صالح هيصة التى جمعت بين الوقار والهزل فى توازن قلما ينجح إلا مع مثله . كان إبراهيم القماش جالسا على المصطبة وعيناه من شدة البكاء منتفختان . ثمة لغط فى داخل الدار الموصولة بالغرزة. قال إبراهيم إن حكيم ذهب من صبيحة ربنا إلى القسم لتخليص إجراءات الدفن، وأن النيابة عاينت الجثة وسمحت بنقلها إلى الدار، وأن أم يحيى استدعت من يغسله، وأنه - إبراهيم - اقتطع له أثواب الكفن من أفخر نوع بالمجان من أحد المحلات التى ينظم لها القتارين. قال زكى: وأين سندفنه؟ قال إبراهيم:

- «عندنا فى الطرية بتاعتنا ما احنا لنا طرية فى الإمام الشافعى! وأنا اتصلت بالطربى من الفجر عشان يجهز نفسه!»،

بعد قليل جاءت حياة البرى. كان منظرها بديعا حقا، أجمل حزن رأيته فى حياتى: البنطلون الجينز القطيفة الأسود، والبلوزة السوداء، والرقبة الصعيدية السريحة بجيدها الأتلع، والوجه المليئ بالمعانى والأسرار والثقافات رغم بساطته وصفاء ملامحه، والسيجارة المارلبورو بين أصابعها حزينة هى الأخرى تحرق نفسها على مهل مخلقة رماداً متماسكا يابى الانفراط قالت:

- «الجثة جوه!».

أومأنا بالإيجاب، اتجهت إلى داخل دار حكيم وهى تميل بنصفها العلوى تلقى نظرة متفحصمة فى ظلام الحجرة الداخلية: فبدا ظهرها الطويل من الخلف أشبه

بمركبة فضائية تلامس كوكبين متلاصقين لكل منهما مذنب خاص به. اختفت في الدخل، فما لبثنا حتى سمعنا نهنحات وأهأهات متقطعة، وصوت أم يحيى يردد بعض كلمات المواساة. دقائق معدودة ثم حضر قمر المحروقي ورفاقة الثلاثة مرسى خلاف ووليد رشيد ووجدى الوكيل، وعرفنا فى الحال أن إبراهيم هو الذى كلمهم بالهاتف ليلة أمس من سنترال عدلى. ثم جاء عبدالوود، وجاء فاروق الجمل وصديقه رسام الكاريكاتير الذى بات يرافقه منذ أن عينا معا فى مجلة أسبوعية كاريكاتورية. وفى حوالى الثانية مساءً جاء حكيم وبيده تصريح الدفن. أخذنا نتباحث فى كيفية نقله إلى مدافن الإمام: فما كدنا نختلف حول الطريقة التى ينقل بها حتى دخل علينا رجل عجوز يرتدى بدلة وقورة يقوده طفل من عيال الحارة، قال بمجرد دخوله:

– «مدام حياة البرى فىن لو سمحتم!».

بادره زكى متمعنا فى وجهه:

– «نقول لها مين حضرتك؟».

– «أنا صبى الحانوتى إالى هى اتفقت معاها!».

– «أيوه! جيت العربية؟».

– «واقفة بره!».

شاركنا جميعا فى حمل الجثة والمرور بها من السرداب الطولى حيث كانت عربة نقل الموتى بشكلها المميز تحتجز مساحة كبيرة من عرض شارع معروف. ركب إبراهيم القماح وحكيم بجوار السائق وركبت أنا مع زكى فى سيارته، وركبت أم يحيى وزوجة حكيم فى سيارة حياة الفولكس، وركب قمر سيارة مرسى وركب الجمل مع وليد، والرسام مع وجدى، مضينا فى موكب من السيارات تكاد تكون مشتبكة فى بعضها بجنزير خفى. اخترقنا وسط المدينة، أصر إبراهيم القماح أن يلف الموكب من شارع معروف إلى الأنتيكخانة إلى ميدان عبدالمنعم

رياض فرمسيس فعبداخالق ثروت فسليمان فميدان التحرير فميدان لاطوغلى عبوراً للمبتديان فزينهم إلى مدافن الإمام. كان موكباً مهيباً جميلاً لفت جميع الأنظار استقطب سيارات كثيرة من الجانبين تطل منها رعوس فضولية تسألنا عبر النوافذ فى وقار حزين مقدماً:

- «هو مين اللى مات لو سمحت؟».

نقول بنفس الوقار والجدية:

- «صالح هيصّة تعيش أنت!».

فيكتم الناس ابتساماتهم، يرد بعضهم كأنه كان على علاقة به قوية:

- «مش معقول! إنا لله وإنا إليه راجعون!».

أمام المقبرة تولى الصنایعية وضع الجثة فى نعش، جاء شيخ أعمى من طرف الطربى، وقف أمام النعش فى اتجاه القبلة، فوقفنا جميعاً وراءه فى صف واحد بما فىنا حياة البرى وأم يحيى وزوجة حكيم. أدینا الصلاة وقوفاً فى ورع حقيقى ولحظة أن زحفت الجثة مائلة لتغيب فى جوف القبر، انفجرت المناحة بشكل جماعى؛ أما حياة البرى فأقعت مستندة بظهرها إلى شاهد المقبرة واضعة رأسها بين يديها فى وهن وشحوب، مطرقة فى الأرض محركة شفتيها والدموع كقطر الندى تتساقط من ورود خديها، وكان واضحاً أنها - الماركسية العتيدة السابقة - تقرأ بعض الآيات القرآنية لعلها آية الكرسي أو سورة يس. وزعنا كثيراً من الجنيهاات خرج معظمها من جيبى مرسى ووليد. ثم عدنا إلى غرزة حكيم ومعنا ثلاثة كيلو جرامات من الكباب والكفتة وتل من الخبز وعلب الطحينة والسلطات اشتراها وجدى الوكيل لأننا جميعاً لم نذق طعام الأكل مذ داهمنا الخبر. قعدنا على الأرض بدون أى فراش، فردنا الطعام، أكلنا بشراهة، بقيت فضلة كبيرة، لفها حكيم بعناية ووضعها على المصطبة قائلاً فى تلقائية اعتيادية:

- «خليها يمكن صالح ييجى ياكلها!».

فتحدرت دموعنا؛ فقال:

«والله كان قصدى أقول صابر!».

ودخل وراء زوجته ثم عاد حاملا جهاز الراديو البلاستيك ماركة صوت العرب، وضعه على أرضية الشباك، فتحه، ضبطه على إذاعة القرآن الكريم، انطلق صوت الشيخ محمود خليل الحصرى مليئا بالورع والمهابة؛ فاعتدلنا فى قعدتنا، نكسنا الرؤوس، رحنا نستمع فى خشوع فطرى؛ فيما تقرفص حكيم وراح يجهز لنا طاقما من الحجارة التى لاشك ستقوى أجنحة خيالنا على التحليق فى سماوات الآيات المشرقة بالآلاء الدامغة المكذبة لكل زور وبهتان.

★ ★ ★

كان هذا هو آخر اجتماع لنا، وبعده مباشرة نشطت الحكومة فجأة فأزالت جميع الغرز، دمرت سوق الباطلية وكان من السهل علينا أن نفهم أن هذه الحركة لم تكن إلا بتحالف من جميع المهربين الكبار نوى النفوذ فى كل مكان، لإزاحة الحشيش الذى يكلف غلبة ودوشة دماغ فى نقله وتهريبه وتوزيعه، تمهيدا لإغراق البلاد ببوابل من الكوكايين والهيرويين وبرشام الصليبية وحقن الماكس فورت، وهذا كله مما خف حملة وغلا ثمنه وتكفى أرباحه لإرضاء طموح كل من يشارك فى التهريب ولو بالطرمخة أو بإغماض العين. فلم يبق لفئات الشعب الكادحة من عقار يشاغب مزاجهم سوى ذلك النبات السودانى المسمى بالببانجو، حزمة بخمس جنيهات تدوش دماغ شلة كاملة.

سنوات صعبة كثيرة مرت، حدثت فيها أحداث جسام غيرت مجرى الحياة تماما، القوالب نامت والأنصاف قامت، وصلت الهيصة إلى أقصى ذراها الهزلية؛ أبرمت اتفاقية كامب ديفيد للسلام مع العدو الإسرائيلى وكتب كبار الكتاب يوجهون عواطفنا لحب اليهود، استرد أعداء ثورة يوليو ممتلكاتهم ومراكزهم وأحزابهم وجرائدهم؛ اغتيل أنور السادات بأيدى الجماعات الإسلامية المتطرفة؛ بيع القطاع العام، هاجر المثقفون وكل النخب المتميزة فى جميع المجالات إلى بلاد النفط وأوروبا؛ سقطت الماركسية اللينينية بفضيحة مدوية وتفكك الاتحاد

السوفييتى وتبدد كائن لم يكن فى دقائق معدودة، بات العرب يهرولون نحو الصلح مع إسرائيل، قامت حرب الخليج المروعة ليحتل الأمريكان منطقة الخليج، طلقت حياة البرى من زكى حامد وتزوجت من أستاذ جامعى هولندى هاجرت معه إلى أمريكا، طلقت محاسن عاصم من قمر المحرقى بعد أن أنجبت منه ولدا بات يناهضه ويتحداه، فشل المصنع ويات قمر فى الشتات يخرج من ضياع إلى ضياع: أصبح زكى حامد نجما شعبيا، استحوذ صبيان الحكومة على جميع الصحف فانعزلت صحافة مصر عن العالم، أصبحت دفتر أحوال للمؤسسة الحاكمة: استولى رجال المال والاستثمار على جميع المنافذ الحيوية فى البلاد، انضربت جميع القيم النبيلة، الحرية والشرف والأخلاق والوطن كلها أصبحت مفردات سيئة السمعة، تضخمت سلاسل قتل الزوجات للزواج وخطف الإناث.

نالنى من هذه الهيصة الكبرى نصيب، بالكاد تمكنت من الزواج فى شقة متواضعة لم تدخلها المياه بعد، اشتريت سيارة ماركة رمسيس بخمسائة جنيه كانت السيارات الفاخرة الفارهة التى تدفقت على البلاد تأخذ منها ومنى موقفا عدائيا عجيبا باعتبارها من بقايا فضلات ثورة يوليو المشؤومة. وكانت هذه السيارة بالفعل غبية عنيدة نذلة لا يحولها العطل إلا فى اللحظات الحرجة. تعطلت بى ذات يوم فى مدينة المهندسين قبل الغروب بدقائق: فركنتها فى منعطف وركبت إحدى سيارات الأجرة من مدخل كوبرى ستة أكتوبر لكى أستحضر الميكانيكى من ورشته فى بولاق، كان مبنى ماسبيرو يقترب على اليسار، ومبنى هيلتون النيل على اليمين فيما نحن مقبلين فوق الكوبرى على ميدان عبدالمنعم رياض حينما فوجئت بهصية كبيرة على إفريز الكوبرى: جمع كبير من الرجال والسيدات والأطفال، تهللنا لنرى إن كانت حادثة قد وقعت لإحدى هذه السيارات الراكنة على اليمين: فإذا بى أفاجأ بصالح هيصة شخصيا، واقفا بلحمه وشحمه، بسحنته الخلاسية وشعره الأبيض كطاقية من الثلج المندوف، وقامته الفارعة، تحت كشافات وأضواء مبهرة. نزلت من التاكسى، جريت إلى صالح هيصة بشوق عارم عرامة القهر

والمذلة طوال السنين الفائتة. كنا لانزال مكسورين من تدمير أمريكا لدولة العراق الشقيق بعد إجلائه قسرا عن الكويت حيث اضمحلت آخر شمعة كانت في يد جيلنا: القومية العربية. كنت في متاهة الشعور بالضياح التام في حاجة فعلية إلى صالح هيصة لعله يفلسف لي - بمنطقه البدائي الحكيم - أحرانى الكثيرة التى من فرط تراكمها أصبحت أجهل أسبابها..

تدافعت بين الزحام أريد الارتواء على صدر صالح هيصة، أوقفتنى أيد كثيرة فى اللحظة التى داهمتنى فيها الأهوال، حيث تبينت عن قرب أن صالح هيصة الواقف أمامى هو الممثل زكى حامد يصور لقطة فى أحد أفلامه حيث يقف مستندا على السور الحديدى للكوبرى ناظرا بأسف وحسرة فى ميدان الشهيد عبدالمنعم رياض الذى راح يعج بسيارات لاحصر لها وزئيط جنونى وسحب من الدخان الأسود. وراح صوته، نفس الصوت الحميم بكل نبراته الحبيبة، ينساب بلهجة فجائية تحذيرية كلهجة العراف تيريزياس فى المأسى الإغريقية:

- «ربنا خلق الدنيا هيصة! كل واحد فى هيصة! يعمل هيصة! عشان يلحق الهيصة! وياللق ياميلحقش! وكلهم كحيانين! كل واحد كحيان بطريقته! وأنا زعيم الكحيانين! عشان كحيان بكل الطرق!!».

فى الحال انطفأت جميع الأضواء فغرقت المدينة فى ظلام دامس. صرنا نتخبط كجثث تتقلب فى قبر أضيق من حمام الحاج جمال فرحان.

تمت

صقر قریش - المعادى - مايو ١٩٩٩

رقم الايداع : ٢٠٠١/٩٥٧٥

I. S. B. N

977 - 07 - 0903 - 4

روايات الهلال تقدم:

غريبان في قطار

تأليف

باتريشيا هايسميث

ترجمة

محمد عبدالمنعم جلال

تصدر: ١٥ أغسطس سنة ٢٠٠٠

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنية
٦٠٧	رمزة ابنة الحريم	قوت القلوب الدمرداشية	يوليو ١٩٩٩	٥,٠٠
٦٠٨	مالون يموت	يوجين يونسكو	أغسطس ١٩٩٩	٥,٠٠
٦٠٩	عيون البنفسج	علاء الديب	سبتمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٠	تل الهوى	يوسف أبو رية	أكتوبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١١	قط وفار	جونتر جراس	نوفمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٢	الكائن الظل	اسماعيل فهد اسماعيل	ديسمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٣	طيور العنبر	ابراهيم عبدالمجيد	يناير ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦١٤	خمرة	أمين العيوطى	فبراير ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٥	القلق السرى	فوزية رشيد	مارس ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦١٦	فئران بلا جحور	أحمد ابراهيم الفقيه	ابريل ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٧	خزانة الكلام	جميل عطيه ابراهيم	مايو ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٨	بوح الاسرار	محمد جبريل	يونيه ٢٠٠٠	٥,٠٠

الرواية

هذه



خيرى شلبى

● من مواليد عام ١٩٣٨.

● روائى ، وكاتب قصة

قصيرة، والمقال الادبى،

حصل على جائزة الدولة

التشجيعية عام ١٩٨٠.

● قدم للمكتبة العربية

خمسین كتاباً، من أشهر

رواياته «الأولاش»،

«السنيرة»، «اللعب خارج

الحلبة»، «الوتد» ،

«الشطار»، «رحمنات

الطرشجى والحلوجى»،

«وكالة عطية»، «أولنا ولد»،

«ثانينا الكومى»، «ثالثنا

الورق»، وتود أحداث رواياته

فى البيئة الشعبية المصرية،

خاصة أحياء مصر القديمة

والمناطق الريفية العتيقة.

● وتحولت بعض أعماله

الروائية إلى أفلام سينمائية ،

مثل «الشطار» ، «سارق

الفرح».

كثيراً ما نعبّر إلى جوار أماكن ما ، دون
أن نشعر أن هذه الأماكن الصغيرة يمكن أن
تكون شاهداً صادقاً على عصر بأكمله ، بل
على تاريخ طويل من حياة الأشخاص.

وفى شارع صغير، بوسط مدينة القاهرة
يقع مقهى صغير ، يعمل فيه صالح هيصة ..
شاهد على عصر .. بأشخاصه ، وأحداثه،
وتدفقاته ، وجنونه ...

وبلغته المتدفقة الحية ، استطاع خيرى
شلبى أن يستخرج باطن العصر، وأسراره ،
واستجلب شخصيات حقيقية من لحم ودم .

صالح هيصة

ليست فقط إضافة جديدة فى مسيرة
الكاتب الروائية بل هى لبنة جديدة فى جدران
الرواية العربية الملهمة.

عائلة روايات الهلال

● اذا كنت من هواة قراءة الابداع
الراقى عربيا وعالميا ، فشارك مغنا عائلتنا
الابداعية «عائلة روايات الهلال».

● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ،
أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد
المضمون الى عنوانك

●+● عاما من الابداع المثالى

● تم اختيار أعمالنا لتكون أفضل
الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية.

● تحصل رواياتنا على اهم الجوائز
الأدبية . وتتم ترجمتها إلى لغات العالم .

● مرة أخرى .. إذا كنت من قراء
الابداع الجيد .. فانضم الى «عائلة روايات
الهلال» .

